النبي يوسف عليه السلام

في القرآن الكريم والعهد القديم والتاريخ

الإعجاز اللغوي والقصصي والتاريخي في سورة يوسف

تأليف
الدكتور لؤي فتوحي



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان

النبي يوسف عليه السلام

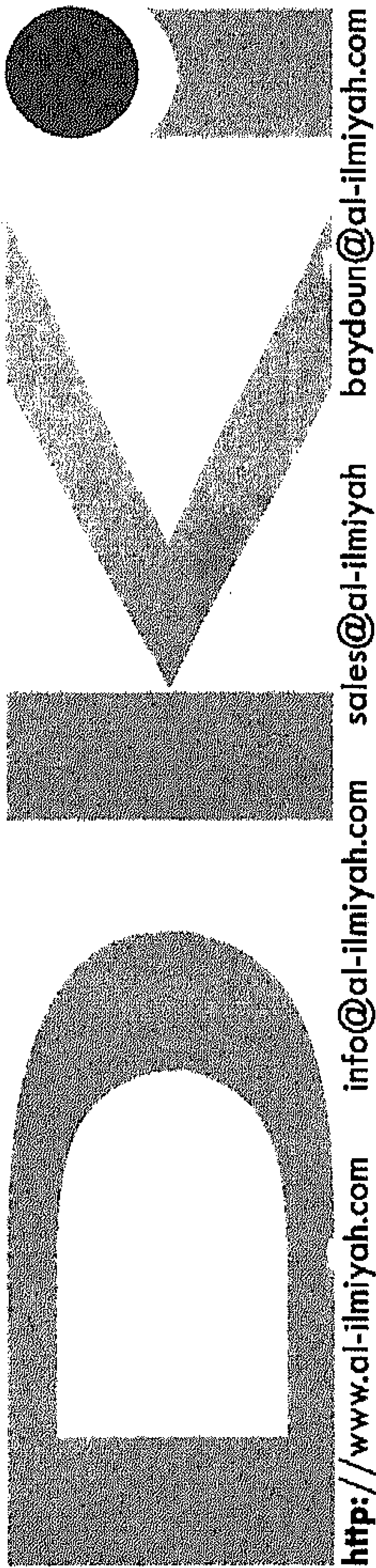
في القرآن الكريم والعهد القديم والتاريخ

الإعجاز اللغوي والقصصي والتاريخي في سورة يوسف

تأليف

الدكتور لؤي فتوحي


دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban



الكتاب : النبي يوسف عليه السلام
في القرآن الكريم
والعهد القديم والتاريخ

Title : AN-NABIYY YŪSUF
FĪ AL-QUR'ĀN AL-KARĪM
WAL-'AHD AL-QADĪM WAT-TĀRĪH

التصنيف : قصص أنبياء

Classification: Stories of the prophets

المؤلف : الدكتور لؤي فتوحي

Author : Dr. Louay Ftouhi

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

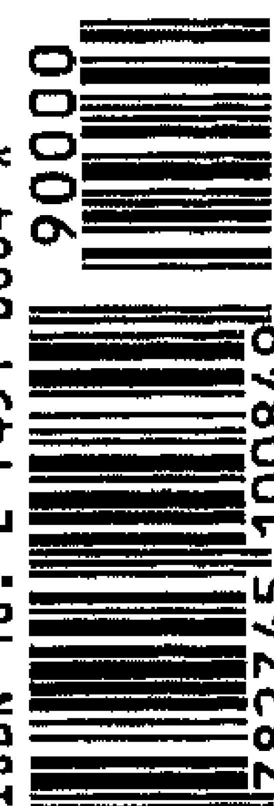
Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages	288	عدد الصفحات
Size	17×24 cm	قياس الصفحات
Year	2015 A.D - 1436 H.	سنة الطباعة
Printed in : Lebanon		بلد الطباعة : لبنان
Edition : 1st		الطبعة : الأولى

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+ /١١/١٢
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: 56)

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف: 3)

مقدّمة الترجمة العربية

لقد نشرت أكثر من عشرة كتب باللغة الإنكليزية، من ضمنها هذا الكتاب. إذ نُشرَ لأول مرة باللغة الإنكليزية من قبل دار النشر إسلامك بوك ترست Islamic Book Trust في عام 2005 في ماليزيا ومرة ثانية في سنة 2007 من قبل لونا بلينا ببلشينغ Luna Plena Publishing في بريطانيا. واخترت الكتابة باللغة الإنكليزية أولا لكي أستخدم فهمي للثقافة الغربية وطريقة تفكير الإنسان الغربي، حيث إنني أعيش في بريطانيا منذ أكثر من عقدين، لعرض الفكر الإسلامي ومظاهر الإعجاز القرآني بشكل يقربهما من عقلية القارئ الغربي باللغة الإنكليزية. فقد لاحظت بأنَّ كثيرا ما يحاول الكتّاب المسلمون محاورة العقل الغربي بنفس الأسلوب الذي يكلّموا به الإنسان العربي، مهملين الفروقات الهائلة بين ثقافة القارئ الغربي والثقافة العربية. وبدل أن تنجح مثل هذه الكتابات في تسهيل فهم الإسلام على الإنسان الغربي فإنها غالبا ما تنتهي إلى ترسيخ الهوة التي يجدها العقل الغربي بينه وبين الخطاب الإسلامي.

لكن في كتاباتي ما يثير اهتمام القارئ العربي مثلما هي للقارئ الغربي. إذ أحرص في أبحاثي على الكتابة عن مواضيع جديدة لم يسبق تناولها من قبل، كدراستي التفصيلية التأريخية والدينية لشخصية المسيح عليه السلام على ضوء المصادر المستقلة واللقط الآثارية، أو إضافة الجديد إلى ما سبق بحثه من قبل، مثل دراستي عن موضوع النسخ. وهذا الكتاب عن يوسف عليه السلام هو من هذا الصنف الثاني من الدراسات. إذ دُرِسَت قصة هذا النبي في القرآن من قبل الكثير من المفسرين والباحثين على مر الزمان، إلا أن تحليلي للنص القرآني الخلاب الغني بالمعاني قادني إلى ملاحظات جديدة تعزز فهمنا لهذه القصة روائيا ولغويا وتأريخيا.

عند ترجمتي للكتاب قمت ببعض التغييرات التي تحتمها فروقات التعبير بين اللغتين الإنكليزية والعربية، ولكن طبعا حافظت على المعنى الأصلي للنص.

لؤي فتوحي برمنغهام - بريطانيا

يناير/كانون الثاني 2015

مقدّمة الطبعة الإنكليزية

ستبقى علوم ومعارف القرآن الكريم دائما أكبر من أن يلم بها إنسان وذلك لسببين، هما عمق وامتداد العلوم القرآنية من جهة، ومحدودية ما يمكن للإنسان، بل وكل مخلوق، إدراكه واستيعابه من تلك العلوم من جهة أخرى. ومن أسباب محدوديّة الإنسان هذه هو محدوديّة معارفه العامة التي تشكّل بعض مصادر دراسة النص القرآني، وكما سنرى ببعض التفصيل في القسم 12-1. وهذا بدوره يعني بأنَّ ازدياد المعارف البشرية بمرور الزمن سيوفّر بشكل مستمر مصادرا جديدة لدراسة النص القرآني وفهمه. لذلك من غير الممكن لأي تفسير مضى أو سيأتي، ومهما كانت درجة علم المفسِّر، أن يدّعي بأنَّه تفسير كامل وشامل لكل معاني النص القرآني، أيّ نص قرآني، ولا أن يدّعي امتلاكه للكلمة الأخيرة حول معاني ذلك النص.

إن عمق علوم النص القرآني المقرون بمحدودية قابليّة المفسِّر ومصادر التفسير تعني بأنَّ باب الاجتهاد في تفسير النص لا بد أن يبقى مفتوحا. ووصف سيدنا مُحمَّد ﷺ القرآن العظيم بأنَّه كتاب «لا تنقضي عِبَرُه ولا تفنى عجائبه»[1] هو دليل جلي على ضرورة عدم التوقّف عن دراسة هذ الكتاب الفريد والاستمرار في محاولة معرفة المزيد والجديد عنه.

وتعاني الكثير من التفاسير من مشكلة منهجية خطيرة، وهي اعتمادها في تفسير النص القرآني على نصوص ليس من الممكن التحقّق من صحّتها، أو مشكوك في صحّتها، أو حتى ذات شبهة وعيوب واضحة، بما في ذلك أحاديث منسوبة إلى النبي. وكما أشرت في كتابي النسخ في القرآن العظيم والقانون الإسلامي فإن «قراءة المرء للقرآن عندما يكون لابسا لنظّارات الحديث غالبا ما تجعل معاني حتى أوضح الآيات خفيّة عن أكثر الأعين خبرة»[2]، وطبعا ينطبق هذا على

---

(1) الدّارمي، مُسنَد الدّارَمي، ج 4، ح 3375، ص 2099.

(2) فتوحي، النسخ في القرآن العظيم والقانون الإسلامي، ص 148.

غير ذلك من النصوص. وبسبب هذا العيب المنهجي، الذي سندرسه في الفصل الأول، كثيرا ما يتم تحميل النص القرآني الكريم معاني ليس لها أية صلة حقيقيّة به. إن تجنّب الوقوع في هذا الفخ المنهجي والاعتماد بدل ذلك على منهج استخدام النص القرآني في تفسير نفسه، وهو ما أدعو الله أن أكون قد نجحت في القيام به في هذا الكتاب، كفيل بتجنيب أية محاولة لتفسير الكثير من الأخطاء واللّادقّة.

من المهم أن يطّلع دارس النص القرآني على ما تقدَّم من محاولات تفسير لذلك النص. إلا أن الأكثر أهمية من هذا أن يكون المفسِّر قادرا على النظر إلى النص القرآني والتفكّر في معانيه بمعزل عما شاع عن ذلك النص من تفاسير. إن هذا شرط منهجي أساسي لضمان أن يتمكّن المفسِّر من قراءة النص القرآني مباشرة لا من خلال نص آخر يمثّل فهما معيّنا لذلك النص. ولكن للأسف فإن معظم محاولات تفسير القرآن تفتقر إلى هذه الخاصّيّة الأساسية وتعكس تأثر المفسِّر بتفاسير معيّنة على حساب دراسته للنص القرآني بحياديّة.

إن لكل سورة من سور القرآن العظيم خصوصيّتها وميّزاتها، وكذلك لسورة يوسف مكانتها المتميّزة بين باقي سور القرآن. فمن خلال قصّة فريدة سيّر الله حوادثها بأيدي لطفه وأحْكَمَ قَصّها في كتابه العزيز تمنحنا هذه السورة الكريمة دروسا عظيمة تسلب القلب بجمالها وتأسر العقل بحكمتها. وكباقي سور القرآن العظيم التي انكبّ العلماء على دراستها منذ القِدَم كانت لسورة يوسف حصّتها من محاولات البحث والتفسير التي قام بها مُفسِّرو النص القرآني. لذلك فإن تقديم تفسير آخر لهذه السورة الكريمة يجب أن يبرره تحلّي هذا التفسير بالحداثة والأصالة وإضافة الجديد إلى ما سبق وإن قدّمه آخرون. إن هذا التفسير يختلف كثيرا عن التفسيرات التقليدية لسورة يوسف ويخرج من تحليله للآيات الكريمة باستنتاجات كثيرا ما تخالف ما شاع من آراء بين المفسِّرين.

لقد ذكرت أعلاه بأنَّ نجاح محاولة تفسير نص قرآني ما لا يعني أكثر من نجاحها في تفسير بعض معاني ذلك النص الكريم. ومن الطبيعي أن أية محاولة تفسيرية هي عِرضة للخطأ أيضا، لذلك فإنني أبعد من أن أدّعي بأنَّ تفسيري هذا يخلو من العيوب وأنني نجحت في تفسير كل ما حاولت تفسيره من آيات الذكر الحكيم. إن مما لا شك فيه أن لهذه الدراسة أخطاءها وعيوبها ونواقصها، حالها في

هذا حال أية محاولة بشرية متواضعة ومحدودة لدراسة النص الإلهي السامي. وعادة أصف هذه الحالة العامة بالقول بأنّني أعلم بوجود أخطاء وعيوب في كتاباتي إلا أنني لا أعلم هذه الأخطاء والعيوب تحديدا، وإلا لعالجتها طبعا!

فكل ما أستطيع قوله عن هذا التفسير هو أنه تجنّب الكثير من العيوب الشائعة في محاولات تفسير النص القرآني بشكل عام وتفسير سورة يوسف بشكل خاص، ولذلك فإنني أعتقد بأنّه نجح بشكل عام، لا في كل موضع، في أن يكون أقرب إلى الصحّة مما سبقته من محاولات لتفسير هذه السورة الكريمة. وبينما شرحت بالتفصيل تفسيري للنص القرآني، فإنني أشرت في العديد من مواضع البحث إلى عجزي عن ترجيح تفسير محتمل معيّن على آخر. كما أنني ميّزت بدقة بين التفسير الذي أراه «محتملا»، أي يتّفق مع ظاهر النص، وبين التفسير الذي أراه «مُرجَّحا»، أي الذي أعتقد بوجود أسباب لتفضيله على غيره من التفاسير المحتملة.

إن من الممكن تلخيص هذه الجولة التفسيرية بأنّها محاولة لعيش قصّة يوسف بكل تفاصيلها التي أكّد النص القرآني صراحة حدوثها وكذلك تلك التي أشار إلى وقوعها بشكل غير مباشر. إلا أنني وجدت بأنَّ من المفيد، بل والضروري، أحيانا الإشارة إلى تفاصيل أخرى محتملة يمكن ربطها بقصّة يوسف رغم عدم وجود دليل في النص يؤكّد حدوثها. إلا أنني اجتهدت في أن أميّز بين مثل هذه التفاصيل المحتملة وتلك التي يشير إليها النص بشكل مباشر أو بشكل ضمني.

ولكي تكون دراستي أقرب ما يمكن إلى الموضوعية فإنني لم أقتصر على ذكر تفسيري للآيات الكريمة بل أشرت أيضا في الكثير من مواضع الدراسة إلى أهم التفاسير البديلة التي جاء بها المفسِّرون. كما أنني لم أركّز فقط على الحجج التي تؤيّد تفسيري وإنما ذكرت ما يمكن أن يرى فيه البعض حججاً تخالفه وبيّنت عيوبها وسبب عدم أخذي بها. تتوزّع مادة هذا الكتاب على اثني عشر فصلا سنتناول فيما يلي مواضيع كل منها باختصار.

يتناول **الفصل الأول** موضوعين من الضروري بحثهما قبل البدء بمحاولة تفسير سورة يوسف في الفصول اللاحقة، أولهما هو الخصائص التي تميّز الأسلوب القرآني في رواية التاريخ، وثانيهما المشاكل الشائعة التي تعاني منها كثير من محاولات تفسير نص القرآن الكريم. حيث يتطرّق الفصل مثلا إلى عيوب معيّنة في تفاسير سورة

يوسف. كما يحتوي الفصل على عرض مختصر لقصة يوسف وفقا للرواية القرآنية.

وتشمل الفصول التسعة التالية، من الثاني إلى العاشر، على تفسير سورة يوسف كاملة حيث قمت بتتبّع آيات السورة بالتسلسل. والأسلوب الذي اتّبعته هو ذكر كل آية كريمة أولاً ثم إتباعها بتعليقي عليها. لقد استعملت خطّاً خاصا عند كتابة الآيات الكريمة حيثما وردت.

تبدأ سورة يوسف بثلاث آيات عامة وتنتهي بعشر أخرى ليست بجزء من قصة يوسف. لذلك فقد خصصت **الفصل الثاني** لدراسة الآيات الثلاث الأولى (1-3) **والفصل العاشر** لدراسة الآيات العشر الأخيرة (102-111) من السورة. أما قصة يوسف، التي تشغل ثمان وتسعين آية (4-101)، فتدرسها الفصول 3-9، حيث يركّز كل فصل من هذه الفصول السبعة على مرحلة معيّنة من القصة.

ويبحث **الفصل الثالث** الآيات 4-14 التي تدور أحداثها حين كان يوسف لايزال يعيش في بيت أبيه. أما **الفصل الرابع** فيشمل تفسير الآيات الكريمة 15-20 التي تصف اخذ يوسف إلى مصر. ثم يتناول **الفصل الخامس** الفترة من دخول يوسف إلى مصر وإقامته فيها لغاية دخوله السجن والتي تصفها الآيات الكريمة 21-35. ثم تبيّن الآيات 36-53 ما حدث أثناء حبس يوسف وإلى أن خرج من السجن، وهو موضوع **الفصل السادس**.

يدرس **الفصل السابع** الآيات 54-68 التي تتناول خروج يوسف من السجن وتولّيه منصبا رفيعا في مصر. كما يتناول الفصل بالبحث مجيء إخوة يوسف إليه طالبين مُؤَن في سنين قحط والمحاولة التي قام بها لدفع إخوته العشرة لجلب شقيقه بنيامين إلى مصر. أما **الفصل الثامن**، الذي يشمل تفسير الآيات 69-79، فيدرس اجتماع يوسف مع بنيامين وكيفية إبقائه له معه في مصر.

ويبحث **الفصل التاسع** آخر الآيات من قصة يوسف، أي الآيات 80-101، والتي تصف ذهاب بصر يعقوب بسبب الحزن ثم معجزة شفائه بقميص يوسف ثم مجيئه وباقي أهله إلى يوسف في مصر والعيش معه هنالك. ثم يتناول **الفصل العاشر** بالبحث الآيات العشر الأخيرة من سورة يوسف، وهي الآيات 102-111، التي فيها مواعظ عامّة.

بحَثَت الفصول التسعة من الثاني إلى العاشر إعجاز القرآن العظيم من خلال

دراسة النص القرآني لوحده. أما **الفصل الحادي عشر** فيأخذ منحىً آخراً في دراسة الإعجاز القرآني وذلك من خلال مطابقة معلومات من قصة يوسف مع معلومات تأريخية عن مصر القديمة.

وهدف الفصل هو تحديد العصر والمكان في مصر اللذين يمكن أن يكون يوسف قد عاش فيهما. لقد اتّبعنا هذا المنهج البحثي أيضا في دراستنا لقصة النبي موسى وتاريخ بني إسرائيل القديم في كتابنا التاريخ يشهد بعصمة القرآن: تاريخ بني إسرائيل المبكّر.

إن هنالك منحىً ثالثاً في دراسة مظاهر الإعجاز الإلهي في القرآن العظيم يتمثّل في مقارنة النص القرآني بغيره من النصوص الدينية. ولا شك أن أنسب نص للمقارنة مع سورة يوسف في القرآن هو نص قصة يوسف في كتاب العهد القديم، وهو ما يبحثه **الفصل الثاني عشر** والأخير من الكتاب. كانت كتابة هذا الكتاب حلما طالما فكّرت فيه، والحمد لله الذي يسّر لي تحقيقه. فمنذ أن هداني الله إلى الإسلام وقرآنه الكريم وجدت في سورة سيدنا يوسف جمالا خاصّا هيمَنَ على قلبي وعلما جمّا وحكمة بالغة ملكا عقلي. لقد أَحْسَنَ الله شكل عبده يوسف وأَحْسَنَ خُلُقَه، ثم روى قصّته في القرآن العظيم فجعلها من أحسن القصص.

أود أن أختص بالشكر زوجتي الأستاذة الدكتورة شذى الدركزلّي على ملاحظاتها القيّمة الكثيرة التي ساعدتني بإذن الله على إدخال الكثير من التحسينات على المسودّة الأولى من الكتاب. كما أشكر شقيقيّ دريد وفائز على تعليقاتهما الثمينة التي مكّنتني هي الأخرى من إضفاء تحسينات على الكتاب.

ويبقى لله أصل كل فضل وأهل الشكر أولا وأخيرا، السابق بأمره كل أمر. فالشكر والحمد لله على كل ما يسّر لهذا الكتاب النجاح في تفسيره من نص قرآنه الكريم الذي ليس لمخلوق أن يلمّ بكل معانيه، وأسأله المغفرة على كل ما أخطأتُ فيه. قال رسول الله سيدنا مُحمَّد ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[1]، فعسى الله أن يجعل هذا الكتاب ثمرة نيّة حسنة، والصلاة والسلام على نبي القرآن سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما.

---

(1) البخاري، الجامع الصحيح، ج 1، ح 1، ص 49.

1

رواية التاريخ وقصة يوسف في القرآن العظيم

سنتطرّق في هذا الفصل أولا إلى خصوصيات الأسلوب القرآني في رواية التاريخ. ثم نستهل دراستنا لقصة يوسف بعرض مُلخَّص لأحداثها مُقتَبَس من نص القصة في القرآن الكريم. أما القسم الأخير من الفصل فسنتناول فيه بالبحث مشاكل شائعة في محاولات تفسير القرآن العظيم.

1 ـ 1 رواية التاريخ في القرآن الكريم

من الضروري أن نتحدث قليلا عن خصوصية السرد الروائي التأريخي في القرآن العظيم قبل البدء بدراسة قصة يوسف في الكتاب العزيز، حيث إن مثل هذه المعلومات لا غِنى عنها عند دراسة القصص القرآني للتقرّب قدر ما يتيسّر من معنى النص. ولكن قبل البدء بذلك من الضروري الإشارة إلى سمة يتميّز بها نص القرآن العظيم عموماً وتظهر فيه بأشكال عديدة، وهي استخدام كتاب الله للأسلوب والتعبير الموجز، وليس فقط الأبلغ، في إيصال المعنى المقصود. وأحد الأشكال التي يأخذها هذا الأسلوب الخاص هو عدم ذكر الكتاب العزيز صراحة لما يمكن استنتاجه من نص صريح آخر. من الأفضل شرح هذا باستخدام أمثلة مباشرة من الكتاب العزيز، مثل هذه المجموعة من الآيات الكريمة التي تبدأ بخطاب الله لموسى وهارون:

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48) قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ

خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى (51) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ (طه: 47- 52).

يُعلِّمُ اللهُ موسى وهارون في الآيتين 47 و48 جوهر الرسالة التي يجب عليهما نقلها إلى فرعون، ولكن حين يخبرنا القرآن العظيم في الآية الكريمة 49 عن الجدال الذي دار بين موسى وهارون من جهة وفرعون من جهة أخرى لا يذكر ما قاله النبيّان، لأنه نفس ما علّمه الله لهما في الآيتين السابقتين، فبدأ مباشرة بذكر رد فرعون على تلك الرسالة. أي كأن القرآن الكريم يقول ضمنيا بعد الآية 48: «وذهب موسى وهارون إلى فرعون وقالا له ما أمرهما الله به». كما تجدُر ملاحظة استخدام الله في الآيات أعلاه للفعل ﴿قَالَ﴾ من غير تحديد هوية القائل وذلك لأن السياق يبيّن بأنَّ المتكلِّمَين هما موسى وفرعون ويجعل هوية صاحب كل قول واضحة تماما.

من بعد هذه الإشارة السريعة إلى أسلوب القرآن العظيم في اختيار أقصر التعابير والجمل البليغة في إيصال المعنى، لنبحث الآن في أسلوب القرآن العظيم في رواية التاريخ:

يحتوي القرآن على الكثير من القصص التأريخية عن أفراد، صالحين وكافرين، وأمم عاشوا قبل عصر الرسول الأعظم محمد ﷺ. ويستعمل القرآن الكريم هذه القصص لإيصال رسالته من خلال الدروس الإرشادية التي تحملها تلك القصص. ولما لم يكن اهتمام القرآن العظيم منصبّا على التأريخ البحت وإنما على المواعظ والمعاني التعليمية التي تحملها الأحداث التأريخيّة، فإن لهذا الكتاب الإلهي أسلوب خاص وفريد في رواية التاريخ يختلف به عن أي كتاب بشري يهتم بالتأريخ وروايته. إن دراسة القصة القرآنية لا تتطلب فهم النص التأريخي القرآني فحسب وإنما أسلوب القرآن العظيم في رواية التاريخ أيضا.

وأولى السمات التي تميّز الرواية القرآنية عن السرد القصصي التقليدي هي إيجازها النسبي، وهذه السمة هي امتداد لما تقدّم ذكره من استخدام القرآن بشكل عام لأقصر التعابير وأبلغها. فكثيرا ما يتجاوز القرآن العظيم عن ذكر تفاصيل ثانوية

تُعطِي أهمية في الرواية التأريخية التقليدية. فمثلا غالبا ما يتجاوز القرآن العظيم عن ذكر أسماء شخصيات وأماكن في قصة ما، بالرغم من أهميتها الظاهرية في تلك القصة. ومن الأمثلة البارزة على الشخصيات المهمة في الرواية القرآنية التي يذكرها الله من غير أن يصرّح بأسمائها القرآنية هي إخوة يوسف الأحد عشر، وزوجة آدم وابنيه، وفتى موسى، والرجل الصالح الذي التقاه موسى المذكورَين في سورة الكهف. بل ويشير أحيانا إلى بعض أنبيائه من غير أن يعلن صراحة أسماءهم، كما في الآيات الكريمة التالية، على سبيل المثال:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: 246 - 248).

بالرغم من إشارة الله إلى طالوت باسمه، فإنه يشير إلى النبي في الآيات الثلاث بصفته من غير أن يصرّح باسمه، والله أعلم بسر ذلك.

كما أن هنالك الكثير من الأمثلة أيضا على أماكن ومدن يشير إليها الله في مواقع متعددة من الكتاب العزيز من غير أن يصرّح بها، كمكان نزول آدم (البقرة: 36؛ الأعراف: 24)، والقرية التي أُرسِل إليها النبي يونس (يونس: 98)، ومكان ولادة عيسى (مريم: 23).

بالإضافة إلى ما تقدّم، تشمل صفة الإيجاز البليغ في الرواية القرآنية التجاوز عن ذكر معلومات تكون عادة ذات أهمية في فن القصة التقليدي. فمثلا يسرد القرآن بشكل مطوّل نسبيا في العديد من المواضع قصة معاناة نبي ما مع قومه الكافرين

برسالته وانتقام الله لاحقا من أولئك القوم دون أن يعطي تفاصيل كثيرة عن حادثة الانتقام نفسها، حيث غالبا ما يقتصر الذكر على نوع العذاب والإشارة إلى أنه قضى على القوم الكافرين. وعلى سبيل المثال، يذكر الله في عدد من السور بعض تفاصيل قصة النبي هود، إلا أنه يذكر بشكل مختصر جداً حادثة انتقامه من الكافرين:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: 72).

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (هود: 58 – 60).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: 139).

إن حادثة الانتقام تمثّل نهاية قصة صراع هود مع قومه وبالتالي فإنها ذات أهمية خاصة في السرد القصصي التقليدي، إلا أن الله يقصر ذكره لها على تبيان نصره لنبيه هود وتدميره للقوم الكافرين.

ومن الصفات الأخرى المميّزة للرواية القرآنية ورود تفاصيل الرواية القرآنيّة المعينة عادة في أكثر من موضع في كتاب الله، كما في قصة موسى مثلا. لذلك يتطلّب الوصول إلى صورة متكاملة وشاملة لأية قصة في كتاب الله جمع تفاصيلها من مختلف السور التي ترد فيها. أما قصة يوسف التي ترد بالكامل في السورة المسمّاة على اسم ذلك النبي فهي الاستثناء لا القاعدة.

من الممكن أن يأخذ ذكر حادثة معيَّنة أشكالا مختلفة في السور المختلفة وفقا لما يريد الله إبرازه أو التركيز عليه في ذلك الموضع من كتابه. فمثلا قد يرد حوار تاريخي معيّن بعدد من التعابير المختلفة بهدف إيصال معنى ذلك الحوار. ويجب أن لا ننسى هنا أنّ لغة ذلك الحوار غالبا لم تكن عربية القرآن أصلا، هذا إن كانت بالعربية أساسا، كالحوار بين العديد من الأنبياء وأقوامهم. وفيما يلي بعض آيات من سور مختلفة تصف أول حديث بين الله وكليمه موسى، حيث تتجلّى الصياغات

اللغوية المختلفة المستعمَلة في السور الثلاث في وصف نفس الحادثة، ويتّضح كذلك الاختلاف في التفاصيل التي تعطيها كل سورة كمّا ونوعا:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (النمل: 7 - 12).

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِن النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِن الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِن الآمِنِينَ (31) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِن الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ (القصص: 29 - 35).

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء: 10 - 17).

من السمات الأخرى المميّزة للأسلوب القرآني غير التقليدي في سرد القصة التأريخيّة هي ذكره في آيات متتالية لأحداث منفصلة لم تقع بشكل مباشر بعد بعضها البعض. ومن الأشكال التي يأخذها هذا الأسلوب هو ذكر حادثة ما أحيانا وسط وقائع أخرى أحدث منها بهدف إبراز أمر ما، أي تجاوزا لسرد الأحداث وفق تسلسلها التاريخي. في مثل هذه الحالات، حيث يمثل ذكر كل حادثة تغييرا في سياق السرد التاريخي، يرتبط ذكر هذه الأحداث مع بعضها بـ ﴿إِذْ﴾ التي تعني «عندما» وليس بواسطة «ثم» أو «فـ» اللتين تفيدان في تأكيد التسلسل التاريخي للأحداث. لاحظ بأنَّ ﴿إِذْ﴾ تختلف عن ﴿إِذَا﴾ الشرطية. وفيما يلي بضع آيات تبيّن الاستعمال الخاص لكلمة ﴿إِذْ﴾:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (123) وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: 123 - 127).

من الملاحَظ أن كلمة ﴿إِذْ﴾ في الآية 124 تبدأ سياقا جديدا، وهو الكلام عن إبراهيم. ثم نلاحظ أيضا ذكر الله في الآية 125 لحادثة تلت بناء الكعبة الشريفة، ثم ذكره في الآية 126 لحادثة دعاء إبراهيم اللاحقة لحادثة البناء، قبل أن يعود في الآية 127 إلى ذكر حادثة بناء الكعبة الشريفة من قبل إبراهيم وإسماعيل. إن هذه حوادث لم تقع بعد بعضها مباشرة، أي أنها حوادث مختلفة، ولذلك يستخدم الله كلمة ﴿إِذْ﴾ للإشارة إليها.

بقي أن نؤكد بأنَّ هذا الأسلوب الخاص للقرآن العظيم في سرد التاريخ لا

يتعارض مع حقيقة أن كتاب الله يقدّم كل البيانات التأريخية، كغيرها من المعلومات القرآنيّة، على أنها حقائق تصف أحداثا كما وقعت بالضبط تفصيلا وإجمالا. إن هذا يعني بأنَّ من الممكن تسخير المعارف البشرية التأريخية المتنامية باستمرار في خدمة القرآن العظيم وذلك بالبحث عن بيانات تأريخيّة موثَّقة تتناول الوقائع التي يؤرّخها كتاب الله، أي استخدام تلك المعارف البشرية كمصادر لدراسة كتاب الله العزيز.

1 ـ 2 عرض مختصر لقصة يوسف في القرآن المجيد

وردت قصّة يوسف في القرآن العظيم بأكملها في السورة التي تحمل اسمه والتي تحتل التسلسل الثاني عشر بين سور المصحف الشريف المائة والأربع عشرة. وتتكون سورة يوسف من مئة وإحدى عشرة آية. كما ورد اسم هذا النبي الكريم في القرآن العظيم مرّتين فقط خارج سورة يوسف، مرة في سياق ذكر الله لعدد من أنبيائه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأنعام: 84)، ومرة ثانية عند تذكير أحد المؤمنين في مصر في عصر موسى لقومه بيوسف الذي عاش هنالك قبل حوالي أربعة قرون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ (غافر: 34).

إن سورة يوسف مكيّة، أي نزلت في مكة المكرَّمة قبل هجرة الرسول إلى يثرب التي أصبحت تعرف بالمدينة المنوَّرة بعد الهجرة النبويّة الشريفة. ويعتقد بعض العلماء بأنَّ أربع من آيات السورة مدنيّة، أي نزلت في المدينة المنوَّرة، وهي الآيات الثلاث الأولى والآية السابعة، لكن ليس في هذه الآيات الأربع ما يستوجب افتراض كونها مدنيّة.

وسنقدّم في هذا القسم عرضا مختصرا لأحداث قصة يوسف مُشتقّا من الرواية القرآنية. تبدأ القصة بيوسف الصغير وهو يقص على أبيه رؤيا شاهد فيها أحد عشر

كوكبا والشمس والقمر يسجدون له. عندما سمع يعقوب رؤيا ابنه أمره بعدم إخبار إخوته بها خشية أن يكيدوا له لأنهم كانوا يكنّون ليوسف حسدا لاعتقادهم بأنَّ والدهم يحبه أكثر منهم. ثم يخبرنا القرآن عن وضع إخوة يوسف خطّة للتخلّص منه. فبعد حصول إخوة يوسف على موافقة أبيهم على اصطحاب يوسف معهم إلى حيث يرعون ماشيتهم، ألقوه في قاع بئر عسى أن يلتقطه بعض المارّة من المسافرين ويأخذوه معهم إلى أرض بعيدة عن أرض أبيهم يعقوب. ثم عادوا إلى أبيهم متظاهرين بالبكاء وهم يحملون قميص يوسف وقد لطّخوه بدم غير دمه، مدّعين بأنَّ ذئبا افترسه بينما كانوا عنه غافلين. أما الغلام يوسف، فعثرت عليه قافلة مسافرين وأخذوه معهم وباعوه في مصر، حيث نجده بعد بضع سنين الذي اشتراه هنالك محتلا لمنصب مرموق يسمى «العزيز».

حين أصبح يوسف شابا، وكان آية في الجمال، حاولت زوجة العزيز إغواءه، إلا أنه رفض محاولاتها. فهددته بأنَّه إن لم يخضع لرغباتها فإنها ستضعه في السجن. إلا أن يوسف الطاهر فضّل دخول السجن على ارتكاب الفحشاء.

بعد حين سُجِنَ معه شخصان آخران، أحدهما ساقي الملك. كان السجينان قد شاهدا علامات على تقوى يوسف وقابلياته الخارقة للعادة فطلب كل منهما منه تفسير رؤيا شاهدها. ففسّر يوسف الرؤيتين بدقّة، مبيّنا للسجينين بأنَّ أحدهما سينتهي به الأمر بالصلب فيما سيُطلَق سراح الآخر ويعود إلى عمله ساقياً للملك. وطلب يوسف من ساقي الملك أن يذكر قصة ما تعرّض له من ظلم أمام الملك بعد أن يتحقّق منامه ويعود إلى خدمة سيّده. لكن الشيطان أنسى ساقي الملك أمر يوسف فلبث في السجن.

وبعد بضع سنين رأى الملك مناما وطلب من حاشيته تفسيره، إلا أنّهم عجزوا عن ذلك. عندئذ تذكّر الساقي يوسف فأخبرهم بشأنه وطلب الإذن بالذهاب إليه ليطلب منه تفسير منام الملك. وأوّل يوسف منام الملك مبيّنا بأنّه ستمر سبع سنوات وافرة المحاصيل تليها سبع شحيحة، ومن ثم تلي سنوات الشدّة تلك سنة ينعم فيها الناس بغيث غزير. عندما سمع الملك تفسير يوسف لمنامه طلب إحضاره عنده، إلا

أن يوسف أعاد رسول الملك بطلب إلى الملك بأن يسأل الذين كانت لهم يد في وضعه في السجن عن حقيقة ما حدث. حينئذ اعترفت زوجة العزيز بما حدث. وبعد أن أطلق الملك سراح يوسف أراد أن يجعله من حاشيته المقرّبين، فطلب يوسف من الملك أن يجعله مسؤولا عن مخازن البلاد، فوافق الملك على طلبه.

خلال سنوات الجفاف السبعة التي تلت سنوات الخير السبعة، التي تنبأ يوسف بحلولها، جاء إخوته إلى مصر طلباً للمُؤَن. فعرفهم يوسف حين أُدخِلوا عليه إلا أنهم لم يتعرّفوا عليه. فزوّدهم يوسف بالمؤَن وطلب منهم أن لا يأتوه ثانية من دون أن يجلبوا معهم أخا لهم من أبيهم، أي أخا غير شقيق. فلما عادوا إلى أبيهم أخبروه بطلب يوسف وطلبوا منه أن يسمح لهم بأن يأخذوا معهم أخاهم بنيامين[1] ليجلبوا المزيد من المؤَن. إلا أن يعقوب الذي أرسل معهم يوسف فغدروا به لم يوافق على إرسال ابنه الآخر معهم من قبل أن يقسموا قسماً ثقيلاً بأن يعودوا به إليه ما لم يقع أمر خارج عن سيطرتهم. فلما أقسموا على ذلك، أرسل معهم بنيامين.

وعندما جاء إخوة يوسف إليه ثانية، هذه المرة مستصحبين معهم بنيامين، قرّب يوسف بنيامين منه وكشف له بأنّه أخوه الذي أساء إخوته معاملته هو الآخر. ثم وضع يوسف خطة أخبر بها بنيامين ليبقيه معه من غير أن يكشف عن هويّته، حيث اتّهمه بسرقة كأس الملك واحتجزه فلم يسمح له بالعودة مع إخوته. وكان أول تعليق لإخوته على تلك الحادثة هي ادّعائهم كذبا بأنَّ أخاً له كان قد سرق من قبل. إلا أنهم حاولوا بعد ذلك إقناع يوسف بأن يترك بنيامين يعود معهم ويسجن أحدهم بدلا عنه لأنّهم كانوا قد وعدوا أباهم بأن يعودوا ببنيامين إليه، إلا أن يوسف رفض

(1) لا يذكر القرآن الكريم اسم أي من إخوة يوسف، لكن درج المفسّرون على استخدام أسمائهم الواردة في كتاب العهد القديم، بما في ذلك الإشارة إلى شقيق يوسف باسم «بنيامين». ولما كان مصطلح «أخو يوسف» يتكرر كثيرا في هذا الكتاب فقد ارتأينا نحن أيضا أن نشير إليه باسم «بنيامين». إلا أنه من المهم التأكيد على عدم وجود دليل في القرآن يؤكد أو ينكر بأنَّ هذا كان فعلا اسمه.

عرضهم. أما يعقوب الذي كان لايزال حزينا على اختفاء يوسف، رغم علمه من الله بأنّه كان لا يزال حيا، ففقد بصره نتيجة لذلك الحزن.

ثم أرسل يعقوب بنيه مرة أخرى إلى مصر للبحث عن يوسف وبنيامين. فلما دخلوا على يوسف في زيارتهم الثالثة له كشف لهم هذه المرة عن شخصيته، فأذهلتهم المفاجأة وأبدوا ندما جديّاً على ما فعلوا وتابوا. ثم طلب منهم يوسف أن يأخذوا قميصه ويلقوه على وجه أبيه ليسترد بصره، كما طلب منهم أن يجلبوا معهم إلى مصر جميع أهلهم. وحين أُلقي القميص على وجه يعقوب ارتد له بصره. وهنا طلب أبناء يعقوب من أبيهم أن يستغفر لهم الله.

بعد وصول جميع أهل يوسف إلى مصر، يذكر القرآن موقفا يسجد فيه يعقوب وزوجته وأبناءه احتراما ليوسف الذي كان يحتل مكانة رفيعة في السلطة. حينئذ قال يوسف لأبيه بأنَّ ذلك هو تفسير رؤياه التي شاهدها عندما كان صغيرا. أما آخر آية من قصة يوسف فنرى فيها يوسف في دعاء شكر رائع لله على فضله عليه وعلى أهله.

وبعد انتهاء قصة يوسف تُختَم سورة يوسف بعشر آيات عامّة.

1 ـ 3 مشاكل تفسير القرآن العظيم

أولى الباحثون المسلمون على مر التاريخ اهتماما استثنائيا بتفسير القرآن، كتاب الله العزيز. وكانت حصيلة هذه الجهود عدد هائل من كتب التفسير التي ركّز بعضها على تفسير آيات أو سور معينة فيما تناول بعضها الآخر تفسير كتاب الله بالكامل. وبينما يتّفق المفسِّرون على نص القرآن العظيم، حالهم في ذلك حال كل مسلم مؤمن بكتاب الله، فإنهم يختلفون كثيرا في تفسيرهم له. فهنالك أحيانا تفاسير مختلفة لنص قرآني واحد يمكن القول بأنَّ ذلك النص يحتملها كلّها، إلا أن هنالك أيضا في الكثير من الأحيان تفاسير تناقض بعضها البعض وبالتالي فلا يمكن أن تكون جميعها صحيحة. لا شك أن المفسِّر بذل في كثير من الأحيان جهده في الوصول إلى ما يعتقد بأنّه التفسير الصحيح للنص الإلهي، مستخدما ما كان في

متناوله من مصادر ومناهج البحث والتدقيق. ولكن بينما القرآن العظيم هو نص إلهي كله حق في حق، فإن أي تفسير لهذا النص المبارك هو نتاج بشري يمكن أن يخطئ مثلما يمكن أن يصيب.

إلا أن أخطاء المفسِّرين تتباين في طبيعتها ونتائجها. فهنالك ما يمكن أن يسمى بالأخطاء «الفردية» أو «المعزولة» التي تقتصر نتائجها على الفشل في فهم آية أو آيات معيّنة، ربما بسبب سوء فهم كلمة ما أو تركيب لغوي معيّن في تلك الآية أو الآيات. أما أسوأ الأخطاء فهي التي يمكن وصفها بأنّها «منهجية»، أي التي تمثّل أخطاءً في المنهج المستعمل في التفسير بشكل عام. وتأثير هذه الأخطاء المنهجية لا يقتصر على تفسير آيات أو سور معينة وإنما يشمل تفسير النص القرآني بشكل عام. ولندرس أفدح هذه الأخطاء المنهجية التي توارثها الكثير من المفسِّرين عن بعض والتي يمكن بالتالي العثور عليها ورؤية آثارها في الكثير من كتب التفسير.

إن أول هذه العيوب المنهجية الخطيرة هو عدم اتّباع منهج «القرآن يفسّر بعضه بعضا» في التفسير. إن القرآن العظيم هو كيان واحد، ولذلك فإن من غير الممكن تجزئته إلى أجزاء منفصلة ومحاولة دراسة هذه الأجزاء من الآيات أو السور بمعزل عن غيرها من الآيات والسور الكريمة. وهنالك الكثير من الأمثلة التي تدلّل على أن فهم معنى آية معينة يستوجب ربطها بآية كريمة أخرى في سورة أخرى. إن إهمال حقيقة ترابط أجزاء النص القرآني ببعضها يؤدي في أحسن الأحوال إلى عدم القدرة على تفسير الآيات المعنيّة، وفي أسوأ الأحوال إلى أخطاء في تفسيرها. وقد أحسن الطباطبائي حين استشهد في مقدّمة تفسيره بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: 89) ثم قال: «وحاشا أن يكون القرآن تبيانا لكل شيء ولا يكون تبيانا لنفسه». ثم استشهد بالآيتين الكريمتين التاليتين اللتين تصفا القرآن العظيم: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: 185) و﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (النساء: 174)، ليعلّق قائلا: «وكيف يكون القرآن هدى وبينة وفرقانا ونورا مبينا للناس في جميع ما يحتاجون ولا يكفيهم في احتياجهم إليه وهو أشد الاحتياج؟».

إن منهج «القرآن يفسّر بعضه بعضا» لا يعني عدم الاستفادة من مصادر علم من خارج القرآن العظيم لدراسة وفهم بعض ما ورد في كتاب الله العزيز. إلا أن المقصود هو أن هنالك الكثير جدا مما لا يمكن فهمه بشكل سليم على الإطلاق من غير الرجوع إلى القرآن نفسه. وعلى سبيل المثال، عند دراسة معنى كلمة معيّنة في آية ما فإن من المفيد بالتأكيد الاطّلاع على ما تقوله مصادر لغوية خارجية، إلا أن مما لا غنى عنه هو دراسة معاني اشتقاقات هذه الكلمة حيث جاءت في القرآن العزيز والسياقات التي وردت فيها.

إن إهمال المفسّرين لحقيقة تفسير القرآن لنفسه أدى بهم في كثير من الأحيان إلى الاعتماد بشكل كلّي على مصادر من خارج القرآن لتفسيره، حيث انتهى الأمر بكثير منهم إلى الاعتماد على روايات ذات أصول شتّى يفتقر معظمها إلى دليل على صحّتها، كما سنرى في التفاسير المقترَحة لبعض الآيات الكريمة من سورة يوسف. والمشكلة هنا هي أنه غالبا ما نجد مفسِّراً ما يسلم بصحة روايات وصلت إليه لمجرّد كونها قد وردت عن طريق مؤرّخين أو مفسّرين معينين، ناسيا بأنَّ أولئك المؤرخين والمفسّرين يمكن أن يكونوا هم أيضا قد أخطأوا في نقلهم لروايات غير صحيحة، أو أن نسبة تلك الروايات إلى أولئك الأشخاص هي غير صحيحة أساسا، وهو أمر غالبا ما يكون البت فيه مستحيلا. إن من الغريب أن نجد الكثير من المفسِّرين لا يميّزون بين الروايات التي يمكن ربطها بنص ما في القرآن العظيم، وبالتالي فإن هنالك مبرّر ما للأخذ بنظر الاعتبار احتمال كونها صحيحة، والروايات التي تبدو بلا صلة على الإطلاق بالنص القرآني.

ومما يفاقم حجم المشكلة هو فشل الكثير من المفسِّرين والمؤرّخين في التعامل مع الروايات المنقولة بعقلانية ومنطق وإعراضهم عن محاولة تمحيص دقة تلك الروايات. فكتب التفسير حافلة بالمئات، بل الآلاف من الروايات التي تخالف كل منطق، بل وتخالف بعضها القرآن نفسه كما سنرى لاحقا. ولإعطاء مثال على تفاهة بعض تلك الروايات، التي ليس لها أي أساس في كتاب الله، لنقرأ ما ينسب القرطبي (1272/671) إلى ابن عباس في تفسيره للآية 80 من سورة يوسف:

﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، علما بأنَّ ما أورده القرطبي يوجد بصيغ شبيهة قليلا أو كثيرا، مطوّلة أو مختصرة، في الكثير من كتب التفسير، كتفاسير العيّاشي (القرن الثالث) والطبري (922/310) والقمّي (940/329) والسيوطي (911/ 1505) والحويزي (1700/1112):

وَكَانَ يَهُوذَا [أحد إخوة يوسف] إِذَا غَضِبَ وَأَخَذَ السَّيْف فَلَا يَرُدّ وَجْهه مِائَة أَلْف؛ يَقُوم شَعْره فِي صَدْره مِثْل الْمَسَالّ [الأبر الكبيرة] فَتَنْفُذ مِنْ ثِيَابه. وَجَاءَ فِي الْخَبَر أَنَّ يَهُوذَا قَالَ لِإِخْوَتِهِ - وَكَانَ أَشَدّهمْ غَضَبًا: «إِمَّا أَنْ تَكْفُونِي الْمَلِك [يقصد يوسف الذي أبقى أخاه بنيامين عنده] وَمَنْ مَعَهُ أَكْفِكُمْ أَهْل مِصْر، وَإِمَّا أَنْ تَكْفُونِي أَهْل مِصْر أَكْفِكُمْ الْمَلِك وَمَنْ مَعَهُ». قَالُوا: «بَلْ اِكْفِنَا الْمَلِك وَمَنْ مَعَهُ نَكْفِك أَهْل مِصْر». فَبَعَثَ وَاحِدًا مِنْ إِخْوَته فَعَدُّوا أَسْوَاق مِصْر فَوَجَدُوا فِيهَا تِسْعَة أَسْوَاق، فَأَخَذَ كُلّ وَاحِد مِنْهُمْ سُوقًا.

ثُمَّ إِنَّ يَهُوذَا دَخَلَ عَلَى يُوسُف وَقَالَ: «أَيُّهَا الْمَلِك! لَئِنْ لَمْ تُخَلِّ مَعَنَا أَخَانَا لَأَصِيحَنَّ صَيْحَة لَا تُبْقِي فِي مَدِينَتك حَامِلًا إِلَّا أَسْقَطَتْ مَا فِي بَطْنهَا». وَكَانَ ذَلِكَ خَاصَّة فِيهِمْ عِنْد الْغَضَب، فَأَغْضَبَهُ يُوسُف وَأَسْمَعَهُ كَلِمَة، فَغَضِبَ يَهُوذَا وَاشْتَدَّ غَضَبه، وَانْتَفَجَتْ شَعَرَاته. وَكَذَا كَانَ كُلّ وَاحِد مِنْ بَنِي يَعْقُوب؛ كَانَ إِذَا غَضِبَ، اِقْشَعَرَّ جِلْده، وَانْتَفَخَ جَسَده، وَظَهَرَتْ شَعَرَات ظَهْره مِنْ تَحْت الثَّوْب حَتَّى تَقْطُر مِنْ كُلّ شَعْرَة قَطْرَة دَم؛ وَإِذَا ضَرَبَ الْأَرْض بِرِجْلِهِ تَزَلْزَلَتْ وَتَهَدَّمَ الْبُنْيَان، وَإِنْ صَاحَ صَيْحَة لَمْ تَسْمَعهُ حَامِل مِنَ النِّسَاء وَالْبَهَائِم وَالطَّيْر إِلَّا وَضَعَتْ مَا فِي بَطْنهَا تَمَامًا أَوْ غَيْر تَمَام، فَلَا يَهْدَأ غَضَبه إِلَّا أَنْ يَسْفِك دَمًا أَوْ تَمْسِكهُ يَد مِنْ نَسْل يَعْقُوب.

فَلَمَّا عَلِمَ يُوسُف أَنَّ غَضَب أَخِيهِ يَهُوذَا قَدْ تَمَّ وَكَمُلَ كَلَّمَ وَلَدًا لَهُ [اي ابناً ليوسف] صَغِيرًا بِالْقِبْطِيَّةِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَضَع يَده بَيْن كَتِفَيْ يَهُوذَا مِنْ حَيْثُ لَا يَرَاهُ. فَفَعَلَ فَسَكَنَ غَضَبه وَأَلْقَى السَّيْف، فَالْتَفَتَ يَمِينًا وَشِمَالًا لَعَلَّهُ يَرَى أَحَدًا مِنْ إِخْوَته فَلَمْ يَرَهُ، فَخَرَجَ مُسْرِعًا إِلَى إِخْوَته وَقَالَ: «هَلْ حَضَرَنِي مِنْكُمْ أَحَد»؟ قَالُوا: «لَا»! قَالَ:

«فَأَيْنَ ذَهَبَ شَمْعُون [أَخٌ آخر ليوسف]»؟ قَالُوا: «ذَهَبَ إِلَى الْجَبَل». فَخَرَجَ فَلَقِيَهُ وَقَدْ اِحْتَمَلَ صَخْرَة عَظِيمَة. قَالَ: «مَا تَصْنَع بِهَذِهِ»؟ قَالَ: «أَذْهَب إِلَى السُّوق الَّذِي وَقَعَ فِي نَصِيبِي أَشْدَخ بِهَا رُؤُوس كُلّ مَنْ فِيهِ». قَالَ: «فَارْجِعْ فَرُدَّهَا أَوْ أَلْقِهَا فِي الْبَحْر وَلَا تُحْدِثَنَّ حَدَثًا، فَوَالَّذِي اِتَّخَذَ إِبْرَاهِيم خَلِيلًا لَقَدْ مَسَّنِي كَفّ مِنْ نَسْل يَعْقُوب». ثُمَّ دَخَلُوا عَلَى يُوسُف، وَكَانَ يُوسُف أَشَدّهمْ بَطْشًا، فَقَالَ: «يَا مَعْشَر الْعِبْرَانِيِّينَ! أَتَظُنُّونَ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَد أَشَدّ مِنْكُمْ قُوَّة»؟ ثُمَّ عَمَدَ إِلَى حَجَر عَظِيم مِنْ حِجَارَة الطَّاحُونَة فَرَكَلَهُ بِرِجْلِهِ فَدَحَا [فدفع] بِهِ مِنْ خَلْف الْجِدَار، ثُمَّ أَمْسَكَ يَهُوذَا بِإِحْدَى يَدَيْهِ فَصَرَعَهُ لِجَنْبِهِ.

إن تفاصيل هذه الرواية تكاد تنطق بحكمها على نفسها وتغني عن كل تعليق!

ولعلّ من أسوأ مظاهر هذا الخطأ المنهجي في استخدام روايات غير موثّقة في التفسير هو استعمال معلومات من كتابي «العهد القديم» Old Testament و«العهد الجديد» NewTestament في تفسير القرآن العظيم. وهذا الخطأ هو بدوره نتيجة لخطأ لا يقل أهمية يتمثّل في مساواة معظم المفسّرين لكتاب العهد القديم بالتوراة وكتاب العهد الجديد بالإنجيل. إن وصف الله في القرآن للتوارة التي أنزلها على موسى والإنجيل الذي أنزله على عيسى يبيّن بوضوح بأنَّ هذين الكتابين الإلهيين يختلفان كل الاختلاف عن العهدين القديم والجديد اللذين كتبتهما أيادي بشرية لأغراض خاصة. فالكم الهائل من المعلومات الخاطئة وغير الدقيقة في العهدين القديم والجديد يحتّم معاملة محتويات هذين الكتابين مما لا سبيل إلى التحقّق من صحّتها بكثير من الشك والحذر، بل ربما من المبرَّر أيضا الظن بأنَّ مثل هذه المعلومات هي أقرب إلى الخطأ منها إلى الصحة. أي من غير الممكن التسليم بصحّة أية معلومة في العهدين القديم والجديد إلا إذا توفّر دليل واضح على ذلك من خارج هذين الكتابين. إن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي يمكن التسليم بصحة كل ما ورد فيه، وهذه حقيقة يؤكّدها صدق ودقة نص هذا الكتاب الفريد.

وكمثال على ثقة المفسّرين، التي تكاد تكون غير مشروطة وحتما غير مُبرَّرة، بروايات العهد القديم هو إشارة معظم كتب التفسير التي استشرناها، وعلى وجه

التحديد الطبري والقمّي والطوسي (1067/460) والقرطبي وابن كثير (774/ 1372) والسيوطي والجلالين والحويزي (1700/1112)، في تعليقها على الآية الكريمة 18، إلى أن إخوة يوسف لطّخوا قميصه بدم معزة. إن هذا التحديد لنوع الحيوان منقول من رواية العهد القديم (التكوين 37: 31)، أما القرآن العظيم فليس فيه أي دليل على صحة هذا الادّعاء، لذلك فإن إضافته إلى تفسير نص القرآن ليس له ما يبرّره ويمكن أن يضلّل القارئ.

بل إن غفلة بعض المفسرّين جعلتهم يستخدمون روايات من العهد القديم لتفسير النص القرآني دون ملاحظة أن ما يستشهدون به لتفسير القرآن إنما يناقض أساسا كتاب الله! وكمثال على ذلك إشارة العديد من المفسِّرين، كالقرطبي وابن كثير والطوسي والطبري (في تفسيرهم للآية 100)، والزمخشري (1144/538) والجلالين (في تفسيرهم للآية 15)، والسيوطي (في تفسيره للآية 42)، إلى رأي البعض بأنَّ يوسف كان له من العمر سبعة عشر عاما حين ألقاه إخوته في الجب. لكن الحقيقة هي أن هذا الرقم المنقول من العهد القديم (التكوين 37: 2) يناقض بشكل لا يقبل الشك القرآن العظيم الذي يشير إلى أن يوسف كان «غلاما» صغيرا يوم ألقاه إخوته في البئر، كما تشير ضمنيّا الآيتان 12-13 وصراحة الآية 19!

لكن للأسف تبدو الكثير من كتب التفسير كمحاولات للتوفيق بين الرواية القرآنية وما ورد في كتاب العهد القديم أكثر منها محاولات لتفسير القرآن العظيم.

وإذا لم يكن هذا كافياً فقد حفلت الكثير من كتب التفسير بروايات لا أساس لها من الصحة تنتقص من مكانة أنبياء الله قام مؤلفو تلك الكتب بنقلها، على ما يبدو، من غير تفكير كافٍ في دلالاتها. والغريب هنا أن نجد ناقلي هذه القصص أنفسهم وهم يدافعون عن «عصمة» الأنبياء في مواضع أخرى من كتبهم وكأنهم ليسوا من استشهد بتلك الروايات المدسوسة! ومن أمثلة هذه الروايات التي أوردها المفسِّرون في تفاسيرهم لقصة يوسف هو الادّعاء بأنَّ سبب ابتلاء يعقوب بيوسف هو أنه ذبح يوما كبشا سمينا إلا أنّه رفض إطعام رجل محتاج جائع، أي أن ما حدث كان عقابا ليعقوب! وقد ذكر هذا الإدّعاء العيّاشي والحويزي في بداية تفسيريهما للسورة، كما

ذكره الحويزي في تفسيره للآيتين 24 و86. كما ورد في بعض التفاسير القول بأنَّ سبب دخول يوسف إلى السجن هو أنه أراد مواقعة امرأة العزيز بينما الحقيقة الواضحة في القرآن الكريم هي أنه اختار السجن طوعا على ارتكاب الحرام مع تلك المرأة!

كما شاع عند بعض المفسّرين، كالعيّاشي والحويزي والطبري والقمّي والقرطبي الذي نسب ذلك إلى ابن عبّاس، تفسير خاطئ للآية الكريمة: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾. وفقاً لهذا التفسير فإن يوسف اشتكى لغير الله مصابه فعاقبه الله على ذلك بأن جعله يبقى في السجن بضع سنين! ويذكر الحويزي في هذا المعنى الحديثين المختَلَقين التاليين اللذين لا يمكن أن يكونا قد صدرا عن الرسول: «عجبت من أخي يوسف كيف استغاث بالمخلوق دون الخالق»، و«لولا كلمته ما لبث في السجن طول ما لبث». كما يورد الطبري في تفسيره هذين الحديثين بعدد من الصيغ المختلفة. كما ذكر ابن كثير أيضا الحديث الثاني ولكنّه ضَعَّفه جدا.

ويذكر بعض المفسّرين، كالقرطبي والحويزي، حديثا آخر لا يمكن أن يكون صحيحا فيه انتقاد لطلب يوسف من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، وهو طلب عالم عارف ببواطن الأمور كما سنرى لاحقا، ونص هذا الحديث هو: «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ لولّاه من ساعته، ولكنه أخّر ذلك سنة». وهنالك أيضا اتّهام ليعقوب بأنّه اشتكى حزنه على يوسف لغير الله فأرسل الله جبريل إليه مؤنّبا له، كما أورد العيّاشي والحويزي والطبري في تفسيرهم للآية الكريمة 86. كما جاء في تفسير العيّاشي للآيتين الكريمتين 87 و95 اتّهام يعقوب بأنّه كتب إلى عزيز مصر يشتكي فيها مصائبه التي حلّت به فأنّبه الله على ارتكاب هذا الذنب! إن قصّة يوسف في القرآن مليئة بصريح الإشارات وخفيها إلى صبر يعقوب وتمسّكه بعدم الشكوى إلى غير الله، إلا أنَّ ذلك لم يمنع المفسّرين من الإشارة إلى القصة المختَلَقة حول كتابته إلى عزيز مصر. وأورد القرطبي في تفسيره للآية 84 رواية مفادها أنّ فقدان يعقوب ليوسف لسنين طويلة وفقدانه لبصره كان

عقابا من الله له لأنه بينما كان يصلّي يوما حين كان يوسف لايزال طفلا صغيرا التفت أثناء صلاته إلى يوسف الذي كان نائما! وأخيرا، وليس آخرا، أورد الحويزي في تفسيره للآية 99 اتّهاما ليوسف بأنّه لم يترجّل عن دابّته حين خرج لاستقبال أبيه حين جاء إلى مصر فأخرج الله النبوة من نسله!

من الجدير ملاحظته هنا هو أن مثل هذه القصص التي تنتقص من مكانة أنبياء الله والتي لا أساس لها في كتاب الله تقترب في فحواها من القصص التي يحفل بها كتاب العهد القديم التي تتّهم الأنبياء بارتكاب مختلف أنواع السيئات والمحرَّمات. وعلى سبيل المثال لا الحصر، لفّق كُتّاب العهد القديم قصة ارتكاب النبي داود الزنى مع زوجة أحد قادة جيشه، واسمه يوريا، بينما كان هذا في الحرب، ومن ثم إرساله له إلى مقدمّة جبهة القتال لكي يُقتَل حيث استولى داود بعد ذلك على زوجته بشكل نهائي (صموئيل الثاني، 11)! والغريب أن كُتّاب العهد القديم كانوا يعلمون تمام العلم بأنَّ في هذا السلوك إثم كبير بدليل ادّعائهم بأنَّ الرب غضب من داود بسبب فعلته، إلا أنهم لم يتوانوا مع ذلك عن نسبته إلى داود وتحميل الخبر الكثير من التفاصيل!

إن قارئ العهد القديم لا يمكن إلا أن يلاحظ خلو ذلك الكتاب من مفهوم يؤكّده القرآن العظيم في مختلف آياته وسوره، ألا وهو «حصانة الأنبياء». إن معظم الروايات عن ذنوب الأنبياء التي يمكن العثور عليها في كتب التفسير والتأريخ الإسلامي تنتمي إلى نفس صنف قصص العهد القديم التي تدل على جهل تام بمعنى أن يجتبي الله إنسانا ويجعله نبيّا.

لذلك فإننا نرى بأنَّ هذه الروايات التي تحمل ملامح قصص العهد القديم جديرة كل الجدارة بأن تُصنَّف مع الأحاديث والروايات التي تُعرَف بـ «الإسرائيليات» إشارة إلى أصلها. إن كتاب الله يخلو من أي دليل على صحّة مثل تلك الراويات، بل وفيه من الكلام عن مكانة الأنبياء ما يحتّم إسقاط مثل هذه التهم الباطلة عنهم.

لقد أراد المتلاعبون بالتراث الإسلامي من بني إسرائيل وغيرهم، من بعد أن

لاحظوا الفرق الشاسع بين القرآن العظيم والعهد القديم، أن يردموا الفجوة الهائلة بين المفاهيم القرآنية النقية والجميلة ومفاهيم العهد القديم الفاسدة وذلك عن طريق تحريف المفاهيم الإسلامية وتقريبها من مفاهيم العهد القديم. ولكن لما كان الله قد تولّى حفظ القرآن العظيم فجعله منيعا على التغيير والتحريف، اضطرّ أولئك المتلاعبون إلى أن يجدوا مواضعا أخرى لدسّ سمومهم. وحتى الحديث لم يسلم من هذا الدس، إذ صنّف علماء الحديث منذ القِدَم عددا من روايات الحديث تحت صنف «الإسرائيليّات».

إلا أن أسوأ ما شاهدنا من أخطاء المفسِّرين الذين درسنا تفاسيرهم لسورة يوسف هو قول للحويزي في بداية تفسيره للسورة ينسبه ظلما إلى سيدنا علي بن ابي طالب نصّه «لا تعلّموا نساءكم سورة يوسف ولا تقرئوهن إياها، فإن فيها الفتن، وعلِّموهن سورة النور فإن فيها المواعظ»، وقول آخر ينسبه ظلما هذه المرة إلى الإمام محمد الباقر ينص على أنه «يُكرَه لهُنَّ [للنساء] تعلّم سورة يوسف»! إن مثل هذه الأقوال تخالف صراحة وبلا أي شك وصف الله لكتابه العزيز. لقد جعل الله تلاوة ودراسة القرآن العظيم – أي كل الكتاب من دون استثناء أي جزء منه – واجبا على كل مسلم ومسلمة. ومن الطبيعي أن هنالك عدد كبير من الأحاديث النبوية الشريفة التي تدعو المسلم إلى تعلّم القرآن العظيم وتعليمه، كقوله: «خيركم من تعلَّمَ القُرآن أو عَلَّمه»[1].

إن كتاب الله هو كيان واحد لا تمكن ولا تجوز تجزئته بالشكل الذي يفعله الحويزي. وتعليقا على ما يقول الحويزي عن سورة يوسف، يكفي أن نتذكّر بأنَّ هذه السورة بالذات هي التي اختار أن ينزل فيها الله وصفه الرائع للقصص القرآنية في قوله الكريم: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾. بل إن هنالك العديد من الأحاديث الشريفة التي تمتدح هذه السورة المباركة، كقوله: «علّموا أرقّاءكم سورة يوسف فإنه أيما مسلم

(1) الطبري، ج 3، ح 4837، ص 180.

تلاها أو علّمها أهله أو ما ملكت يمينه هوّن الله عليه سكرات الموت وأعطاه من القوة أن لا يحسد مسلما».

كما ورد في كتب التفسير، كما في تفسيرَي العيّاشي والحويزي للآية 42 وتفاسير الطبري والقرطبي وابن كثير والسيوطي للآية 50 من سورة يوسف الحديث التالي بصيغ مختلفة: «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سُئِل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أَشترط أن يخرجوني. ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ولكنه أراد أن يكون له العذر». إلا أنني لا اعتقد بأنَّ سيد الصبر والكرم النبي محمد قال هذا، وهو موقف الطباطبائي (1981/1401) أيضا الذي أنكر صحة هذه الأحاديث. من الجدير بالملاحظة تناقض هذا الحديث مع الأحاديث الموضوعة التي أشرنا إليها والتي تنتقد يوسف على عدم صبره!

وبعد أن اطّلعنا في هذا الفصل بشكل سريع على خصوصية القصص القرآنية أسلوبا ومحتوى، وقدمنا عرضا مختصرا لقصة يوسف، وتطرّقنا إلى بعض المشاكل المنهجية الشائعة في تفسير القرآن العظيم، نحن الآن جاهزون لنباشر رحلتنا الروحية الممتعة لدراسة وتفسير سورة يوسف.

2

بداية سورة يوسف

نستهل في هذا الفصل دراستنا لسورة يوسف لنبحث آياتها الثلاث الأولى فقط، حيث إنها آيات عامة وليست جزءاً من قصة يوسف.

أما قصة يوسف فتبدأ بالآية الرابعة من السورة، وسنبدأ بدراستها في الفصل القادم.

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1)﴾.

سورة يوسف التي تبتدئ بالحروف ﴿الر﴾ هي واحدة من تسع وعشرين سورة تبتدئ بحروف مُقطَّعة، علما بأنَّ الحروف المقطَّعة لا تقع إلا في بدايات السور[1].

---

(1) هذه هي الحروف المُقطَّعة والسور التي تحتويها:

عدد الحروف المقطَّعة	الحروف المقطَّعة	اسم السورة
1	ص	ص
1	ق	ق
1	ن	ن
2	طه	طه
2	يس	يس
2	طس	النمل
2	حم	غافر، فُصِلَت، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف

جدول 2-1: عدد السور لكل عدد من الحروف المُقطّعة

عدد السور	عدد الحروف المُقطّعة في السورة
3	1
9	2
13	3
2	4
2	5

هنالك أربع عشرة مجموعة مختلفة من الحروف المقطّعة تتكوّن من ثمانية وثلاثين حرفا. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار التسع وعشرين مرة التي تتكرّر فيها هذه المجاميع في سور القرآن الكريم يكون عدد الحروف الكلي فيها هو ثمانية وسبعين حرفا. تحتوي المجاميع الأربع عشرة المختلفة على أربعة عشر حرفا مختلفا يشكّلون نصف حروف اللغة العربية الثمانية وعشرين هي: الألف والهاء والحاء والطاء والياء والكاف واللام والميم والنون والسين والعين والصاد والقاف والراء.

ولقد بقيت هذه الحروف من ألغاز القرآن العظيم التي حيّرت المفسّرين. ويكفي

=

3	ألم	البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة
3	الر	يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحِجر
3	طسم	الشعراء، القصص
4	المص	الأعراف
4	المر	الرعد
5	حم عسق	الشورى
5	كهيعص	مريم

دليلا على ذلك إشارة الطباطبائي في بداية تفسيره لسورة الشورى إلى أن الطبرسي (1153/548) ذكر في كتابه «مجمع البيان» أحد عشر تفسيرا مختلفا تم اقتراحها لتفسير هذه الحروف، منها أن هذه الحروف هي «أسماء لله تعالى مقطعة لو أحسن الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم»، وأنها «أقسام أقسم الله بها فكأنه هو أقسم بهذه الحروف على أن القرآن كلامه وهي شريفة لكونها مباني كتبه المنزلة، وأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وأصول لغات الأمم على اختلافها»، وأنها «إشارات إلى آلائه تعالى وبلائه ومدة الأقوام وأعمارهم وآجالهم» وأن «المراد بها الإشارة إلى بقاء هذه الأمة على ما يدل عليه حساب الجمل»[1]، وغير ذلك من التفاسير. وللطباطبائي هنا ملاحظة يجدر ذكرها:

ثم إنك إن تدبرت بعض التدبر في هذه السور التي تشترك في الحروف المفتتح بها مثل الميمات والراءات والطواسين والحواميم، وجدت في السور المشتركة في الحروف من تشابه المضامين وتناسب السياقات ما ليس بينها وبين غيرها من السور. ويؤكد ذلك ما في مُفتَتَح أغلبها من تقارب الألفاظ كما في مُفتَتَح الحواميم من قوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ أو ما هو في معناه، وما في مُفتَتَح الراءات من قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أو ما هو في معناه، ونظير ذلك واقع في مفتتح الطواسين، وما في مفتتح الميمات من نفي الريب عن الكتاب أو ما هو في معناه.

ويمكن أن يُحدَس من ذلك أن بين هذا الحروف المقطَّعة وبين مضامين السور المُفتَتحة بها ارتباطا خاصا. ويؤيد ذلك ما نجد أن سورة الأعراف المصَدَّرة بـ ﴿المص﴾ في مضمونها كأنها جامعة بين مضامين الميمات وص، وكذا سورة الرعد المصَدَّرة بـ ﴿المر﴾ في مضمونها كأنها جامعة بين مضامين الميمات والراءات.

(1) حساب الجمل هو التعويض عن كل حرف بعدد معيّن ومن ثم حساب مجموع الأعداد التي تكوّن الكلمة أو الجملة المعيّنة.

ويستفاد من ذلك أن هذه الحروف رموز بين الله سبحانه وبين رسوله خفيت عنا لا سبيل لأفهامنا العادية إليها إلا بمقدار أن نستشعر أن بينها وبين المضامين المودَعة في السور ارتباطا خاصا. ولعل المتدبر لو تدبر في مشتركات هذه الحروف وقايس مضامين السور التي وقعت فيها بعضها إلى بعض تبين له الأمر أزيد من ذلك.

وتجدر الإشارة هنا إلى وجود عدد من البحوث التي تبيّن بأنَّ الحروف المقطّعة ترتبط بشكل إعجازي بالعدد 19. ويمكن أن نضيف إلى ما ورد في تلك الدراسات ملاحظة أن بعض مجاميع الحروف المقطّعة تأتي متبوعة بمجموعة من الكلمات التي مجموع حروفها تسعة عشر. ففي الآية الكريمة أعلاه، على سبيل المثال، تتكوّن عبارة ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ من تسعة عشر حرفا. لكن مثل هذه الملاحظات وإن كانت تبيّن إعجازا في التركيب اللغوي للقرآن فإن من الصعوبة استخدامها لدراسة معني هذه الحروف المقَطَّعة.

قد يتساءل البعض عن الوصف الشائع لهذه الحروف بأنّها «مُقَطَّعة» رغم أن من الشائع أيضا معاملة بعض هذه المجاميع من الحروف ككلمات، مثل ﴿طه﴾ و﴿يس﴾ المتَّفَق على أنهما اسمان من أسماء النبي مُحمَّد ﷺ. وجوابا على ذلك، لنلاحظ الفرق بين هاتين المجموعتين من الحروف المقَطَّعة واسمين للرسول وردا في القرآن العظيم هما ﴿مُحَمَّدٌ﴾ و﴿أَحْمَدُ﴾. إن لهذين الاسمين جذر لغوي معروف هو «حمد»، حيث يعني الاسم الأول «الأكثر محمودا» والاسم الثاني «الأكثر حمدا». أما ﴿طه﴾ و﴿يس﴾ فلا يمكن إرجاع أي منهما إلى جذر لغوي عربي وفهم معناه على هذا الأساس. فعند تحليل ﴿طه﴾ و﴿يس﴾ لغويا فإن كل الذي نستطيع قوله هو أن كلمة ﴿طه﴾ هي عبارة عن اجتماع للحرفين (ط) و(هـ) وأن ﴿يس﴾ هي عبارة عن اجتماع الحرفين (ي) و(س).

ويفسّر ابن كثير قوله الكريم ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ قائلا: «أي هذه آيات الكتاب وهو القرآن المبين أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسّرها ويبيّنها»، فيما يشير القرطبي إلى أن البعض يرى بأنَّ هذه الآية الكريمة

تعني «هذه [هي] تلك الآيات التي كنتم توعدون بها في التوراة».

إن مشكلة تفسير ابن كثير هي إهماله لحقيقة احتواء الآية الكريمة على اسم الإشارة إلى البعيد ﴿تِلْكَ﴾ ومعاملته للآية الكريمة وكأنها تحتوي على اسم الإشارة إلى القريب «هذه». أما التفسير الذي يذكره القرطبي فإنه يأخذ بنظر الاعتبار احتواء الآية الكريمة على اسم الإشارة إلى البعيد ليقترح بأنَّ الله أشار إلى ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ بكلمة ﴿تِلْكَ﴾ لورود الإشارة إليها في التوارة، إلا أنه لا يسترسل فيحدّد الآيات الكريمة المقصودة.

في الحقيقة إن لكلمة ﴿تِلْكَ﴾ في القرآن العظيم استعمال خاص يميّزها عن غيرها من الكلمات، بما في ذلك اسم الإشارة الآخر «هذه»، لأنها تُستَخدَم للإشارة إلى ما مرَّ ذكره أو ما هو بعيد زمانا أو مكانا. فمثلاً، يذكر الله بعض أخبار أنبياءه إبراهيم وأبنائه وأحفاده ثم يقول لبني إسرائيل: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: 134). كما أنه يشير إلى قرى ظالمة دمَّرها قبل أن يقول: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ (الأعراف: 101). أما الآية التالية فتشير إلى ﴿الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ التي سبق ذكرها في الكثير من المواضع من كتابه العزيز: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: 83). ونورد مثالا أخيرا الآية الكريمة التالية التي تذكر أولا اعتقاد أهل الكتاب بأنَّه لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا أو نصرانيا ثم تستخدم كلمة ﴿تِلْكَ﴾ للإشارة إلى ذلك الاعتقاد: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: 111).

وردت كلمة ﴿تِلْكَ﴾ في القرآن العظيم في الغالبية العظمى من المرّات في سياقات مثل المذكورة أعلاه. وجاءت كلمة ﴿تِلْكَ﴾ في ثلاث من تلك الآيات في بداية عبارة ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ الشبيهة بالآية الكريمة مدار البحث: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، ولذلك فإن دراسة هذه الآيات بالذات لها أهمّيّة خاصة في بحثنا

هنا. وفيما يلي الآيات الثلاث التي ترد فيها عبارة ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ ونورد أيضا في كل حالة الآيتين اللتين تسبقان الآية التي تظهر فيها هذه العبارة:

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (البقرة: 250 - 252).

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: 106 - 108).

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (الجاثية: 4- 6).

من الواضح أن ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾ المشار إليها باسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ هي تلك التي ورد ذكرها قبل عبارة ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾. ومن أوضح الأدلّة على هذا هو أنه في كل من المرات الثلاث التي وردت فيها عبارة ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ هنالك علاقة بين ما يلي تلك العبارة والآيات التي تسبقها. ففي آيات سورة البقرة، بعدما قصّ الله خبر نبيّه داود فإنّه أتْبَعَ عبارة ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وذلك للتأكيد على أن الرسول ما كان سيعرف هذه الأخبار لو لم يكن رسولا يتلقّى الوحي. وهذا يماثل تماما قوله ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ في الآيات التالية التي تصف هي الأخرى أحداثاً تاريخية ما كان سيعرفها مُحَمَّد لو لم يكن يتلقّى علما من الله:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ

وَمَا كُنتَ مِن الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمْ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القَصَص: 43 – 46). سنتطرق إلى موضوع العلاقة بين علم الرسول ورسالته بشكل أكبر في تفسيرنا للآية 3 من سورة يوسف في هذا الفصل وفي تفسيرنا للآية الكريمة 102 في الفصل العاشر.

وأما إتْباعه لعبارة ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ في الآية الكريمة 108 من سورة الأعراف بقوله الكريم ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعالَمِينَ﴾ فمن الواضح أنه لتأكيد ما في الآيتين 106 و107 السابقتين من أن دخول فريق إلى النار وفريق إلى الجنة لا يعكس ظلما ولكن عدلا إلهيّا. وأخيرا، فإن قوله ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ في الآية 6 من سورة الجاثية هو تأكيد على قوة المنطق في ما ذكره في الآيتين 4 و5 حول خلق الله.

إن كل ما تقدّم يبيّن بجلاء بأنَّ عبارة ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ تشير إلى آيات ذُكِرت مباشرة قبل تلك العبارة. إلا أن الملاحَظ في الآية الأولى من سورة يوسف هو ورود كلمة ﴿تِلْكَ﴾ سابقة لكلمة ﴿آيَاتُ﴾ ولكن من غير أن يسبقها أي كلام سوى الحروف المقَطَّعة: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾. لذلك فإننا نرى بأنَّ الاستنتاج الذي يجب أن نخلُص إليه هنا هو أن الحروف المقطَّعة ﴿الر﴾ في تلك الآية يجب أن تكون هي ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ التي تشير إليها كلمة ﴿تِلْكَ﴾.

ومن الممكن أن يعترض البعض بأنَّ ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ التي يشير إليها الله بكلمة ﴿تِلْكَ﴾ ليست الحروف المقطَّعة ﴿الر﴾ وإنما آيات كتابه العزيز التي سبق نزولها نزول آية سورة يوسف، أي كأن هذه الآية تؤكّد إلهية الآيات التي سبق وأن أنزلها الله في القرآن. إلا أن هنالك ملاحظتين مهمتين جدا هنا تبيّنان عدم صحة هذا التفسير البديل.

أولا، إن كلمة ﴿تِلْكَ﴾ مُستَخدَمة في كل تلك الآيات، كما في الأمثلة التي ذكرناها، للإشارة إلى آيات محدَّدة بالضبط وواردة بشكل صريح مباشرة قبل الآية

أو العبارة التي ترد فيها كلمة ﴿تِلْكَ﴾. لذلك فإن افتراض أن عبارة ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ في الآية الأولى من سورة يوسف تشير إلى ما تقدَّم نزوله من آيات في القرآن العظيم بشكل عام ومن دون تحديد يعني بأنَّ كلمة ﴿تِلْكَ﴾ مُستَخدَمة في تلك الآية بشكل مختلف عن استخدامها في باقي الآيات الشبيهة. أما تفسيرنا بأنَّ ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ هي إشارة إلى ﴿الر﴾ فيتّفق مع استخدام ﴿تِلْكَ﴾ في باقي الآيات الكريمة.

ثانيا، وردت عبارة ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أو صيغ شبيهة جدا بها سبع مرات في كتاب الله إضافة إلى ورودها في بداية سورة يوسف، وفي كل مرة من هذه المرات جاءت العبارة الكريمة بعد الحروف المقطَّعة في بداية السورة:

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (يونس: 1).

﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الرعد: 1).

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (الحجر: 1).

﴿طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (الشعراء: 1، 2).

﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (النمل: 1).

﴿طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (القصص: 1، 2).

﴿الم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (لقمان: 1، 2).

إن هذا النسق الثابت لا بد أن يشير إلى أن هنالك علاقة بين صيغة ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾، التي ترد مرة واحدة بصيغة ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾، وبين الحروف المقَطَّعة. أي أن ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أو ﴿آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ التي تشير إليها هذه الآيات الكريمة هي الحروف المقَطَّعة التي تسبق هاتين العبارتين.

وهنالك ملاحظة أخرى مهمة ذات دلالة تتعلّق بسياقات ورود عبارة ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ التي تحدّثنا عنها أعلاه. بالرغم من أن هذه العبارة شبيهة تركيبا بعبارة ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ وقريبة منها في المعنى أيضا، حيث إن ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ هي نوع من ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾، فإنّها لم ترد في أية مرة من مرات ذكرها الثلاث في سياق

شبيه لسياق ورود ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾، أي بعد حروف مُقطَّعة. وهذه الملاحظة هي تأكيد آخر على أنّ هنالك صلة خاصة بين عبارة ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ وبين الحروف المقَطَّعة التي هي جزء من الكتاب.

لقد شاهدنا بأنَّ الله يشير إلى الحروف المقَطَّعة في سبع آيات، بما فيها آية سورة يوسف، بعبارة ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ وفي آية ثامنة بعبارة ﴿آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾، فهل هنالك فرق ما بين التعبيرين أم أنهما صيغتين مختلفتين لنفس المعنى؟ لا يميّز المفسّرون بشكل عام بين هاتين العبارتين في المعنى، على أساس أن القرآن هو الكتاب والكتاب هو القرآن. فالقرطبي مثلا يقول في تعليقه على الآية الكريمة ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: «يعني بالكتاب المبين: القرآن المبين، أي المبين حلاله وحرامه، وحدوده وأحكامه وهداه وبركته». وكذلك يفعل ابن كثير الذي يقول في تفسيره للآية الكريمة: «أي هذه آيات الكتاب وهو القرآن المبين أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسّرها ويبيّنها». ولكن هل هذا الرأي الموجز هو كل ما يمكن قوله هنا؟ إن الإجابة على هذا السؤال تعني الإجابة على السؤال التالي: هل هنالك فرق بين مصطلحي ﴿الْكِتَابِ﴾ و﴿الْقُرْآنِ﴾ في كتاب الله؟ إن الجواب بتفصيل على هذا السؤال مطوّل ويتناول مواضيعا معقّدة ويتطلّب بحثا خاصا. ولكن يمكن أن نجيب هنا باختصار ومن غير الدخول في تفاصيل بأنَّ ﴿الْقُرْآنِ﴾ هو اسم الكتاب العربي الذي أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ، بينما مصطلح ﴿الْكِتَابِ﴾ هو أكثر عموميّة ويشمل كل ما أنزل الله من كتب، وكما سنرى في الآية التالية. ولكن لما كان ﴿الْقُرْآنِ﴾ أحد الأشكال التي نزل فيها ﴿الْكِتَابِ﴾ فإن هذا المصطلح الأخير يُستخدَم أحيانا للإشارة إلى ﴿الْقُرْآنِ﴾.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2)﴾.

يمثّل ﴿الْكِتَابِ﴾ علما إلهيا ذو لغة خاصة لا يفهمها إلا خاصّة من خلق الله. لذلك أنزل الله ﴿الْكِتَابِ﴾ على الناس على شكل كتب بلغات بشرية يفهمها الناس. فكل كتاب من الكتب الإلهية التي أوحاها الله إلى نبي من أنبيائه يمثل تجسيدا

لـ ﴿الْكِتَابِ﴾ بلغة بشرية معيّنة أنزله إلى الناس الذين يفهمون تلك اللغة والذين تقع على عاتقهم مهمّة نقل ما يتعلّمونه من الكتاب إلى غيرهم من الناس من غير المتحدّثين بتلك اللغة. فالقرآن، على سبيل المثال، يمثل نزولا باللغة العربية لـ ﴿الْكِتَابِ﴾ لكي يفهمه كل من يفهم هذه اللغة، وهذا هو معنى هذه الآية الكريمة. وفي ما يلي عدد من الآيات الكريمة التي ترد في مواضع مختلفة من القرآن العظيم والتي تبيّن بأنَّ القرآن العظيم هو تبيان وتفصيل عربي لـ ﴿الْكِتَابِ﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ (الرعد: 37).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (طه: 113).

﴿حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف: 1 - 3).

﴿حم (1) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فُصِّلَت: 1 - 3).

لاحظ مثلا قوله: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ حيث إن التفصيل يعني الشرح والتبيين والتوضيح.

إن الضمير المتّصل «هاء» في ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ في الآية 37 من سورة الرعد، وفي ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ وفي ﴿فِيهِ﴾ في الآية 113 من سورة طه، وفي ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ في الآية 3 من سورة الزخرف، والضمير المستتر في ﴿يُحْدِثُ﴾ في آية سورة طه، إن كل هذه الضمائر تعود على «الكتاب» الذي لا يرد ذكره صراحة في تلك الآيات. وهذا الاستنتاج يبدو واضحا تماما عند مقارنة تلك الآيات بالآية 3 من سورة فُصِّلَت التي تذكر كلمة ﴿كِتَابٌ﴾ صراحة في قوله: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾.

وتبيّن هذه الآيات الكريمة بشكل جلي لا يقبل اللبس أن عربيّة القرآن العظيم هي صفة أصيلة من صفاته لا يمكن نزعها عنه. فالنص العربي الذي أسماه الله بالقرآن هو تفسير وتوضيح لـ ﴿الْكِتَابِ﴾ الذي لا يمكن للناس فهمه. إذاً فإن أية

ترجمة للنص العربي للقرآن العظيم هي حتما نص آخر لا يمثّل القرآن العظيم. فترجمة القرآن هي بمثابة تفسيره ، وكما أن تفسير القرآن العظيم ليس بقرآن فإن ترجمة القرآن لا تمثّله. إن الله وحده يعلم كل العلوم والمعاني التي يحتويها قرآنه العربي، لذلك فإن أية ترجمة وأي تفسير لنص قرآني هما بالتعريف محدودان جدا، حتى وإن كانا صحيحين.

لاحظ تأكيد الله على أنه أنزل القرآن عربيّا لعل الناس «يعقلون» (يوسف: 2؛ الزخرف: 3)، ولعلّهم ﴿يَتَّقُونَ﴾ (طه: 113) ولعلّهم ﴿يَعْلَمُونَ﴾ (فُصِّلَت: 3). والمقصود هو أن إنزال الله للكتاب بنص عربي أعطى الناس فرصة أن يعقلوا الحق ويتّقوا ويكتسبوا العلم. أي لو أنزل الله ﴿الْكِتَابِ﴾ بشكله الأصلي لما كان في إمكان الناس فهم شيء منه، ولما استطاعوا أن يعقلوا الحق ويكتسبوا التقوى وينالوا العلم، ولذلك فإنه أنزله ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ليمكّننا من قراءته وفهمه وييسّر لنا كل ذلك.

لقد جعل الله للقرآن خصائصا فريدة ميّزته حتى عما نزل قبله من الكتب الإلهية، وكما في قوله الكريم: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة: 48). وتؤكد هذه الآية الكريمة على أن الله أنزل قبل القرآن كتبا إلهية وأن القرآن جاء ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾، أي لتلك الكتب التي كانت قد نزلت من قبل. إذ حمل القرآن العظيم نفس الرسالة التي جاء بها كل من التوراة والإنجيل اللذين كانا لايزالان موجودين في وقت نزول القرآن العظيم، بل وكان نزول القرآن العظيم وظهور النبي محمد تصديقا لما ورد في تلك الكتب عن الرسول والكتاب الذي سيأتي معه. كما تذكر هذه الآية الكريمة إحدى الخصائص الفريدة للقرآن العظيم وهي هيمنته على ما سبقه من الكتب، أي كونه أعلى سلطة ومكانة وحكما.

لاحظ أيضا إشارة الآية اعلاه إلى القرآن العظيم بكلمة ﴿الْكِتَابَ﴾ وذلك لأن القرآن هو أحد الأشكال التي نزل بها الكتاب: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3)﴾.

يؤكد الله هنا في خطابه لرسوله الكريم على أن القصص التي أوحاها إليه في القرآن العظيم هي أحسن القصص.

وهي أحسن القصص لأنها بالإضافة إلى كونها كلام صدق وحق لا يحتوي على أية معلومات زائفة فإنها ليست مجرّد سرد لحوات ما، وإنما هي قصص ذات عِبَر تأخذ بيد من يعتبر بها إلى الله. فهل هنالك قصص أحسن من تلك التي يقصّها الله لتُقرّب قارئها منه؟

ويقول القرطبي في تفسيره «واختلف العلماء لم سميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأقاصيص»، ثم يذكر آراءً للعلماء في تفسير ذلك. إلا أن هذا القول ينطوي على سوء فهم كبير لما يشير إليه تعبير ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، إذ إنه لا يشير إلى قصة يوسف حصراً ولكن إلى كل القصص التي وردت في القرآن العظيم. وقصة يوسف هي من ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ لأنها إحدى قصص القرآن العظيم. إن وصف ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ ينطبق على كل القصص القرآنية مثلما ينطبق وصف ﴿الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ في الآية الكريمة التالية على كل ما يرد في القرآن العظيم من قصص، بما في ذلك قصة يوسف، ولا يقتصر على قصة عيسى فقط التي ذُكِرَت قبل هذه الآية الكريمة مباشرة: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: 62).

إن قول الله ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ يناظر ما جاء عن ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر: 23). فقوله ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ لا يعني أن سورة الزمر بالذات أو الآية 23 منها على وجه الخصوص هي ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾، وإنما هذا وصف

للكتاب الكريم جزءاً وكلاً وبالتالي فإن تلك الآية هي أيضا من ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾.

وتتميّز قصة يوسف عن غيرها من قصص القرآن الكريم الطويلة نسبيا في ورودها كلّها في سورة واحدة. كما تتميّز سورة يوسف عن باقي سور القرآن الكريم بأنّ معظم آياتها تتعلّق بقصّة واحدة. وهذا على ما يبدو تفسير ورود وصف القرآن للقصص القرآنية عموما بأنّها ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ في سورة يوسف بالذات.

أما الجزء الأخير من الآية الكريمة الثالثة من سورة يوسف فتذكّر الرسول بأنّه لم يكن له علم بأي من هذه القصص وتفاصيلها قبل نزول القرآن عليه. ويرد مثل هذا التذكير في آيات كريمة حول حوادث تاريخية يصفها الله بأنّها ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ لأنها من أخبار الماضي الغائب غير الحاضر. والغرض من هذا التذكير هو التأكيد على أنه ما كان للرسول وقومه أن يعلموا بها لو لم ينزلها الله في القرآن العظيم، كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هُود: 49). وهكذا يشير الله إلى خبر اشتراك النبي زكريا في القرعة ليكفل مريم: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آلَ عِمْرَان: 44)، ويذكر قرب نهاية سورة يوسف ما قام به إخوان يوسف من مكر للتخلص منه مما كشفه في السورة كما سنرى لاحقا: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يُوسُف: 102). وهذا ما يقوله الله عن وحيه لنبيّه في قصة موسى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِن الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمْ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القَصَص: 43 - 46).

لاحظ خطابه لرسوله الكريم في آيات سورة القصص بأنّه ما كان بجانب الغربي ليعلم بخبر ألواح التوراة التي كتبها الله لموسى، ولا كان بين أهل مدين ليعلم بما

حدث لموسى هنالك بعد هروبه من مصر. ويفسّر الله لنبيه وصول هذا العلم إليه بقوله ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، أي أنك يا محمد علمت بكل هذا لأنّا جعلناك من رُسلِنا، أي أن هذا العلم هو دليل على أن محمد هو حقا رسول الله. ثم يذكِّر الله رسوله الكريم مرة أخرى بأنَّه ما كان في جانب الطور حين نادى الله موسى ولكنه كشف لنبيه الكريم كل هذا العلم رحمة منه لينذر قوما لم يأتهم نذير قبل النبي محمد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

3

يوسف في بيت أبيه يعقوب

سنبدأ الآن دراستنا لقصة يوسف، حيث سنركّز في هذا الفصل على المرحلة التي كان فيها يوسف الطفل في بيت أبيه يعقوب قبل أن يبعده إخوته.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4)﴾.

سبقت الإشارة في القسم 1-1 إلى استخدام القرآن لكلمة ﴿إِذْ﴾ في بدء سياق جديد وكذلك عند الاستشهاد بأحداث مضت. وتستهل كلمة ﴿إِذْ﴾ في هذه الآية الكريمة سرد قصة يوسف، حيث نقرأ عن يوسف وهو يخبر أباه عن رؤيا شاهدها. والفعل «رأى» في الآية الكريمة يعني «شاهَدَ» بشكل عام، إلا أنه مُستعمَل في القرآن العظيم للإشارة إلى رؤى في أكثر من آية كريمة، بما في ذلك رؤى لناس عاديين كما سنقرأ لاحقا في قصة يوسف عن رؤى صاحبي سجن يوسف والملك. وبينما لا تنص الآية الكريمة صراحة على أن يوسف شاهد رؤياه تلك في منامه فإن هنالك إجماع بين المفسّرين على أنها كانت «رؤيا منام» لا «رؤيا يقظة».

بالإضافة إلى رؤيا الملك التي أشار إليها بالفعل ﴿أَرَى﴾ في كلامه إلى حاشيته في الآية 43 والتي وصفتها حاشيته بأنَّها «حلم» في جوابهم في الآية 44، هنالك آية واحدة في القرآن العظيم تستخدم الفعل «رأى» بشكل صريح للإشارة إلى «رؤيا منام» كان قد شاهدها النبي إبراهيم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِن الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104)

قَد صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الصافات: 102 - 105).

ومما يُلفِت النظر في الآية أعلاه من سورة يوسف هو استخدام يوسف للفعل ﴿رَأَيْتُ﴾ مرّتين، إذ يقول: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ثم يُكمِلُ قائلا: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. يعتقد الطوسي أن تكرار يوسف لفعل ﴿رَأَيْتُ﴾ له سببين، أولهما: «للتوكيد حيث طال الكلام»، أي بسبب وجود عبارة طويلة نسبيا بين فعل ﴿رَأَيْتُ﴾ الأول وبين فعل السجود المذكور لاحقا. إلا أن هذا التفسير، الذي يذكره الطباطبائي أيضا، ليس له أساس من الصحة لأن إتْباع جملة ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ بعبارة ﴿لِي سَاجِدِينَ﴾ من غير تكرار الفعل ﴿رَأَيْتُ﴾ ما كان سيترك أي غموض في معنى الجملة، كما أنها جملة ليست بالطويلة على كل حال، خلافا لما يقوله الطوسي والطباطبائي. ويشير الطبري أيضا إلى رأي البعض بأنَّ هدف التكرار هنا هو التأكيد ولكن من غير أن يربطه بطول الكلام.

أما تفسير الطوسي الثاني للتكرار فهو: «ليدل على أنه رآهم ورأى سجودهم». قد يبدو هذا التفسير محتملا فيكون معنى الرؤيا هو أن يوسف رأى أولا ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ثم رآهم وهم ساجدين له. إلا أن من الممكن الاعتراض بأنّه لو كان هذا هو المراد من تكرار ﴿رَأَيْتُ﴾ لورد الفعل في المرة الثانية مسبوقا بحرف الواو، أي بصيغة «ورأيتهم» بدلا من ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾. أي أن صيغة الآية الكريمة توحي بأنَّ يوسف كان يصف مشهدا واحدا لا اثنين وأن قوله ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ هو تفصيل للحالة التي شاهد فيها الكواكب الأحد عشر والشمس والقمر المتقدّم ذكرهم في قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾.

ويضيف الطباطبائي سببا ثالثا لتكرار الفعل ﴿رَأَيْتُ﴾ وهو «الدلالة على أنه إنما رآهم مجتمعين على السجود جميعا لا فرادى». إلا أن هذا التفسير يبدو هو الآخر اعتباطيا، لأن عبارة ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ لا تشير بالضرورة إلى أنه رآهم «ساجدين جميعا».

ومن الممكن أن يشير تكرار الفعل ﴿رَأَيْتُ﴾ إلى تعجّب يوسف من رؤيته

لسجود الكواكب الأحد عشر والشمس والقمر له. إلا أن التفسير الذي يبدو لنا أكثر رجحانا هو أن تكرار الفعل ﴿رَأَيْتُ﴾ يعكس تردد يوسف أدبا وتواضعا من وصف عِظَم ما شاهد لأبيه، وهو سجود ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ له. أي أراد يوسف أن يقول لأبيه أنه رأى ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وهم ساجدين له، إلا أنه حين وصل إلى ذكر ما شاهد من سجودهم له توقّف مترددا وخَجِلا قبل أن يضطر إلى قول ما رأى لأنه كان لا بد أن يخبر أباه به.

قد يظن البعض بأنَّ تردد يوسف وخجله لا يعنيان بأنّه علم بالضبط معنى سجود ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ له، ولكن يعكسان إدراكه بأنَّ رؤياه تشير إلى نيله خيرا كبيرا ووصوله إلى منزلة عالية. إلا أن الرأي الأرجح هو أن يوسف عَلِم بأنَّ الكواكب الأحد عشر رَمَزَت إلى إخوته وأن الشمس والقمر مثّلا أبويه وهو ما جعله يشعر أكثر بالحرج وهو يحدّث أباه عن رؤياه التي تعني بأنَّ أباه سيسجد له. لاحظ أن هذا التفسير يمكن أن يشمل التفسير الآخر أعلاه الذي يشير إلى تعجّب يوسف مما رأى. أي أن حَرَجَ يوسف من رؤياه وهو يقصّها على أبيه صاحبه تعجّبه من دلالات ما رأى.

انقَسَم المفسّرون إلى فريقين يرى أحدهما بأنَّ الشمس ترمز إلى أم يوسف وأن القمر يرمز إلى أبيه. ويبدو أن سبب ميل هؤلاء المفسّرين إلى هذا الرأي هو أن كلمة «شمس» مؤنثة بينما كلمة «قمر» مذكّر. إلا أننا لا نرى في هذا سببا يمنع من استخدام الشمس للإشارة إلى سيدنا يعقوب والقمر إلى أم يوسف، حيث إن الإشارة هنا هي رمزية لا أكثر.

كما أن رأي المفسّرين هذا لا يأخذ بنظر الاعتبار احتمال اختلاف جنسي كلمتي شمس وقمر في اللغة التي تحدّث بها يعقوب وأهله عن جنسي هاتين الكلمتين في عربيّة القرآن الكريم.

فنحن نتّفق في الرأي مع الفريق الآخر من المفسّرين الذي يرى بأنَّ الشمس ترمز إلى يعقوب وأن القمر يرمز إلى أم يوسف. وسبب ميلنا إلى هذا التفسير هو أن الشمس هي مصدر نور القمر وهي الأكبر بين الجرمين، وهذا يتفق مع مكانة

يعقوب نسبة إلى زوجته. فيعقوب كان هو شمس ذلك الزمان.

كما أن في ظهور يعقوب على شكل شمس في رؤيا ابنه معنًى خفياً خاصاً. إذ كان يعقوب سيفقد بصره بعد سنين من رؤية يوسف لرؤياه، لذلك فإن في ظهوره على شكل مصدر النور في الرؤيا إشارة إلى أنه كان سيعود بصيرا قبل وقوع الحادثة التي تصفها الرؤيا، أي أنّه كان سيسجد ليوسف وهو بصير.

ومن الشائع في اللغة ذكر الشمس والقمر أولا ثم الكواكب. كما أن كون الشمس والقمر رمزين ليعقوب وأم يوسف بينما رمزت الكواكب إلى إخوة يوسف يجعل من المتوَقّع أن يرد ذكر النيّرين قبل الكواكب في قص يوسف لرؤياه. لكن هذا عكس ما حدث، حيث ذكر يوسف الكواكب الأحد عشر أولا ومن ثم الشمس والقمر. وتفسير هذا هو أن سجود إخوة يوسف له كان مكتوبا له أن يحدث قبل سجود أبيه وأمّه له.

وهكذا يسرد نص رؤيا يوسف بدقة مذهلة تفاصيلا لا تَكادُ تُلاحَظ أساسا.

وتجدر الإشارة إلى أن السجود المقصود هنا هو سجود «تحيّة» وليس سجود «عبادة». سنتطرّق إلى هذا الموضوع ثانية عند تفسيرنا للآية 100 حول تحقّق الرؤيا.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5)﴾.

كان أول رد فعل ليعقوب على سماعه لرؤيا يوسف هو أمره له بأن لا يكشف عن رؤياه لإخوته لكيلا يكيدوا له تحت تأثير الشيطان، عدو الإنسان المبين. ويعني الكيد بشكل عام التدبير والتخطيط الذي غالبا ما يكون مقرونا بشيء من السرّية. وعندما يحمل الكيد معنى سلبيا، كما في هذه الحالة، فإنه يأتي بمعنى الاحتيال والتآمر بهدف الإيذاء.

ويستنتج بعض المفسّرين، مثل الجلالين والطباطبائي، من أمر يعقوب ليوسف بكتمان الرؤيا على إخوته بأنّهم كانوا سيفهمون معناها إذا سمعوها، فيعلموا بأنّ

المقصود بها سجودهم ويعقوب وزوجته ليوسف. كما قد يجادل البعض بأنَّ نهي يعقوب لابنه عن قصِ الرؤيا على إخوته وليس فقط عدم تفسيرها لهم يعني بأنَّ تفسيرها كان سيكون واضحا لهم عند سماعهم لها.

من المحتمل بأنَّه كان سيخطر ببال إخوة يوسف بأنَّ الكواكب الأحد عشر ترمز لهم، خصوصا إذا كان عددهم وقت الرؤيا أحد عشر، إي إذا كان بنيامين قد وُلِدَ. وحتى إذا ما كانوا سيفشلون في إدراك ذلك فإن من الواضح أن الرؤيا تبيّن وصول يوسف إلى مقام عال جدا، وهو أمر كان سيكون كفيلا بتأجيج حسدهم لأخيهم الذي كانوا يسيئون معاملته، وهذا بحد ذاته سبب كافي لنهي يعقوب ليوسف عن كشف رؤياه لإخوته.

من الممكن أن بعض معنى الرؤيا كان سيكون جليا لإخوة يوسف، إلا أن من المؤكّد أنهم ما كانوا سيعلمون تفسير المعاني الأكثر خفاءً لرؤيا أخيهم. فتفسير الرؤى هو علم خاص، وليست هنالك إشارة إلى أن الله أغدق هذا الفضل على إخوة يوسف، خصوصا وأنهم كانوا في سلوكهم حينئذ بعيدين كل البعد عن مثل هذا الفضل الكبير.

ويلاحظ الطباطبائي تقديم يعقوب نهيه ليوسف عن قص الرؤيا على إخوته على تفسيره لها في الآية التي تليها، ويرى أن ذلك يعود إلى فرط حب يعقوب ليوسف وما كان يعرفه من حسد إخوته وحنقهم عليه. ومن ملاحظات الطباطبائي الذكية الأخرى على النص القرآني الرائع هي أن سيدنا يعقوب لم يقل تحذيرا ليوسف شيئا مثل «إني أخاف أن يكيدوا» وإنما أكّد تحقيق الكيد منهم بقوله ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾، ثم أتبع ذلك بتعليله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾. ويعلّق الطباطبائي على هذه الآية الكريمة بأنَّ وسوسة الشيطان هي مصدر آخر لعداوة إخوة يوسف له بالإضافة إلى حسد أنفسهم له. أي انه ينسب عداوة إخوة يوسف إلى مصدرين، داخلي وخارجي.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)﴾.

يستمر في هذه الآية الكريمة خطاب يعقوب لابنه يوسف. وتشير كلمة ﴿وَكَذَلِكَ﴾ إلى رؤيا يوسف، أي كأن يعقوب يقول لابنه شيئا من قبيل: «وكما بيّنت الرؤيا....».

إن معنى ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ هو «يختارك»[1]، ولذلك فإن قول يعقوب ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يعني: «وهكذا كما بيّنتْ الرؤيا فقد اختارك الله واصطفاك». ويبدو أن المقصود بذلك هو اصطفاء الله ليوسف بالنبوّة.

ثم يستطرد يعقوب في ذكر نِعَم الله على يوسف: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾، قبل أن يكمِل مشيراً إلى الأفضال التي سينعمها الله على آل يعقوب: ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ﴾. ولنحاول أن ندرس الآن ماهيّة هذه النِّعَم الإلهية التي يشير إليها يعقوب

---

(1) وفقا لتفسير الجلالين وابن كثير والآراء التي استشهد بها الطبري فإن معنى ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ هو «يختارك». والاجتباء عند الطوسي هو «اختيار معالي الأمور للمُجتَبى.... وأصله من جَبيت الشيء أي حصلته، ومنه جبيت الماء في الحوض»، كما أنه يقرّب المعنى من قول الجلالين حين يقول في تفسير الآية الكريمة «الله يجتبيك، ويختارك، ويصطفيك ويكرمك بذلك، كما أكرمك بأن أراك في منامك هذه الرؤيا». وللطباطبائي رأي شبيه يقول فيه:

الاجتباء من الجباية وهي الجمع يقال: جبيت الماء في الحوض إذا جمعته فيه، ومنه جباية الخراج أي جمعه قال تعالى: ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (القصص: 57). ففي معنى الاجتباء جمع أجزاء الشيء وحفظها من التفرق والتشتت، وفيه سلوك وحركة من الجابي نحو المُجبي. فاجتباء الله سبحانه عبدا من عباده هو أن يقصده برحمته ويخصه بمزيد كرامته فيجمع شمله ويحفظه من التفرق في السبل المتفرقة الشيطانية المفرقة للإنسان ويركبه صراطه المستقيم، وهو أن يتولى أمره ويخصه بنفسه فلا يكون لغيره فيه نصيب كما أخبر تعالى بذلك في يوسف إذ قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: 24).

مبتدئين بـ ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ الذي ورد ذكره ثلاث مرات في القرآن العظيم، كلها في سورة يوسف، مرة على لسان يعقوب (6)، ومرة بكلام مباشر من الله (21)، ومرة على لسان يوسف (101).

من الواضح أن كلمة ﴿تَأْوِيلِ﴾ تعني «توضيح» أو «تفسير». وقد وردت هذه الكلمة في سورة يوسف في غير عبارة ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أيضا بمعنى «تفسير». ولكن ذهب بعض المفسّرين في رأيه حول معنى ﴿تَأْوِيلِ﴾ مذهباً آخر[1].

أما كلمة ﴿أَحَادِيث﴾ فإن هنالك شبه إجماع بين المفسّرين على أنها تعني «منامات» وبالتالي فإن ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ يعني «تفسير المنامات». لا شك أن مما دفع العلماء إلى هذا التفسير لتعبير ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ هو ذكر السورة لتفسير يوسف بدقة لعدد من المنامات. إلا أن ما فات على المفسّرين ملاحظته هو أن

---

(1) بحث صلاح عبد الفتّاح الخالدي بالتفصيل مفهوم «التأويل» في القرآن في كتابه التفسير والتأويل في القرآن حيث خلص إلى الاتّفاق مع رأي الراغب الأصفهاني في كتابه «المفردات» بأنّ «التأويل» هو «رد الشيء إلى الغاية المرادة منه، علما كان أو فعلا». فإذا كان الشيء «علما»، كان التأويل بمعنى «التفسير»، وإذا كان الشيء «فعلا»، كان «التأويل» بمعنى «التحقيق». ويذكر ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة 100 من سورة يوسف بأنّ كلمة «تأويل» تُطلَق على ما يؤول إليه الأمر أي ما يصير إليه، وهو رأي يذكره الطبري أيضا في تفسيره للآية مدار البحث.

إن بعض السياقات التي وردت فيها كلمة «تأويل» في القرآن تحتّم أن يكون معنى هذه الكلمة هو «تفسير»، مثل قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف: 78) ومواضع ورودها في سورة يوسف، في عبارة ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وفي غيرها. في الواقع، إننا نرى بأنّ من الممكن تفسير كلمة «تأويل» ومشتقّاتها في كل مواضع ورودها في القرآن العظيم بمعنى «تفسير» أو «توضيح».

لاحظ أيضا بأنّ كلمة ﴿تَأْوِيلِ﴾ هي على وزن «تفعيل»، وهذا لا يتّفق مع الرأي القائل بأنّها تعني «ما يؤول إليه» الأمر. أي إن كلمة ﴿تَأْوِيلِ﴾ في عبارة ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ تشير إلى فعل يقوم به من يمتلك هذه القدرة، وهي ملاحظة تتفّق مع قولنا بأنّ كلمة ﴿تَأْوِيلِ﴾ تعني «تفسير».

هنالك تعبيرا خاصا في القرآن يشير إلى تفسير المنامات وهو ﴿تَأْوِيلِ الأَحْلَامِ﴾ الذي يرد على لسان حاشية الملك الذي كان في الحكم حين كان يوسف في السجن: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ (يوسف: 44). كان هذا الجواب رداً على طلب الملك من حاشيته تفسيرا لمنامه، حيث أشار إلى تفسير المنامات في طلبه بـ «تعبير الرؤى»: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (يوسف: 43). إن هذا يلقي شكاً على صحة التفسير التقليدي الذي يساوي بين ﴿تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ و﴿تَأْوِيلِ الأَحْلَامِ﴾.

في الواقع، ترد كلمة ﴿أَحَادِيث﴾ في القرآن العظيم بمعنى مختلف عن كلمة «أحلام»، وكما تبيّن الآيتان الأخرتان اللتان ترد فيهما هذه الكلمة: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون: 44)، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سبأ: 19). إن كلمة ﴿أَحَادِيثَ﴾ هي جمع كلمة ﴿حَدِيثُ﴾ الواردة في عدد من الآيات الكريمة التي منها ما يلي، على سبيل المثال:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء: 87).

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: 185).

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (طه: 9).

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (الذاريات: 24).

من الجلي مما تقدّم من آيات تحتوي على كلمة ﴿أَحَادِيث﴾ أو ﴿حَدِيثُ﴾ بأنّ كلمة ﴿حَدِيثُ﴾ تعني «الكلام الذي يتضمّن خبرا أو قصة ما». لاحظ أن اللغة العربيّة الحديثة تحتوي على الاسم «حَدَث» الذي يعني «واقعة» والفعل «حَدَثَ» الذي يعني «وَقَعَ» اللذين من الواضح ارتباطهما بكلمة «حَديث» التي فعلها هو «حدَّثَ».

لذلك، فإنّ ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ يشير إلى القدرة على «معرفة الحدث الذي يقف وراء حديث ما»، أي أنّ «تأويل» الحديث هو إرجاعه إلى «أوّله»، وأوّل أي حديث هو الحدث الذي نشأ عنه ذلك الحديث.

رغم انه يمكن للحديث أن يكون مناما، أي حلما، فإنه ليس بمقصور على المنامات، وهو سر تمييز القرآن العظيم بين ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ و﴿تَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ﴾. ومما يؤكد هذا التمييز وان ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ يشمل ﴿تَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ﴾ هو أن القدرات الخارقة التي امتلكها يوسف تجاوزت تأويل الأحلام، حيث سنرى لاحقا بأنّه كان قادرا على معرفة مختلف أنواع الأمور الغيبية قبل وقوعها، كقدرته على أن يعرف مسبقا نوع الطعام الذي كان سيأتيه وصاحبي سجنه.

ومن الطبيعي أنه إذا كان ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ يعني القدرة على معرفة أصل حديث ما، فإنه لا بد أن يعني إذا ضمنيا القدرة على تمييز الحديث الصادق من الحديث الكاذب، لأن تأويل الحديث الصادق هو الحادثة الحقيقية التي يشير إليها، أما تأويل الحديث الكاذب فهو سبب اختلاقه.

وردت عبارة ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ في المرّات الثلاث مسبوقة بـ ﴿مِنْ﴾، أي بصيغة ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾. إذا قارنّا هذا المصطلح بكلمات قريبة في المعنى تشير إلى أنواع من العلم الإلهي ككلمتي ﴿الْكِتَابِ﴾ و﴿الْحِكْمَةَ﴾ فسنجد بأنَّ هاتين الكلمتين تردان في الكتاب العزيز في معظم الأحيان غير مسبوقتان بكلمة ﴿مِنْ﴾، كما في قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: 129)، وفي أحيان قليلة أخرى مسبوقة بها، كما في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 231). لذلك، فإننا نستنتج من ورود عبارة ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ مسبوقة في كلٍ من المرّات الثلاث بكلمة ﴿مِنْ﴾ بأنَّ المقصود هو التحديد والتصغير، في إشارة إلى أن علم تأويل الأحاديث هو علم واسع جدا وأن الله آتى يوسف «بعضا» من ذلك العلم. أي كأن تقدير القول هو «نصيب من تأويل الأحاديث»، كظهور ﴿الْمُلْكِ﴾ في

الآية الكريمة التالية التي تتحدّث عن بني إسرائيل: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِن الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ (النساء: 53). هنالك نقاش أكثر تفصيلا لهذه النقطة في شرحنا للآية 101 من سورة يوسف في الفصل التاسع.

إن تأويل يعقوب لرؤيا يوسف، وعلى وجه الخصوص استنتاجه بأنَّ الله سيعلّم ابنه ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، يبيّن بأنَّه هو الآخر كان لديه علم ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾! ومما يدل على ذلك أيضا هو إضافة يعقوب: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾، مشيرا إلى إدراكه إلى أن الكواكب الأحد عشر إنما عنت إخوة يوسف وأن الشمس والقمر تشيران إليه وزوجته أم يوسف. وفعلا جاء تحقّق رؤيا يوسف بنعمة كبيرة على كل آل يعقوب، كما سنرى لاحقا. ومن الممكن جدا أن يكون سبب قص يوسف لرؤياه على أبيه هو أن يعقوب كان معروفا بقدرته على تأويل الأحاديث، بما في ذلك الرؤى. إلا أنّ من الواضح أن يعقوب فسّر ليوسف رؤياه بشكل عام وليس بتفصيل كامل. وقد يعود ذلك إلى محدودية ما مكّنته درجة علمه بتأويل الأحاديث من معرفته، أو لأنه لم يرد أن يطّلع ابنه الصغير السن على كافّة ما عَلِم من الرؤيا.

ولنأتي الآن إلى قول يعقوب ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ﴾ الذي اختلف المفسّرون فيه. فبعضهم يرى بأنَّه يشير إلى نزول النبوة على يوسف ونزول غير ذلك من نعم الله على باقي إخوته، وبعض آخر يعتقد بأنَّه يعني أنَّ كل أبناء يعقوب كانوا سيصبحون أنبياء، وفريق ثالث يرى أنه يشير إلى غير ذلك من نِعَم الله على يوسف وإخوته. إن السبب الذي دفع الكثير من المفسّرين إلى الاعتقاد بأن إخوة يوسف العشرة الأكبر سنا لم يكونوا أنبياء هو سلوكهم السيئ تجاه أخويهم يوسف وبنيامين، باعتبار أن الأنبياء «معصومين» ولا يمكن أن تصدر عنهم مثل هذه التصرفات السيئة. إلا أن هذا يمثّل فهما معيّنا ليس هو الوحيد لمعنى عصمة الأنبياء. فعلى سبيل المثال، يرى بعض المفسّرين، ومنهم أولئك الذين يعتقدون بأنَّ ﴿الأَسْبَاطِ﴾ هم أبناء يعقوب، بأنَّ ارتكاب الصغائر قبل نزول النبوة لا يعارض عصمة النبي. من الممكن أن يكون

أبناء يعقوب قد أصبحوا أنبياءً لاحقا وأن تكون كل أحوالهم قد تغيرت بإذن الله. وفي هذه الحالة تكون أكبر النِّعَم التي تشير إليها الآية أعلاه هي النبوة التي شملت كل أبناء يعقوب. ولندرس موضوع نبوّة إخوة يوسف المهم بالتفصيل.

يدور اختلاف المفسّرين بشأن موضوع نبوّة إخوة يوسف حول ما اذا كان إخوة يوسف هم الأنبياء الذين يشير إليهم القرآن العظيم في خمس آيات كريمة بتعبير ﴿الأَسْبَاطِ﴾. ولنضع جانبا، بشكل مؤقّت، واحدة من هذه الآيات التي تستخدم كلمة أسباط بمعنى خاص وندرس الآيات الكريمة الاربع الأخرى:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: 136).

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِن اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: 140).

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 84).

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ (النساء: 163).

لا تترك هذه الآيات الكريمة أي مجال للشك في أن ﴿الأَسْبَاطِ﴾ كانوا أنبياء. أما عن هويّة هؤلاء ﴿الأَسْبَاطِ﴾ فقد انقسم المفسّرون إلى فريقين، قال أحدهما بأنّهم أبناء يعقوب الاثني عشر، فيما قال فريق الأغلبية بأنّهم من نسله لا أولاده، حيث تعني كلمة «أسباط» بشكل عام «أحفاد»، ومفردها هو «سبط». وهنالك من يقول بأنّ كل سبط كان من نسل رجل من أبناء يعقوب. ومن الآراء التي يرددها بعض المفسّرين هي أن كلمة أسباط تعني بطون بني إسرائيل كما يقال للعرب قبائل

وللعجم شعوب. ويوحي هذا الرأي بأنَّ كلمة أسباط كانت تشير إلى بطون بني إسرائيل من قبل نزول القرآن العظيم، لكن من الواضح أن ذلك الرأي هو الذي ظهر نتيجة للتفسير الرافض لاعتبار الأسباط هم أبناء يعقوب وليس العكس.

وليس في الآيات الكريمة أعلاه ما يعارِض القول بأنَّ ﴿الأَسْبَاطِ﴾ هم أولاد يعقوب لا أحفاده، إذ من الممكن أن يكون سبب وصفهم بـ ﴿الأَسْبَاطِ﴾ هو نسبتهم إلى أحد أجدادهم. ولكن هل يوجد في كتاب الله ما يشير إلى أنهم فعلا أبناء يعقوب الاثني عشر لا أحفاده؟ إن الحجج التي نسوقها أدناه تبيّن بأنَّ الجواب على هذا السؤال هو بالايجاب بكل تأكيد.

أولا: إن أفضل منطلق لبدء بحثنا لتحديد هوية ﴿الأَسْبَاطِ﴾ هو دراسة مواضع ظهور هذه التسمية. وهنا نلاحظ بأنَّ كلمة ﴿الأَسْبَاطِ﴾ قد وردت في جميع الآيات الكريمة أعلاه في عبارة واحدة لم تتغيّر تذكر اسم أبو الأنبياء إبراهيم، ثم ابنيه النبيّين إسماعيل وإسحق، ثم النبي يعقوب ابن النبي إسحق، ثم الأنبياء الأسباط: ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾. أي تشير الآية الكريمة إلى أب ثم ابنه ثم ابنه الآخر ثم ابنه الأخير ثم الأحفاد. إن الله لا يقول صراحة أحفاد من هم هؤلاء الأنبياء، إلا أن ذكر الآية الكريمة لأجيال متتابعة من الأنبياء المنحدرين من نسل واحد لا يترك أي مجال للشك في أن هولاء الأحفاد المذكورين في نهاية العبارة هم أحفاد الآباء الذين تقدّم ذكرهم، أي أنهم أبناء يعقوب[1].

ثانيا: إن لقب ﴿الأَسْبَاطِ﴾ لا ينسبهم صراحة إلى جدّهم أو أجدادهم، حيث وردت الكلمة معرّفة بأداة التعريف (الـ) بدل أن تكون متبوعة بضمير أو كلمة تنسبهم صراحة إلى آبائهم كعبارة «أسباط فلان». وهذا يعني بأنَّ سياق ورود هذه الكلمة

(1) لاحِظ أن كلمة «آباء» تُستَخدَم في القرآن بمعنى «أجداد»، كقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ (الدخان: 8).

يوضّح معناها، أي أن الجد أو الأجداد المقصودون يجب أن يكونوا مذكورين في ذلك السياق. ولما وردت كلمة ﴿الأَسْبَاطِ﴾ بعد الآباء ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ﴾ فإنَّ من الواضح أن هؤلاء الآباء المتقدّم ذكرهم هم آباء أولئك الأحفاد.

ثالثا: إن كل إنسان هو حفيد، وبالتالي فإن كل مجموعة من الناس هم أحفاد، لعدد لا يحصى من الأجداد. فَلِمَ إذاً يُطلق الله على هؤلاء الأنبياء بالذات تسمية الأسباط، أي الأحفاد؟ لِمَ لَمْ يقل الله - على سبيل المثال - «إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وبنيه» أو «إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وإخوته» بدلا من ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾؟ من الواضح إذا أن هؤلاء الأنبياء هم أحفاد من نوع خاص ولذلك شاء الله أن يصفهم بكلمة ﴿الأَسْبَاطِ﴾ التي تعني «الأحفاد» تأكيدا لخصوصيّتهم هذه.

ويُجمِع المفسّرون على أن كلمة ﴿الأَسْبَاطِ﴾ تبيّن بأنَّ المشار إليهم كانوا أنبياءً أحفاد أنبياء، مما يجعلهم أحفادا متميّزين. إلا أن رأيهم هذا لا يعني ضرورة بأنَّ الأسباط كانوا يوسف وإخوته، ولا يستبعد احتمال أن تكون هذه التسمية شاملة أيضا لغيرهم من الأنبياء من الأجيال اللاحقة من أحفاد يعقوب. لكن الرأي القائل بتعميم مصطلح ﴿الأَسْبَاطِ﴾ ليشمل أحفادا لاحقين ليعقوب لا يستطيع أن يفسّر سبب إطلاق هذه التسمية الخاصة على مجموعة معيّنة فقط من الأنبياء الذين كان لهم أجداد من الأنبياء، حيث يذكر الله في الآيات أعلاه عدداً من الأنبياء من نسل يعقوب ممن لا يشملهم مصطلح ﴿الأَسْبَاطِ﴾.

على الخلاف من هذا، إن القول بأنَّ مصطلح ﴿الأَسْبَاطِ﴾ يشمل يوسف وإخوانه فقط يفسّر سبب تخصيص الله لهذه المجموعة بالذات من الأنبياء بلقب ﴿الأَسْبَاطِ﴾. إن كل واحد من هذه المجموعة الفريدة من الأحفاد يتميّز عن كل نبي آخر على الإطلاق بكونه ابن نبي كان بدوره ابن نبي كان هو الآخر أخ لنبي وابن نبي. أي تميّزَ ﴿الأَسْبَاطِ﴾ عن غيرهم من الأنبياء من أحفاد يعقوب بكونهم أحفاداً مباشرين لإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب. أي تذكر عبارة ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ﴾ أجيالا متتالية من الأنبياء.

رابعا: لم ترد كلمة ﴿الأَسْبَاطِ﴾ في أي سياق سوى ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ﴾ كما ولم تُفصَل بأية كلمة عن اسم يعقوب المسبوق باسم أبيه إسحق المسبوق باسم أخيه إسماعيل المسبوق باسم أبيه إبراهيم. وحتى حين فصل الله بين أسماء الانبياء في البقرة/136 وآل عمران/84 بكلمة ﴿وَمَا﴾ فإنه لم يفصل بين ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ وإنما فصل أسماء هؤلاء الأنبياء مباشرة بعد كلمة ﴿الأَسْبَاطِ﴾ عن غيرهم من الأنبياء. إن هذا أيضا يوحي بأنَّ ﴿الأَسْبَاطِ﴾ يمثّلون الجيل التالي مباشرة لجيل يعقوب، أي أبناءه. ورغم أن موسى وعيسى والنبيّين الذين تذكرهم تلكما الآيتان الكريمتان هم أيضا من نسل إبراهيم فقد جاء ذكرهم في النص الكريم مفصولا عن أجدادهم الأنبياء لأنهم ليسوا ذرية مباشرة لخط ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾.

خامسا: من الملاحظات الغاية في الأهمية هي غياب اسم يوسف من بين أسماء الأنبياء التي وردت في الآيات التي تحتوي عبارة ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ رغم أن الله خصص لقصته في كتابه العزيز إحدى طِوال السور. ألا يوحي هذا بأنَّ يوسف لم يُذكَر صراحة في هذه الآيات الكريمة لأنه أحد ﴿الأَسْبَاطِ﴾؟ وفعلا حين يذكر الله في آية أخرى أسماء العديد من أنبيائه، بما فيهم إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب، ولكن من غير أن يذكر مصطلح الأسباط نجد بأنَّ اسم يوسف يُذكَر صراحة: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِن الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: 83 - 86).

سادساً: ولننظر مرة أخرى إلى آية سورة النساء والآية الكريمة التي تليها: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ

زَبُورًا (163) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء: 163، 164). لاحظ إشارة الله إلى رسل قد قصّ أنباءهم على رسوله الكريم وآخرين لم يقصصهم، ولاحظ كيف أن كل الأنبياء الذين وردت أسماؤهم في الآية أعلاه قد ذكر الله قصصهم في الكتاب العزيز. ألا يؤكّد هذا بأنّ ﴿الأَسْبَاطِ﴾ هم أيضا أنبياءً قد قصّ الله قصصهم؟ وإذا كان الأمر كذلك فمن هم الأنبياء الذين قص الله قصتهم والذين تجدر الإشارة إليهم من دون باقي الأنبياء جماعةً من خلال كلمة ﴿الأَسْبَاطِ﴾ سوى يوسف وإخوته؟ ويفسّر هذا أيضا عدم ذكر اسم يوسف في آية النساء/163 رغم ورود قصّته بتفصيل كبير وذلك لأنه أحد الأسباط المذكورين. إن هذه الملاحظة تعني أيضا استبعاد احتمال أن تشمل كلمة ﴿الأَسْبَاطِ﴾ بالإضافة إلى يوسف وإخوته أبناءً لهم، إذ لم يقصّ القرآن العظيم قصصا عن أحفادٍ مباشرين ليعقوب.

سابعا: وهذه آية ترينا ﴿الأَسْبَاطِ﴾ الجالسين قرب أبيهم يعقوب قبيل مغادرته لهذا العالم وهم يشيرون إلى باقي آبائهم ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ﴾ الذين عُرِفوا بسبب نسبهم المباشر إليهم بلقب ﴿الأَسْبَاطِ﴾: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: 133). لاحظ استخدام الآية الكريمة لكلمة ﴿لِبَنِيهِ﴾ بدلا من «للأسباط»، حيث يتفق هذا مع ما ذكرناه من أن استخدام مصطلح الأسباط يتطلّب سياقا خاصا يعطي للمصطلح معناه، كما في وروده مسبوقا مباشرة بأسماء الآباء في الآيات الكريمة الأربع أعلاه.

إن المفسّرين الذين يرفضون قبول نبوّة إخوة يوسف، وبالتالي الإقرار بأنّهم الأسباط، قد غفلوا عن أو أساءوا فهم العديد من الإشارات القرآنية التي تبيّن تغيّر إخوة يوسف لاحقا في حياتهم إلى رجال صالحين. سنتطرق لاحقا إلى هذه الإشارات عند دراستنا للآيات الكريمة التي ترد فيها، إلا أننا نريد أن نعلّق هنا على آية البقرة/133. **أولا:** لاحظ استخدام الله لكلمة ﴿بَنِيهِ﴾ بدل تعبير «يوسف وإخوته» المستخدَم في الآية السابعة من سورة يوسف التي سندرسها بعد قليل: ﴿لَقَدْ كَانَ

﴿فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾. وسبب ذلك هو أن آية سورة يوسف تتحدث عن يوسف وإخوته في بداية أمرهم حين كان الشيطان قد نزغ بينهم جاعلا من إخوة يوسف أعداءً له. أما في المرحلة المتأخرة من حياة يعقوب التي تشير إليها البقرة/ 133 فقد كان الله قد أنعم على إخوة يوسف بأن جعلهم من الصالحين حيث أصبحوا إخوة حق في الله بالإضافة إلى أُخوّة الدم التي تربطهم.

ثانيا: ومما يؤكد صحة هذه الملاحظة وأن استخدام كلمة ﴿بَنِيهِ﴾ لم يكن بسبب الضرورة اللغوية لنسبة الأبناء إلى أبيهم يعقوب هو معاملة الآية الكريمة لأبناء يعقوب معاملة الواحد في قوله تعالى ﴿قَالُوا﴾ ونسبتها إليهم رداً واحداً على سؤال والدهم وأخذهم عهداً واحداً أمامه بأن لا يعبدوا الا الله الواحد اله آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وأن يكونوا له مسلمون.

إن ذكر أبناء يعقوب الصالحين لأجدادهم، آباء يعقوب، في جوابهم على أبيهم هو إشارة إلى أنهم كانوا قد أصبحوا أيضا أنبياء، حيث تمثّل إشارتهم إلى أولئك الأجداد عهدا بأن يكونوا أهلا لشرف لقب ﴿الأَسْبَاطِ﴾ الذي حملوه بسبب من انتمائهم إلى أولئك الأنبياء العِظام.

ثالثا: لاحظ أيضا أن رؤيا يوسف التي تحقّقت بعد دخول يعقوب وأهله إلى مصر لم تميّز بين إخوة يوسف العشرة الكبار وشقيقه بنيامين الذي كان قد عانى من سوء معاملة إخوته له مثلما عانى يوسف، حيث ظهر كل واحد من إخوة يوسف الأحد عشر في الرؤيا على شكل كوكب. لقد جاء دخول يعقوب وأهله جميعا إلى مصر من بعد توبة حقيقية لأولاده العشرة: ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: 90 – 92)، ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (يوسف: 97، 98)، وهذا يفسّر ظهور كل منهم على شكل كوكب مثلما ظهر بنيامين. إن الإنسان الخاطئ، مهما عظُمَت ذنوبه، يصبح إنسانا جديدا حال

مغفرة الله له. وللطباطبائي ملاحظة جميلة على رؤيا يوسف يقول فيها بأنَّ «رؤية آل يعقوب في صورة الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا، وهي أجرام سماوية رفيعة المكان ساطعة الأنوار واسعة المدارات، تدل على أنهم سترتفع مكانتهم ويعلو كعبهم في حياتهم الإنسانية السعيدة، وهي الحياة الدينية العامرة للدنيا والآخرة ويمتازون في ذلك من غيرهم». إن ارتفاع مكانة إخوة يوسف بعد مغفرة الله لهم كانت كارتفاعهم من على سطح الأرض إلى أعلى السماء.

يتّضح إذاً من كل ما تقدّم بأنَّ القرآن الكريم لا يترك أي مجال للشك في أن ﴿الأَسْبَاطِ﴾ هم يوسف وإخوانه الذين منّ الله عليهم جميعا بالنبوة، وهذه هي أكبر النِّعَم التي أشار إليها يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾. أما اعتقاد غالبية المفسّرين بأنَّ الأسباط لا يمكن أن يكونوا إخوة يوسف فسببه فهم معيّن لمفهوم عصمة الأنبياء ليس له أساس في كتاب الله.

لقد أجّلنا الحديث عن الآية الكريمة الخامسة التي ترد فيها كلمة ﴿أَسْبَاط﴾ والتي أشرنا إلى أنها تستخدم هذه الكلمة بمعنى خاص: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذْ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِب بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف: 160). يرى المفسّرون بشكل عام بأنَّ معنى كلمة أسباط هنا هو «جماعة». ويبدو أن المقصود هنا هو تقسيم الله لبني إسرائيل إلى اثنتي عشرة أمّة وفقا لانتساب كل منهم إلى واحد من ﴿الأَسْبَاطِ﴾ الاثني عشر، رغم أن هذا التقسيم قد تكون أو لا تكون له علاقة بالحوادث التي تذكرها تلك الآية.

ومن بعد هذا الانعطاف لدراسة هوية ﴿الأَسْبَاطِ﴾، لنعد إلى آية سورة يوسف وتفسير يعقوب لرؤيا ابنه.

إن استخدام يعقوب لعبارة ﴿آلِ يَعْقُوبَ﴾ بدل «إخوتك» في خِطابه ليوسف في الآية 6 يشير إلى أنه كان يتحدث عن كل أفراد عائلته، بما في ذلك نفسه وزوجه أيضا، ذلك أن يعقوب أدرك هوية شخوص رؤيا يوسف وأدرك بأنّها رؤيا تبشر بخير

لهم كلّهم. أي يشير يعقوب هنا إلى نعمة الله عليه وعلى زوجته وأولاده وأحفاده. لكن لاحظ كيف فصل يعقوب ذكره لنعمة الله على يوسف، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾، عن ذكره لنعمة الله على باقي أفراد عائلته، ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾، وكيف أنه بدأ بذكر نعمة الله على يوسف أولا. إن هذا يتّفق تماما مع ما كان مقدورا حدوثه لاحقا. إذ تلقى يوسف نصيبه من نعمة الله التي أشارت إليها الرؤيا، بما في ذلك نعمة النبوة، قبل أن يتلقى بقية آل يعقوب نصيبهم. حيث يبيّن سياق الآيات الكريمة بأنَّ يوسف كان نبيا منذ كان شابا يافعا على الأقل بينما لم يكن إخوانه قد أصبحوا بعد أنبياء حتى بعد سنين طويلة حين جاءوا إلى مصر طلبا للمؤَن. كما كانت نعمة الله على يوسف بإيصاله إلى مركز رفيع في السلطة في مصر هي سبب النعمة على آل يعقوب الذين أعطاهم يوسف مُؤنا حين جاءوه طلبا لها والذين انتهى بهم الأمر إلى العيش حياة طيبة في مصر. وكما سنرى لاحقا، فإن بعض النعم التي رمزت لها رؤيا يوسف سترد على لسانه في خطابه لوالده في نهاية القصة القرآنية: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، وفي دعاء شكره لله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

وللطباطبائي ملاحظة جميلة على استخدام يعقوب في خطابه ليوسف مرّتين لكلمة ﴿رَبُّكَ﴾ وليس كلمة «الله» أو «رب»: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، حيث يشير إلى أن هذا التخصيص هو للتأكيد على أن يوسف كان السبب الرئيس وراء نزول هذه النعم. ونجد مثل هذا الاستخدام لكلمة ﴿رَبُّكَ﴾ المنسوبة إلى شخص معيّن بدل اسم الجلالة أو أحد الأسماء الحسنة تأكيدا لمكانة ودور ذلك الشخص في الآية الكريمة: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: 65). فهذا هو تعليق الشيخ عطاء الله السكندري على هذه الآية:

ثم إنه سبحانه وتعالى، لم يكتف بنفي الإيمان عمن لم يحكِّم، أو حكَّم ووجد الحرج في نفسه على ما قضى، حتى أقسم على ذلك بالربوبية الخاصة برسوله صلى الله عليه وسلم، رأفة وعناية، وتخصيصا ورعاية، لأنه لم يقل: (فلا والرب)، وإنما قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[1].

أما قول يعقوب في نهاية هذه الآية من سورة يوسف ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فهو إشارة إلى أن الله علم وحكمة وراء هذا الاصطفاء ليوسف وآل يعقوب، ومن قَبْل إبراهيم وإسحق، بما شاء من النِّعَم. وتذكّر هذه الآية بقوله في موضع آخر: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (الأنعام: 124)، حيث يشير الله عز وجل إلى أنه أعلم بأسرار اختياره من يشاء لحمل رسالته.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (7)﴾.

تفيد اللام في بداية كلمة ﴿لَقَدْ﴾ للقسم، أي يُقسِم الله في هذه الآية الكريمة بأنَّه ﴿قَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾.

المقصود بعبارة ﴿فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ هو «في قصة يوسف وإخوته» التي هي إحدى قصص القرآن العظيم التي لم يكن الرسول على علم بها التي أشار إليها الله في قوله الحكيم: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾. اما كلمة ﴿آيَاتٌ﴾ فتعني «دلائل» أو «براهين».

ويعتقد معظم المفسّرين بأنَّ كلمة ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ تعني بأنَّ قوما ما أرادوا امتحان الرسول بسؤاله عن قصة يوسف. ولما لم يكن بين العرب من أهل مكة المكرَّمة، وهو مكان نزول السورة الكريمة، من يعلم عن أنبياء بني إسرائيل وأخبارهم، يرى البعض بأنَّ أولئك السائلين كانوا مُرسَلين من قبل يهود من يثرِب، فأنزل الله سورة

---

(1) ابن عطاء الله السكندري، التنوير في إسقاط التدبير، ص 14.

يوسف جوابا على سؤالهم وبرهانا على أن محمد هو رسوله حقا. من الذين ذكروا هذا التفسير الطوسي، نقلا عن الزجّاج، والقرطبي. ووفقا لهذا التفسير، فإنّ معنى كلمة ﴿آيَاتٌ﴾ هو «دلائل وبراهين على نبوة محمد». لكن ليست في القرآن أية إشارة إلى هذه التفاصيل.

ومن المرجح أن تكون كلمة ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ إشارة إلى السائلين عن الحقيقة بشكل عام، حيث في هذه القصة الرائعة من الدروس والعبر والعلم ما لا حدّ له. وفي هذه الحالة يكون معنى كلمة ﴿آيَاتٌ﴾ هو «دلائل وبراهين على إلهية القرآن» للسائل عن الحق بشكل عام وحقّانية القرآن بشكل خاص، كما تعني «دروس» و«عبر» للمؤمن بالقرآن الباحث عن العلم والدروس والمواعظ.

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8)﴾.

هنا أيضا يستخدم القرآن ﴿إِذْ﴾ لبدء سياق قصصي جديد. ويمكن تفسير استخدام ﴿إِذْ﴾ هنا بأنَّ الآية السابعة كانت اعتراضية في مجيئها وسط قصة يوسف، حيث إنها تعليق على قصة يوسف ولا تحتوي أية تفاصيل من القصة، وبالتالي جاءت العودة إلى سرد قصة يوسف بمثابة انتقال إلى سياق جديد يجدر بدؤه بكلمة ﴿إِذْ﴾. إلا أن من الممكن أيضا أن يكون الانتقال في السياق هنا أكثر عمقا من ذلك، هذا إذا كانت حادثة تَناجي إخوة يوسف التي تصفها هذه الآية وقعت بعد فترة طويلة نسبيا، تُقدَّر بالسنين، من حادثة رؤية يوسف لرؤياه. إن من المرجَّح أن فصل الآية السابقة، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾، بين رواية يوسف رؤياه لأبيه وتفسير يعقوب للرؤيا، من جهة، وباقي أحداث قصة يوسف، من جهة أخرى، هو إشارة غير مباشرة إلى وجود فاصل زمني طويل نسبيا بين حادثة الرؤيا وما يلي من حوادث القصة التي تبدأ في هذه الآية الكريمة.

إن اللام التي تسبق اسم يوسف هي لام التأكيد، وهي التي يُتَلقّى بها القسم. أي كأن تقدير قول إخوة يوسف «هو والله ليوسف.....».

وفي هذه الآية أول إشارة صريحة في السورة تفسّر نصيحة يعقوب ليوسف وتحذيره له في الآية الخامسة من حسد إخوته له: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾. إذ تبيّن هذه الآية الكريمة بأنَّ إخوة يوسف العشرة كانوا مستائين من حب أبيهم ليوسف وشقيقه أكثر من حبه لهم، بل وكانوا يظنون بأنَّ أباهم مخطئ في ذلك، وهو معنى قولهم ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. ومصدر ظن إخوة يوسف الخاطئ هو أنهم كانوا يرون أنفسهم متميّزين عن أخويهم الصغيرين الضعيفين بكونهم ﴿عُصْبَةٌ﴾، وهو مصطلح يشير إلى أنهم كانوا متكاتفين ومتعاونين على أمرهم فيما بينهم وأنهم كانوا أولي قوة.

ويرى المفسّرون بأنَّ إخوة يوسف كانوا هم المسؤولين عن توفير مستلزمات العيش من أعمال رعي وغير ذلك. ومما يرجِّح صحة هذا التفسير هو استنكار إخوة يوسف لما كانوا يرون من خطأ أبيهم في حبّه ليوسف وشقيقه أكثر من حبّه لهم، حيث كان أخواهما لايزالان صغيرا السن في ذلك الوقت، كما سنرى في آيات لاحقة، وبالتالي غير قادِرَين على القيام بما كانوا يقومون بـه هم من أعمال مهمة. لا شك أن نبي الله يعقوب كان يهتم بجميع أولاده وكان دائم الإرشاد لهم، إلا أنه كان مهتما بشكل خاص بيوسف، وبنيامين كذلك، وكما سنرى في تفسيرنا للآية القادمة.

أما استخدام إخوة يوسف العشرة لمصطلح ﴿وَأَخُوهُ﴾ فيبيّن بأنَّ يوسف وبنيامين كانا من أمٍ غير أم الإخوة العشرة.

من الواضح بأنَّ يوسف وبنيامين كانا أصغر من إخوتهم العشرة، لكن القرآن لا يذكر صراحة أيا من الشقيقين كان أكبر سناً. إلا أن احتمال أن يوسف كان أكبر سنّا من بنيامين ويبدو أكثر رجاحة.

ويبيّن تقديم إخوة يوسف ذكره على ذكر أخيه بأنَّ حب يعقوب ليوسف كان أكبر من حبّه لأخيه. من الممكن أيضا أن يعود هذا التقديم إلى أن يوسف كان أكبر سنّا من أخيه. وإذا تذكّرنا الاحتمال الراجح بأنَّ كلام إخوة يوسف هذا كان بعد سنين من رؤيته للرؤيا، فإن احتمال كون يوسف أكبر سنّا من أخيه يطرح احتمال أن

أخا يوسف لم يكن قد وُلِد بعد يوم رأى يوسف رؤياه. وإذا كان هذا الاحتمال الذي لا تمكن برهنته صحيحا، فإنه إشارة أخرى إلى أنه ما كان يمكن فهم رؤيا يوسف من دون علم تأويل الأحاديث الإلهي، إذ كان عدد إخوة يوسف في ذلك الوقت عشرة بينما عدد الكواكب التي شاهدها يوسف أحد عشر. في هذه الحالة تكون ولادة أخ آخر ليوسف خبر آخر من أخبار المستقبل جاءت به تلك الرؤيا.

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9)﴾.

تمثّل هذه الآية استمرارا للحوار الذي كان يدور بين إخوة يوسف العشرة. ويبدو من حوارهم بأنّهم كانوا قد قرّروا بأنّ حل مشكلة حبّ أبيهم ليوسف أكثر من حبّه لهم هو إبعاد يوسف عن أبيه، حيث نراهم يتدارسون خطّتين لتنفيذ ذلك هما قتل يوسف أو أخذه إلى أرض بعيدة لا يمكنه بعدها العودة إلى أبيه. يرى بعض المفسّرين بأنّ هدف الاقتراح الثاني هو أيضا قتل يوسف حيث يعني رمي يوسف في أرض مقطوعة يموت فيها، إلا أننا لا نرجّح هذا التفسير، ونرى بأنّ الهدف من ذلك هو مجرد إبعاد يوسف عن أبيه، لأنه يبدو بديلا عن الحل الأول.

وللطباطبائي ملاحظة جميلة على هذه الآية الكريمة تستحق الذكر، وهي أن إخوة يوسف العشرة كانوا في الحقيقة يوقّرون أباهم ويحبّونه، وكما يبدو واضحا من هدفهم من التخلّص من يوسف: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾. فلو لم يكن الأمر كذلك لفكروا في التخلص من أبيهم نفسه أو استضعافه. أي أنهم كانوا يريدون أن يستأثروا بحب أبيهم الذي كانوا يحبّونه ويحترمونه. في الواقع، لا توجد في سورة يوسف أية إشارة إلى عصيان إخوة يوسف العشرة لأبيهم ومحاولتهم خداعه إلا في ما يتعلّق بأمر يوسف.

كما يرى الطباطبائي بأنّ تذمّر إخوة يوسف العشرة من حب يعقوب ليوسف وأخيه وتحرّكهم لتدبير مؤامرة للتخلص من يوسف يعني بأنّ حب يعقوب ليوسف وأخيه لم يكن حب الأب لصغار أولاده. إذ لو كان الأمر كذلك لما ضرّهم ذلك

الحب كثيرا ولكان كل ما عليهم فعله هو الانتظار حتى يكبر يوسف وأخوه ليزول حب يعقوب الاستثنائي لهما. إن ملاحظة الطباطبائي هذه هي صحيحة بلا شك، إلا أننا نرى في نفس الوقت بأنَّ سورة يوسف مليئة بالإشارات الصريحة والخفيّة بأنَّ حب يعقوب ليوسف كان حبّا خاصا يختلف حتى عن حبّه لأخيه. ولنبحث هذا الموضوع ببعض التفصيل.

وحتى بعد سنين كثيرة من تخلّصهم من يوسف كان أبناء يعقوب لايزالون يعاملون بنيامين بسوء. إذ سنرى بأنَّ يعقوب كان لا يأتمن أبناءه على بنيامين: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (63) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: 63، 64)، وأنهم كانوا يسيئون معاملة أخيهم هذا: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (يوسف: 69). إن استمرار أبناء يعقوب في سوء سلوكهم هذا يعني بأنَّ يعقوب استمر في معاملة بنيامين بشكل خاص عن إخوته العشرة حتى بعد ما كبر، مما يؤكّد بأنَّ اهتمام يعقوب بابنه لم يكن سببه صغر سنّه وأنه لا بد وأن يكون قد رأى فيه ومنه ما جعله يعامله بهذه الخصوصية. وفعلا لا نجد في سورة يوسف أية إشارة إلى أن بنيامين أساء التصرّف مثلما فعل إخوته العشرة، ولذلك فإن حسن سيرته وخلقه يمكن أن يفسّر استمرار اهتمام يعقوب الخاص به منذ ولادته. إلا أن حب يعقوب ليوسف كان متميّزا حتى عن حبّه لبنيامين.

أولا: من الواضح من تعليق يعقوب على رؤيا يوسف بأنّه كان ذو علم ربّاني مكّنه من معرفة الكثير عن حقيقة يوسف وقربه من الله وما كان قد كتب الله له من خير وعن تميّزه بذلك عن باقي إخوته، لذلك فإن اهتمامه بيوسف كان اهتماما استثنائيا. لقد كان يعقوب على علم، على سبيل المثال، من رؤيا يوسف بأنَّ كل إخوته، بما فيهم أخيه الشقيق، كانوا سيسجدون له، مما يؤكّد تميّز يوسف عن إخوته. ومن دلائل أن حب يعقوب ليوسف كان فريداً هو رد فعله على ما حدث بعد سنين لاحقة حين فقد الصلة بابنه الكبير وشقيق يوسف اللذين بقيا في مصر،

وكما سنرى فيما بعد. حيث نرى يعقوب يدعو الله قائلا: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف: 83)، مستخدما كلمة ﴿جَمِيعًا﴾ للإشارة إلى يوسف وبنيامين وابنه الكبير، بينما نراه في الآية اللاحقة يتأسّف على يوسف بالذات دون أخويه الآخرين: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (يوسف: 84).

ثانيا: يبيّن القرآن بوضوح لا يقبل الشك علو مكانة يوسف على باقي إخوته. حيث نجد، مثلا، بأنَّ سورة يوسف تركّز على يوسف بالذات دون غيره من إخوته، بما في ذلك بنيامين، وأن ذكر أي من إخوته الآخرين، بما في ذلك أخيه الشقيق، يأتي في سياق رواية قصّته هو. كما أن يوسف هو النبي الوحيد من الأسباط الذي يذكره الله منفردا خارج سورة يوسف وذلك في قوله الكريم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأنعام: 84) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ (غافر: 34).

ثالثا: لاحظ أن إخوة يوسف اشتكوا في الآية الثامنة من حب يعقوب ليوسف وأخيه أكثر من حبه لهم بينما نراهم في الآية التالية يعتقدون أنَّ التخلص من يوسف فقط كفيل بإخلاء وجه أبيهم لهم؛ فلِمَ لم يفكّروا في التخلّص من بنيامين أيضا؟ إن الجواب على هذا هو أن اهتمام يعقوب بيوسف بالذات هو الذي كان يقلقهم لأنهم كانوا يرون بأنّه اهتمام يتجاوز بكثير حتى اهتمام يعقوب ببنيامين. كان إخوة يوسف يرون بأنَّ يوسف بالذات هو الحاجز بينهم وبين أبيهم ولذلك كانوا يعتقدون بأنَّ إبعاده سيؤدي إلى قربهم من أبيهم.

ولكن لِمَ أراد إخوة يوسف أن يخلو لهم وجه أبيهم؟ نجد جواب هذا السؤال في الجزء الأخير من الآية الكريمة حيث يقولون: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾. إن عبارة ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ تعني هنا «من بعد يوسف»، أي «من بعد اختفاء

يوسف»). لقد كان إخوة يوسف مؤمنين كل الإيمان بأنَّ أبيهم النبي كان مصدر بركة خاصة، وأن حبه واهتمامه بأحد ما هو مصدر صلاح وخير وبركة لذلك الشخص. لذلك فإنهم كانوا يربطون بين إبعاد يوسف عن أبيهم، وبالتالي خلو وجه أبيهم لهم، وبين أن يصبحوا ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[1].

ورغم محاولة يوسف عدم الكشف لإخوته عما أنعم عليه الله، فقد كانت تظهر عليه مظاهر البركة الخاصة التي لم يكن لإخوته حصّة منها. وظن إخوة يوسف بأنَّ قرب يوسف من أبيهم يجعله يتلقى تلك البركة منه وفي نفس الوقت يمنع تلك البركة عنهم، فتوصّلوا إلى أن إبعاد يوسف عن يعقوب كفيل بأن يجعلهم يتلقّون البركة من أبيهم. لقد فشل إخوة يوسف في إدراك أن اهتمام يعقوب الخاص بيوسف إنما يعود إلى ما كان يرى فيه مما لم يكونوا قادرين على رؤيته وأنهم ما كان لهم أن يحصلوا على نفس معاملة يعقوب ليوسف حتى لو لم يكن يوسف موجوداً. فالبركة التي كان الله قد كتبها ليوسف ما كانت لتذهب إلى أحد سواه حتى وإن عاش قريبا مكانا من يعقوب كقرب يوسف، وهو أمر كان إخوة يوسف سيدركونه لاحقا حين يبعدوا يوسف عن أبيه. لقد قرّب يعقوب يوسف منه مكانيا لأنه كان أصلا قريبا منه روحيا وليس العكس.

---

(1) إن تفسيرنا هذا لقوله ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ يخالف التفسير الذي يجمع عليه المفسّرون، كالطبري والطوسي والقرطبي وابن كثير والجلالين والطباطبائي. فوفقا للتفسير التقليدي فإن عبارة ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ تعني «من بعد ذنب إبعاد يوسف»، فيما تشير كلمة ﴿صَالِحِينَ﴾ إلى توبة إخوة يوسف من ذنبهم. أي كأن إخوة يوسف قالوا «لنرتكب الآن ذنب إبعاد يوسف ونتوب من بعد ذلك ونصبح قوما صالحين». إلا أن من عيوب هذا التفسير هو إغفاله لأي دور لقوله: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾، أي كأن نص الآية الكريمة هو «اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا فتكونوا من بعده قوما صالحين». إن هذا التفسير يجعل «خلو وجه أبيهم» ليس بذي معنى خاص في سياق الآية الكريمة، بينما الحقيقة هي أن عبارة ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ تؤكّد بأنَّ إخوة يوسف أرادوا الاستئثار بأبيهم لكي يكتسبوا منه ما كان يكتسبه يوسف من البركة، وكما بيّنّا في تفسيرنا اعلاه.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ (10)﴾.

اختلف المفسّرون في هوية الذي اقترح إلقاء يوسف في الجب بدل قتله. فهنالك من قال بأنّه كان «يهوذا» وآخر «شمعون» وثالث «لاوي» ورابع «روبيل» وخامس «كبيرهم». ويبدو الرأي الاخير تخمين مبني على الآية 80 التي نرى فيها أكبر إخوة يوسف في موقف حميد وهو يرفض مغادرة مصر بدون صحبة شقيق يوسف إلا أن يأذن له أبوه أو ييسّر الله أمرا: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (يوسف: 80). إلا أن الحقيقة هي أن كل تخمينات المفسّرين بشأن اسم صاحب اقتراح إلقاء يوسف في الجب، والتي تستخدم أسماء إخوة يوسف في العهد القديم، ليس لها أساس في القرآن العظيم وتعكس ما أشرنا إليه في القسم 1-3 حول النزعة الشائعة بين الكثير من المفسّرين في الخروج في تفاسيرهم عن النص القرآني والاعتماد على روايات مختلفة المصادر كالعهد القديم.

إنّ الاقتراح الذي ورد في الآية 10 هو رد على الاقتراحين الواردين في الآية 9. ففي الآية 9 طُرِحَ حلان، أولهما قتل يوسف والثاني جعله يتيه في الأرض بعيداً عن أبيه: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾. أما صاحب الاقتراح في الآية 10 فيرد على الاقتراح الأول في الآية 9 بقوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾، ثم يعرض خطة لتطبيق الاقتراح الثاني في الآية 9 القاضي بطرح يوسف أرضا وذلك بقوله: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾. يقول صاحبا تفسير الجلالين في تفسيرهما للآية 15 بأنَّ إخوة يوسف أرادوا قتله بإلقائه في ﴿غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾، إلا أن خطأ هذا التفسير واضح.

وتعني كلمة ﴿غَيَابَةِ﴾، والتي لها نفس الجذر اللغوي لكلمة ﴿الْغَيْبِ﴾ التي قابلناها في الآية 3، بشكل عام المكان الذي يغيب فيه الشيء عن النظر، لذلك فإن

﴿غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ يعني «قعر البئر». وقد أشار بعض المفسّرين إلى أن من الممكن أن تكون أداة التعريف في بداية كلمة ﴿الْجُبِّ﴾ إشارة إلى بئر معينة بالذات، هذا إذا لم تكن اللام للجنس. إن دراسة اقتراح إلقاء يوسف في غيابة الجب تبيّن بأنَّ صاحب الاقتراح كان يتحدّث عن بئر معيّنة فعلا. فمن الواضح، مثلا أنه كان يتحدّث عن بئر غير مملوءة بالماء بحيث لا يغرق فيها يوسف، حيث إنه اعترض على قتل يوسف: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾. كما أن قوله ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ يشير إلى وقوع البئر على طريق يسلكه المسافرون بشكل مستمر بحيث لا بد وأن يجد بعضهم يوسف عندما يستعملون البئر قبل أن يهلك نتيجة للجوع أو البرد. كما من الواضح أن البئر المقصودة لم تكن على طريق قوافل تمر بمنطقة سكن يعقوب.

إن كلمة ﴿السَّيَّارَةِ﴾ تعني «مسافرين» وهي مُشتقّة من «سير» الذي يعني «تحرّك»، «انتقال»، «سفر» ...الخ. واقترح بعض المفسّرين بأنَّ تعبير ﴿سَيَّارَةٌ﴾ يعني قافلة من المشاة. وقد يؤيّد هذا الرأي استخدام القرآن العظيم لتعبير مختلف هو ﴿الْعِيرُ﴾ في الإشارة إلى قوافل العير في آيات أخرى من سورة يوسف (70، 82، 94).

وأشار القرطبي إلى أن وضع يوسف في طريق سيّارة كان سيوفّر على إخوته مشقة السفر به إلى أرض بعيدة عن مكان أبيه وباقي أهله لكي يضيّعوه فيها، إذ إن السيّارة هم الذين كانوا سيتكفّلون بذلك. لكن من المهم ملاحظة أن إخوة يوسف ما كانوا سيستطيعون أساسا إقناع أبيهم بأخذ يوسف في رحلة طويلة بعيدا عن بيته. بل إن يعقوب أذن لأبنائه باصطحاب يوسف معهم لبضع ساعات فقط، كما سنرى لاحقا.

ولكن إذا كان إخوة يوسف يريدون التخلّص منه بجعل بعض المسافرين يأخذونه معهم إلى أرض بعيدة لِمَ اقترح أحدهم على إخوته أن يلقوه في البئر بحيث يلتقطه بعض السيارة من هنالك؟ أي لِمَ لَمْ يعطوه أو يبيعوه هم إلى بعض المسافرين؟ إن الجواب هو أن من المؤكّد أن يوسف كان سيقاوم مثل هذه المؤامرة وسيتحدّث أمام من يريد أن يبيعوه له ويفضح إخوته، وهو أمر كان سيفشل خطّتهم

بل وربما يوقعهم في مأزق. فإلقاء يوسف في بئر كان سيجنّبهم مثل هذه المشاكل، بالإضافة إلى أن منظر طفل صغير مُلقى في قاع بئر كان من المؤكد أن يجبر من يجده على أن يأخذه معه، إذا لم يكن لإنقاذه من الهلاك في البئر فحتما لاتّخاذه عبدا، كما حصل فعلا.

وأنهى المتحدّث من إخوة يوسف قوله بعبارة ﴿إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ التي تحثّ إخوته على الأخذ باقتراحه إذا كانوا سيكيدون ليوسف.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11)﴾.

إن توقّف الحوار بين إخوة يوسف عند اقتراح أحدهم إلقاءه في ﴿غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ يشير ضمنيا إلى أنهم اتفقوا على ذلك الاقتراح. وفعلا نراهم بعد ذلك في هذه الآية الكريمة منشغلين بمحاولة إقناع أبيهم بأن يتركهم يصطحبوا يوسف معهم.

من الواضح من قول أبناء يعقوب لأبيهم ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ بأنهم كانوا يعرفون توقّع أباهم شرّا منهم تجاه يوسف ولذلك فإنه لم يكن يتركه في صحبتهم. فلجأوا إلى محاولة إقناع أبيهم بليّن الكلام، وهو ما يشير إليه بدء خطابهم لأبيهم بعبارة ﴿يَا أَبَانَا﴾، كما يلاحظ الطباطبائي. ثم أتبعوا عبارتهم تلك بعتاب رقيق له على عدم ائتمانه لهم على يوسف: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾، رغبة في إقناعه بالسماح لهم باصطحابه معهم، متبعين عتابهم ذلك بتأكيدهم لأبيهم بأنّهم لا يريدون ليوسف إلا الخير: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12)﴾.

هنا يصل إخوة يوسف إلى مرادهم من خطابهم لأبيهم ليصرّحوا بما كانوا يبغون، وهو أن يرسل معهم يوسف. فبعد أن أكّدوا له في الآية السابقة بأنّهم جديرون بأن يأمنهم على يوسف وأنهم لن يكونوا إلا مصدر خير له، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾، أخذوا بمحاولة طمأنة أبيهم على أنهم قادرون على حفظ يوسف من أي أذى خارجي أيضا، وهو معنى قولهم ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

ومن الجدير ملاحَظة الذريعة التي لجأ إليها إخوة يوسف لإقناع أبيهم بإرسال

يوسف معهم. حيث ادّعوا بأنَّهم أرادوا أن يأخذوا أخاهم معهم كي ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾. ويعني الفعل ﴿يَرْتَعْ﴾ ينبسط ويتحرك بحرية في مكان المرعى، ويبدو أنهم كانوا يشيرون إلى اصطحابهم ليوسف إلى حيث كانوا يرعون ماشيتهم. من الواضح من هذه الذريعة أن يوسف كان صغير السن، وهو استنتاج يتفق مع طلب إخوته في الآية السابقة من أبيهم أن «يأمنهم» على يوسف وتصريحهم بأنَّهم «سيحافظون» عليه.

من الشائع تفسير كلمة ﴿غَدًا﴾ في هذه الآية الكريمة على أنها تعني «اليوم التالي». إلا أن هنالك أكثر من سبب للتشكيك في أن يكون إخوة يوسف قد حدّدوا في طلبهم لأبيهم «اليوم التالي» لاصطحاب أخيهم معهم. **أولا:** كان هدف إخوة يوسف من أخذ يوسف معهم هو طرحه أرضا، وهو أمر كان يمكن أن يقوموا به في أي يوم يسمح لهم فيه أبيهم باصطحاب يوسف معهم، حيث من المؤكَّد أنّهم كانوا يخرجون للرعي في كل يوم. **ثانيا:** كان إخوة يوسف يعلمون بأنَّهم أمام مهمّة صعبة لإقناع أبيهم بالسماح لهم بأخذ يوسف معهم وأنهم كانوا سيضطرون إلى التحدّث إليه عدة مرات حول الأمر قبل أن يوافق، هذا إذا كان يمكن أن يوافق أصلا، لذلك فمن غير الممكن أنهم حين فاتحوه بالموضوع طلبوا منه اصطحاب أخيهم معهم في اليوم التالي. **ثالثا:** إن حجة إخوة يوسف في طلبهم أخذه معهم كانت لكي ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ ولذلك فإن تحديدهم ليوم معيّن لذلك، ناهيك عن «اليوم التالي»، كان سيجعل أباهم يشكّ في نيّتهم، خصوصا وأنهم كانوا يخرجون للرعي في كل يوم. فإذا أضفنا إلى كل ذلك أن إخوة يوسف كانوا حريصون كل الحرص على أن لا يثيروا شكوك أبيهم وعلى أن يكسبوا ثقته ليوافق على طلبهم فمن المؤكّد أنّهم لم يحدّدوا «اليوم التالي» وقتا لاصطحاب أخيهم معهم. لا بد أن يكون لكلمة ﴿غَدًا﴾ معنى آخر غير «اليوم التالي».

إن تفسيرنا لكلمة ﴿غَدًا﴾ في هذه الآية الكريمة هو أنها تشير إلى وقت الغَداة من اليوم، أي أول النهار. لكلمة ﴿غَدًا﴾ نفس الجذر اللغوي لكلمة ﴿غَدَاة﴾ التي ترد في القرآن العظيم بصيغة الجمع أيضا، ﴿غُدُو﴾، وكما في هاتين الآيتين

الكريمتين على سبيل المثال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف: 28)، ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف: 205). أما سبب طَلَب إخوة يوسف من أبيهم إرساله معهم «أول النهار» فمن المرجَّح هو وقوع الحادثة المذكورة في وقت صيف حيث يبدأ الجو في التحول تدريجيا إلى الحر الشديد مع صعود الشمس إلى كبد السماء. ولكي يوافق يعقوب على ذهاب يوسف معهم، اقترح إخوته على أبيهم أن يأخذوا يوسف ليرتع ويلعب معهم في ساعات النهار الأولى، مما يعني ضمنيا بأنَّ أحدهم كان سيقوم بإعادته إلى البيت قبل اشتداد حر النهار. أي استخدم أبناء يعقوب كلمة ﴿غَدًا﴾ لإقناعه بالسماح لهم بأخذ يوسف وليس لتحديد يوم ذهابهم به.

سنعود إلى مناقشة ضرورة فهم كلمة ﴿غَدًا﴾ بمعنى «أول النهار» عندما ندرس في الفصل القادم ورود كلمة ﴿عِشَاءً﴾ في الآية 16: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (13)﴾.

كان أول رد ليعقوب على طلب أبنائه بأن يرسل معهم يوسف كي ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ هو قوله بأنَّ أخذهم له يجعله حزينا. رأى الكثير من المفسّرين بأنَّ المقصود من هذا هو أن حب يعقوب ليوسف كان من الشدة بأنّه لم يكن يريد أن يبعده أحد عنه وأن مفارقته كانت تصيبه بالحزن. إلا أن هذا التفسير يبدو ركيكا لتصويره يعقوب في صورة المتعلّق بشدّة بيوسف إلى حد أنه لا يستطيع فراقه حتى لبضعة ساعات! لكن الاعتراض الأهم على ذلك التفسير هو عدم تأييد الآية الكريمة له. لاحظ أن يعقوب لم يقل بأنّه يحزنه «مفارقة يوسف»، لكي يمكن تبرير ذلك التفسير، وإنما قال بأنّه يحزنه «ذهاب إخوته به». لقد كان يعقوب عالما بما يكنّه

إخوة يوسف من عداء له، ولذلك كان يحزنه أن يتركه في أيديهم بعيدا عن ناظريه خشية أن يسيئوا معاملته.

لم يصرّح يعقوب لأبنائه عمّا كان يعرف ويعرفون من سبب حزنه على ذهاب يوسف معهم. ربما لأنه كان يأمل بأن تتغير مشاعر أبنائه العدوانية تجاه يوسف ولذلك فإن تصريحه بشكّه فيهم كان سيوطّن تلك المشاعر ويؤكّدها. ففضّل يعقوب بأن يُتبع قوله ذلك بالإشارة إلى خوفه على يوسف من أن يأكله الذئب بينما إخوته غافلون عنه.

ويعكس جواب يعقوب جهوده لتغيير مشاعر أبنائه تجاه يوسف. إذ إنه لم يُمْسِك عن اتهامهم صراحة بأنَّهم مصدر خطر على يوسف فحسب، بل ذهب إلى حد الإيحاء ضمنيا باعتقاده بأنَّهم كانوا بالتأكيد سيدافعون عن أخيهم إذا تعرض للخطر وأنهم ما كانوا ليتركوه يتعرض للخطر إلا «غفلة لا قصدا».

تجدر هنا ملاحظة أن خوف يعقوب على يوسف من أن يأكله الذئب في غفلة إخوته عنه إشارة أخرى إلى صغر سن يوسف حينئذ.

إن اللام التي تسبق كلمة ﴿الذِّئْبُ﴾ هي لام الجنس لا لام التعريف، أي أن المقصود ذئبا ما وليس ذئبا معينا. ويبدو من هذا السياق بأنَّ الذئاب كانت تتردَّد على المكان الذي دأب أبناء يوسف على الرعي فيه.

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (14)﴾.

بغية إقناع أبيهم بالسماح لهم باصطحاب أخيهم رَدَّ إخوة يوسف على توجّس أبيهم بالقسم بأنَّه إذا أكله الذئب رغم كونهم جماعة فإنهم إذا فرقة عاجزة لا نفع فيها. أي كأنهم يقولون بما أنهم ليسوا بجماعة عاجزة لا حول لها فإنه لا يمكن للذئب أن يأكل يوسف، وذلك حثّا لأبيهم على السماح لهم باصطحاب يوسف معهم.

بينما تصدّر إخوة يوسف للدفاع عن أنفسهم مما يمكن أن يعنيه قول أبيهم ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾، فإنّهم لم يعلّقوا على قوله الأول: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ

تَذْهَبُوا بِهِ﴾. ويؤكّد إحجامهم عن التعليق على قول أبيهم هذا ما أشرنا إليه أعلاه من أن ظاهر قول يعقوب لا يكشف صراحة بأنَّ حزنه على فراق يوسف كان بسبب ذهابه مع إخوته، إذ كان حريصا على مساعدة أبنائه على التخلّص من مشاعر السوء التي كانوا يكنّوها لأخيهم.

4

يوسف في طريقه إلى مصر

يتناول هذا الفصل قصة يوسف منذ ذهاب إخوته به من بيت أبيه لكي يجعلوه يتيه في الأرض وإلى حين دخوله مصر.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (15)﴾.

يعني قوله تعالى ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ بأنَّ إخوة يوسف أخذوه معهم. وبينما تخلو الآية من تصريح فيما إذا كان ذلك قد حدث بموافقة يعقوب أم لا فإن هنالك ثلاث إشارات إلى حدوثه بموافقة يعقوب. أولا: إن سَرْد حدث أخذهم ليوسف بعد آية كانت فيها الكلمة الأخيرة في الحوار بين يعقوب وأبنائه، لهم وهم يحاولون إقناعه، وهي قولهم ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾، يعني ضمنيا بأنَّهم أخذوه بموافقة أبيهم. **ثانيا**، حين أخبروا إخوة يوسف أبيهم بأنَّ الذئب أكل أخاهم لا نجد في ردّه في آية 18 ما يشير إلى أنه لم يكن يعلم بأنَّهم قد أخذوه. **ثالثا**، حين طلب أولاد يعقوب منه أن يرسل بنيامين معهم إلى مصر فإنه ذكَّرَهم بأنَّه «آمنهم» على يوسف سابقا إلا أنهم خانوا الأمانة: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: 64)، مما يؤكّد ذِهابهم بيوسف بموافقته. لاحظ بأنَّ الفعل ﴿آمَنُكُمْ﴾ هو نفس الفعل الذي ورد في خطاب إخوة يوسف لأبيهم ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾.

لقد رأينا بأنَّ يعقوب كان يعلم بأنَّ إخوة يوسف كانوا يريدون شرّا بأخيهم، فلم

إذاً وافق على ذهابهم به؟ إن الجواب على هذا ذو شقّين، يمكن أن نصفهما بالظاهري والحقيقي، ولنبدأ بظاهر الأمر. شاهدنا في دراستنا للآية الكريمة: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ بأنَّ يعقوب كان حريصا على تغيير موقف أبنائه من يوسف إلى حد أنه لم يُرِد أن يقول لهم صراحة بأنّه كان يرى بأنَّهم يمكن أن يكونوا مصدر سوء يصيب أخاهم يوسف وفضّل نسب أي سوء محتمل الوقوع له إلى مصدر خارجي، أي الذئب. يبدو أن يعقوب فكّر بأنَّ اصطحاب إخوة يوسف له يمكن أن يحسّن شعورهم نحوه، ولذلك سمح لهم بأخذه إلى حيث ادّعوا بأنّه يستطيع أن ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾. ويجب أن لا ننسى هنا أن الآية الكريمة ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ لا تشير إلى حوار دار في يوم ما بين يعقوب وأبنائه وانتهى بأن سمح لهم باصطحاب يوسف في اليوم التالي كما يخيّل للكثيرين بسبب من سوء فهمهم لكلمة ﴿غَدًا﴾ على أنها تعني «اليوم التالي» بينما تشير في الواقع إلى «أول النهار». تشير هذه الآية الكريمة إلى الحجّة التي تذرّع بها إخوة يوسف لإقناع أبيهم بالسماح لهم بأخذه معهم، وهي حجة لا بد وأنّهم تذرّعوا بها في نقاشهم معه على مر أيام عديدة حتى استجاب لمطلبهم بحسن نيّة.

ولكن قد لا يكون حرص يعقوب على تغيير مشاعر أبنائه تجاه يوسف تفسيرا كافيا للمجازفة الكبيرة التي قام بها بسماحه لهم بأخذ أخيهم معهم. وهذا يأخذنا من التفسير الظاهري إلى التفسير الحقيقي على موافقته على طلب أبنائه. لقد جاء أمر الله بحصول ما كان سيحصل من قصة يوسف وما كان سيوقفه حذر حاذر أو تدخّل متدخّل، فكان لا بد ليعقوب من أن يوافق أخيرا على طلب أبنائه باصطحاب يوسف معهم.

ويشير الفعل ﴿وَأَجْمَعُوا﴾ في قوله تعالى ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ إلى اتفاق جميع إخوة يوسف على وضعه في قاع البئر. وهذا يتّفق مع ما أشرنا إليه في بداية تفسيرنا للآية 11 بأنَّ انتهاء الحوار بينهم حول كيفية التخلص من يوسف بالآية الكريمة التالية يعني بأنّهم وافقوا جميعا على تلك الخطة: ﴿قَالَ

قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾. لاحظ توضيح الفعل ﴿يَجْعَلُوهُ﴾ بأنَّ إخوة يوسف لم يبغوا من وضعه في البئر قتله وإنما فقط تركه ليلتقطه بعض المارّة. إذ كما سبق وأن ذكرنا فإن الاقتراح الذي حظي بموافقتهم جميعا كان عدم قتل يوسف وإنما جعله يتيه في الأرض بعيدا عن أرض أبيه.

ومن بعد أن جعل أبناء يعقوب أخاهم يوسف في قاع البئر، أوحى الله تعالى إلى عبده يوسف: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي أنه أخبر يوسف بأنّه سيأتي يوم يخبر فيه إخوانه عن مكرهم هذا بحيث يكون الخبر بمثابة مفاجأة كاملة لهم. وهذا فعلا ما حدث بعد سنين في مصر، حيث تخبرنا الآيتان 89-90 كيف ذكّر يوسف إخوته بما فعلوه من سوء تجاهه بينما كانوا هم في غفلة تامة بأنَّ الذي كانوا يزورونه ويتحدّثون إليه منذ زمان ليس سوى أخاهم الذي ألقوه في غيابة الجب سنين قبل ذلك: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (89) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّـهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف 89، 90). كان في وحي الله لعبده الطفل الصغير يوسف وهو في محنته العظيمة تلك حنانا وعطفا ورحمة كبرى. كانت مواساة الله ليوسف أكبر من أي شيء يمكن أن يواسيه به بشر بما في ذلك أبوه يعقوب الذي افتقده يوسف حين أدرك ما كان إخوانه بصدد فعله به[1].

---

(1) لاحظ بعض المفسّرين غياب جواب «لَمَّا» من هذه الآية الكريمة، فكأنما قال الله: «وعندما ذهب إخوة يوسف به واتفقوا على وضعه في غيابة البئر»، ثم لم يكمل ما حدث وإنما تحوّل إلى الحديث عن وحيه ليوسف. وللمفسّرين آراء في سبب حذف جواب «لَمَّا» من هذه الآية الكريمة. فهذا مثلا ما يقوله الطباطبائي:

حُذِف جواب ﴿لَمَّا﴾ للدلالة على فجاعة الأمر وفظاعته، وهي صنعة شائعة في الكلام. ترى المتكلم يصف أمرا فظيعا كقتل فجيع يحترق به القلب ولا يطيقه السمع فيشرع في بيان أسبابه والأحوال التي تؤدي إليه فيجري في وصفه، حتى إذا بلغ نفس الحادثة، سكت سكوتا =

=

عميقا ثم وصف ما بعد القتل من الحوادث فيدل بذلك على أن صفة القتل بلغت من الفجاعة مبلغا لا يسع المتكلم أن يصرح به ولا يطيق السامع أن يسمعه. فكأن الذي يصف القصة - عز اسمه - لما قال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ سكت مليا وأمسك عن ذكر ما فعلوا به أسى وأسفا لأن السمع لا يطيق وعي ما فعلوا بهذا الطفل المعصوم المظلوم النبي ابن الأنبياء ولم يأت بجرم يستحق به شيئا مما ارتكبوه فيه وهم إخوته وهم يعلمون مبلغ حب أبيه النبي الكريم يعقوب [له].

أما الطوسي فيرى بأنَّ تقدير جواب ﴿لَمَّا﴾ المحذوف هو «عظمت فتنتهم أو كبر ما قصدوا له». كما أنه يشير إلى رأي للغويّي الكوفة الذين يرون بأنَّ الواو في ﴿وَأَجْمَعُوا﴾ مُقحَمة، وأن معنى القول هو «أجمعوا أن يجعلوه»، وهو رأي لم يجزه لغويّو البصرة. والطبري هو أحد المفسّرين الذين أخذوا برأي لغويّي الكوفة. ويعتقد صاحبا تفسير الجلالين بأنَّ حذف جواب ﴿لَمَّا﴾ يعني أنهم قاموا بالفعل.

ويذكر القرطبي رأيا للبعض بأنَّ جواب ﴿لَمَّا﴾ هو عبارة ﴿قَالُوا يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ التي سنتطرق إليها في الآية 17، ويشير إلى أنه وفقا لمذهب اللغويين البصريين فإن تقدير جواب ﴿لَمَّا﴾ هو «جعلوه فيها». كما يذكر رأي اللغويين الكوفيين في أن الواو مُقحَمة وإن كان يشير بذلك إلى الواو في ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ لا تلك في ﴿وَأَجْمَعُوا﴾. ويشير القرطبي إلى أن الكوفيين يرون بأنَّ الواو يمكن أن تُزاد مع ﴿لَمَّا﴾ و﴿حَتَّى﴾، ويورد بعض الأمثلة من كتاب الله العزيز كقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر: 73) حيث يشير إلى أن الواو في ﴿وَفُتِحَتْ﴾ هي زائدة وأن التقدير هو «فُتِحَتْ»، وكما في الآية الشبيهة التالية من نفس السورة: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (الزمر: 71). وكمثال آخر على دخول واو زائدة على جواب ﴿لَمَّا﴾ يذكر القرطبي الآيتين الكريمتين 103 و104 من سورة الصّافات مبيّنا بأنَّ كلمة ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾ هي بمثابة «نَادَيْنَاهُ»: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103). وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104). قَد صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الصافّات: 105).

هنالك العديد من الآيات الكريمة، التي لم نستشهد سوى بعدد قليل منها، التي تحتوي على ظاهرة اختفاء جواب ﴿لَمَّا﴾ و﴿حَتَّى﴾. لذلك فإن تفسيرا مثل ذلك الذي يطرحه الطباطبائي

=

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (16)﴾.

وعاد إخوة يوسف عشاءً إلى أبيهم وهم يتظاهرون بالبكاء على أخيهم الذي تركوه في أعماق البئر. إن وصف الله لعودة إخوة يوسف ﴿عِشَاءً﴾ يؤكّد تفسيرنا لمعنى كلمة ﴿غَدًا﴾ في الآية 12 بأنّه «وقت الصباح». أي أنه يخبرنا هنا بأنّه من بعد أن خرج إخوة يوسف معه في الصباح الباكر عادوا بدونه وقت العشاء.

ويعتقد القرطبي بأنَّ اختيار إخوة يوسف العودة بعد انقضاء النهار كان لتسهيل اختلاقهم العذر لأبيهم حيث لا تستبين الوجوه في عتمة الليل. ولكن حتى إذا كان ذلك صحيحا فلا بد أنهم قدّموا لأبيهم تبريرا آخر لعودتهم متأخرين. إذ يجب أن لا ننسى من الآية 12 بأنّ خروج يوسف معهم كان في أول ساعات النهار في وقت صيف، مما يعني بأنّهم لم يعودوا إلا حوالي 10–12 ساعة بعد الوقت الذي كان من المفروض أن يعيدوا فيه يوسف إلى البيت، أي قبل صعود الشمس في قلب

=

يبدو غير مرجحا لأنّه يحاول أن يفسّر غياب جواب ﴿لَمَّا﴾ وكأنه ظاهرة خاصة بتلك الآية بالذات من سورة يوسف لا كظاهرة لغوية قرآنية تظهر في مواضع عديدة من كتاب الله.

إن التفسير الذي يبدو لنا أكثر قبولا هو رأي مدرسة الكوفة اللغوية بأنَّ جواب ﴿لَمَّا﴾ أو ﴿حَتَّى﴾ ليس بغائبا من تلك الآيات الكريمة وإنما يبدو كذلك لدخول واو زائدة على الجواب أخْفَته. وفي حالة آية سورة يوسف مدار البحث، فإن الواو الزائدة يمكن أن تكون تلك التي في ﴿وَأَجْمَعُوا﴾ أو التي في ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾. ويبدو الاحتمال الأخير هو الأرجح لأنه يعني الفصل بين أفعال إخوة يوسف التي يصفها قوله الكريم: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾، وبين فعل الله الموصوف بالقول الكريم: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وبالتالي يعني بأنَّ فعل الله هو جواب ﴿لَمَّا﴾ وبمثابة رد على أفعال إخوة يوسف. أما سبب دخول الواو الزائدة فيمكن أن يكون للتأكيد على الفعل ﴿أَوْحَيْنَا﴾ وبالتالي التأكيد على فعل الله.

السماء واشتداد الحر. ولما كان إخوة يوسف مهتمين بالتظاهر بحرصهم عليه وحزنهم على فقدانه، فإن هذا كان سيستدعي إبلاغهم أبيهم بخبر موته بعد تيقّنهم من ذلك مباشرة. فما كانت حجتهم في العودة متأخّرين؟

سنراهم في الآيتين القادمتين يدّعون كذبا بأنَّ الذئب أكله وأنهم لم يجدوا سوى قميصه الملطَّخ بالدماء، وهذا يقودنا إلى الاستنتاج بأنَّهم ادّعوا أنَّ تأخرهم في الرجوع كان بسبب استمرارهم في البحث عن يوسف أو جثته حتى هبط الليل.

ومن المرجَّح أيضا أن إخوة يوسف فكّروا بأنَّ العودة عشاءً يمكن أن تساعدهم بشكل آخر في التغطية على كذبهم. إذ لو أبلغوا أباهم بما حدث ليوسف وقت النهار فمن المحتّم أنّه كان سيأمرهم بأن يأخذوه إلى حيث تركوا يوسف أو وجدوا قميصه، وطبعا ليس هنالك أي أثر يؤيد ما يدّعون من أحداث. ولكنهم ضمنوا بعودتهم ليلا بأنَّه لن يستطيع أن يزور المكان قبل الصباح التالي، إذ إن عدم عثوره في الصباح على أثر يؤكد مزاعمهم ما كان سيشكّل مشكلة لهم، لأنهم يمكن أن يدّعوا بأنَّ وحوش الليل أو الظروف الجوية أزالت كل أثر ليوسف. وفعلا نرى في الآية 18 علم يعقوب بعدم جدوى الذهاب للبحث عن يوسف فكان رد فعله الوحيد على خبر فقدان ابنه هو توكيل الأمر إلى الله.

من المؤكّد أن البئر التي اختارها إخوة يوسف كانت بعيدة بشكل كاف عن مكان سكنهم ليضمنوا عدم عودة يوسف إلى بيت أبيه إذا ما حاول من يعثر عليه إعادته إلى أهله بدل أخذه معه. وهذا أيضا يمكن أن يكون سببا اضطرّهم إلى عدم العودة قبل الليل.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17)﴾.

بدأ إخوة يوسف خطابهم لأبيهم بعبارة ﴿يَا أَبَانَا﴾ لخلق جو من الود علّه يساعد في إقناعه بما كانوا سيقصّون عليه من أحداث أليمة.

يهدف استخدام إخوة يوسف لعبارة ﴿ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾[1] بدل الفعل «استبقنا» إلى التأكيد على أن سباقهم تضمّن الذهاب إلى مسافة بعيدة نسبيا عن مكان الانطلاق. وكان تلفيقهم لادّعاء الاستباق لتبرير تركهم يوسف لوحده مع أمتعتهم، فمن البديهي أنهم ما كانوا يستطيعون إشراك يوسف الطفل الصغير في مثل هذه الفعالية. أما قَرْنهم ادّعاء انشغالهم عن يوسف بالسباق بادعاء أكل الذئب له فمقصود لما ذكره يعقوب عن خوفه من إرسال يوسف مع إخوته: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾. أي أنهم ظنّوا بأنَّ هذا العذر كان سيكون له حظ أكبر في جعل أبيهم يصدّقه لأنّه كان قد أقرّ بوجود هكذا خطر، اذ جهلوا بأنَّ أباهم ذكر الذئب تجنّبا منه لذكر الخطر الحقيقي الذي هو همه.

ومن الواضح أيضا من كيد إخوة يوسف أنهم أرادوا أن يقنعوا أباهم بموت يوسف وليس مجرّد ضياعه لأن فقدانه ما كان سيجعل أباهم ينساه وهو هدف مكرهم.

وتعني كلمة ﴿بِمُؤْمِنٍ﴾ في الآية الكريمة «بمصدّق». ومعنى قول إخوة يوسف لأبيهم ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ هو «وما أنت بمصدّق ما نقول حتى إن كنّا صادقين». فهم يؤكدون صدق قصّتهم بتذكير أبيهم بأنَّه إن كان لا يصدّقهم فسبب ذلك شكّه الدائم فيهم بغض النظر عن مدى صدقهم في مقالهم. أي أنهم

---

(1) بالإضافة إلى وروده في هذه الآية الكريمة، ورد الفعل ﴿نَسْتَبِقُ﴾ أربع مرات أخرى في القرآن العظيم، مرّتان في عبارة ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة: 148؛ المائدة: 48)، ومرة في عبارة ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ (يوسف: 25)، ومرة في عبارة ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ (يس: 66). من الواضح أن معنى الفعل في كل هذه الآيات الكريمة هو «التسابق» أي «تكلّف السباق». إلا أن هنالك فرقا مهمّاً بين استخدام الفعل في الآية 17 من سورة يوسف واستخدامه في المواقع الاربعة الأخرى، ذلك أنه جاء في الحالة الأولى من غير مفعول به. وتفسيرنا لهذا هو أن فعل الاستباق في الآية مدار البحث يشير إلى تكلّف السباق من أجل التسابق فحسب لا لأجل حاجة معينة، مما يفسّر غياب أي مفعول به. أي ادعى إخوة يوسف بأنّهم ذهبوا للتسابق مع بعضهم البعض.

هدفوا إلى تشكيك يعقوب في ما كان سيجول في نفسه من شك حول ما ادّعوه عن يوسف، وبالتالي جعله يصدّق روايتهم.

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18)﴾.

جاء إخوة يوسف إلى أبيهم بقميصه من بعد أن لطّخوه بدم غير دمه كدليل على أكل الذئب له. وتكشف الخطة التي اتّبعوها لخداع أبيهم عن سوء تقديرهم لعلم هذا النبي الذي أنعم الله عليه بعلم تأويل الأحاديث وجعله يقرأ في إشارات بسيطة حوادث الحاضر والمستقبل، كما في تفسيره لرؤيا يوسف. فكيف يصدّق يعقوب قول أبنائه عن وفاة يوسف وقد علم عن المستقبل المبارك لابنه وأهله أجمعين من خلال رؤيا يوسف ومن خلال ما فتح الله عليه مما شاء من أبواب العلم؟ وسنرى فعلا يعقوب لاحقا وهو يرد على منتقديه لعدم يأسه من العثور على يوسف بعد سنين طويلة من اختفائه بقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِن اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: 86).

ومما يكشف عن مدى سوء تقدير أبناء يعقوب لما أنعم الله على أبيهم من علم وقدرات خارقة هو أن يعقوب كان مكتوب له يوما، بعد سنين طويلة من اختفاء يوسف، أن يشم من على بعد مسافة هائلة رائحة ابنه في قميص أرسله إليه: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتْ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِي﴾ (يوسف: 94). إن صاحب هذه النعمة الإلهية كان بلا شك قادرا على أن يعرف بأنَّ الدم على قميص يوسف لم يكن دم ابنه.

وفعلا نجد أول جواب لسيدنا يعقوب على ادعاءات أبنائه هو: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، والذي يعني: «بل إن ما حدث هو تزيين أنفسكم أمرا سيئا لكم». وهذا اتّهام مباشر من يعقوب لأبنائه بأنَّهم قد دبّروا مكيدة ما ليوسف وأن وصفهم لما حدث ليس له أساس من الصحة.

أما قول يعقوب ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فيشير إلى رد فعله على ما حدث. والصبر الجميل هو «الذي لا شكوى معه»، كما فسّره الرسول. ويبدو من هذا أن كلمتي

﴿جَمِيلٌ﴾ و«كامل»، وبالتالي «جمال» و«كمال»، لهما نفس الأصل اللغوي. فالصبر الجميل إذاً هو الصبر الكامل، والشيء لا يكون كاملا إلا إذا خلا من كل عيب، والذي يعيب الصبر هو الشكوى. لاحظ أيضا أن قوله ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ لا يشمل صبره على مصيبته في يوسف فقط وإنما صبره على أبنائه أيضا. إذ لم يرد يعقوب بانفعال على ما ارتكب أبناؤه، فلم يطردهم من البيت على سبيل المثال، ثم أتبع خطابه لبنيه بعبارة: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾، مشيرا إلى كذب ما وصفوه من أحداث وسائلا الله العون على كشف ذلك الكذب وإظهار الحق.

وقبل أن ننتقل إلى الآية التالية يجب أن نتوقف قليلا لنتأمل رد فعل هذا النبي الكريم على تلقّيه نبأ فقدانه لابنه. لا شك أن فقدانه ليوسف الذي كان يحبّه حبا خاصا أصابه بحزن شديد، خصوصا وأنه لم يكن يعلم حال ابنه الطفل وما سيغدو فيه. لكن معرفته بأنَّ الله قد كتب ليوسف خيرا عظيما في المستقبل كان مصدر سلوى له، رغم أن هذا لم يمنعه من أن يحزن على ابنه الذي لم يعد يراه أو يدري بحاله.

ولا بد أن يكون قد فاقم ذلك الحزن أن يكون المسؤولون عن فقدان يوسف إخوانه لا غيرهم وأن يجد حسن ظنّه بأبنائه حين آمنهم على يوسف قد ساهم بشكل مباشر في ما آلت إليه الامور. ولكن بالرغم من ذلك لم تفارق الإيمان والحكمة يعقوب وهو يجادل أبناءه في روايتهم ويطلب الصبر والعون من الله على البلاء. فما أجمل رد فعل هذا النبي العليم على مصابه العظيم وما أروع صبره الجميل، فلم يجعله هذا الاختبار الإلهي الهائل إلا أكثر فرارا إلى الله وقربا منه.

لا شك بأنَّ يعقوب تذكّر في محنته تلك جده العظيم إبراهيم الذي امتحنه الله هو الآخر بابنه حين أمره يوما في المنام بذبحه بيده، فكان على وشك أن يقوم بذلك حين أوقفه الله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) فَدَيْنَاهُ

بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (الصافات: 102 - 107). إن مثل هذه المواقف العظيمة الشأن تكشف بعضا من حقيقة أنبياء الله وعباده المقرَّبين الذين اصطفاهم وتبيّن تميّزهم عن غيرهم من الخلق.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19)﴾.

يعود بنا القرآن الكريم في هذه الآية إلى المكان الذي ترك فيه أبناء يعقوب أخاهم في قعر البئر كي يلتقطه بعض السيارة[1] ويأخذوه إلى أرض بعيدة عن مكان

(1) وردت كلمة ﴿السَّيَّارَةِ﴾ في قوله ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ في الآية 10 بصيغة المذكّر، وكما هو واضح من الإشارة إليها بالفعل المذكّر ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾. وبيّنا في تفسيرنا لتلك الآية الكريمة بأنَّ معنى ﴿السَّيَّارَةِ﴾ هو «المسافرون»، الذين يُرجّح أن يكونوا من المشاة. أما في الآية الكريمة مدار البحث فنجد كلمة ﴿سَيَّارَةٌ﴾ تُستَخدَم بصيغتي المذكّر والمؤنّث في قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾. ويعود ذلك إلى أن لكلمة ﴿سَيَّارَةٌ﴾ معنيين. فحين تأتي بمعنى «قافلة» يكون جنس الكلمة مؤنّث، وحين تأتي بمعنى «مسافرين في القافلة» يكون جنسها مذكّر. ففي عبارة ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ يشير الفعل المؤنّث ﴿جَاءَتْ﴾ إلى السيّارة بمعناها المؤنّث، أي قافلة، فيما يشير الفعل المذكّر ﴿أَرْسَلُوا﴾ إلى معناها المُذكّر، أي «مسافرو القافلة». أي بعبارة أخرى، إن معنى ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ هو «وجاءت قافلة فأرسل مسافروها واردهم».

إن هذا الاستخدام القرآني الثنائي المعنى لكلمة ﴿سَيَّارَةٌ﴾ يناظر تماما استخدام الكتاب العزيز لكلمة أخرى قريبة جدا في المعنى من كلمة ﴿سَيَّارَةٌ﴾ وهي كلمة ﴿عِيرُ﴾. ففي الآيتين التاليتين ترد ﴿الْعِيرِ﴾ بصيغة المؤنّث حيث تعني «قافلة»، وإن كانت تختلف عن كلمة ﴿سَيَّارَةٌ﴾ بكونها قافلة تستخدم البعير واسطة في السفر: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا﴾ (يوسف: 82)، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ (يوسف: 94). ثم هنالك الآية الكريمة التالية: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، التي نرى فيها كلمة ﴿الْعِيرِ﴾ ترد أولا بمعنى «قافلة»، وهو قوله ﴿أَيَّتُهَا﴾، ثم بمعنى «مسافرو القافلة»، وهو قوله ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾. أي إن عبارتي ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ و﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ لهما نفس التركيب تماما على قدر تعلّق الأمر باستخدام كلمتي ﴿سَيَّارَةٌ﴾ و﴿الْعِيرُ﴾ المتشابهتين في المعنى أيضا.

أبيه: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾، وهو فعلا ما حدث. إذ جاءت قافلة من المسافرين فأرسلوا أحدهم ليأتيهم ببعض الماء من البئر التي كان فيها يوسف. حين أدلى المسافر دلوه في البئر تفاجأ برؤية يوسف، وهو أمر اعتبره خيرا كما هو واضح في قوله ﴿يَا بُشْرَى﴾. كما يبيّن قوله ﴿هَذَا غُلَامٌ﴾ بأنَّ يوسف كان طفلا صغير السن حينئذ، وهو ما شاهدنا دلائلا أخرى عليه في آيات سابقة.

ومعنى الفعل «أسرّ» هو «يجعله سِرّا» أو «يعامله كسِرٍّ»، وبذلك يكون معنى عبارة ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ هو أنّهم وضعوا يوسف سِراً مع بضائعهم. لكن انقسم المفسّرون بشأن ضمير الجماعة الذي تقديره «هم» في كلمة ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ بين من يتّفق مع مجاهد بأنّه يشير إلى السيّارة ومن يوافق ابن عباس في رأيه بأنّه يعني إخوة يوسف. أما الفريق الاخير، وهم الأغلبية، فيرون بأنَّ إخوة يوسف هددوه بالقتل إن باح بالحقيقة وأجبروه أن يوافقهم في التظاهر بأنّه عبد لهم كي يبيعونه للسيّارة. لكن ليس في الآية الكريمة على الاطلاق أي شيء يشير إلى هذا، بل إن هذا التفسير هو نتيجة لتأثّر المفسّرين برواية العهد القديم التي تدّعي بأنَّ إخوة يوسف باعوا أخاهم إلى قافلة المسافرين.

ونحن نرى بأنَّ هذا التفسير خاطئ تماما ونذهب مع ظاهر الآية الكريمة إلى أنّ ضمير الجماعة في ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ يعود على مسافرين في السيّارة. فمن الواضح أن هذا الفعل معطوف على فعل الجماعة ﴿أَرْسَلُوا﴾ الذي سبقه في تلك الآية الكريمة والذي يشير إلى المسافرين لا إلى إخوة يوسف. كما أنّ تعبير ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ يعني «وجعلوه سراً مع بضاعتهم»، والبضاعة هي مواد التجارة، ولذلك فإن ذلك التعبير يشير إلى التجار المسافرين لا إلى إخوة يوسف[1]. وكما ذكرنا سابقا في

(1) من الممكن أن تكون الإشارة في هذه الآية الكريمة إلى مجموعة معيّنة من مسافري السيّارة لا كلّهم، حيث قامت تلك المجموعة بإرسال أحدهم ليجلب ماءً من البئر. أي أن تلك السيّارة كانت تتكوّن من أكثر من مجموعة من المسافرين. فقد كان من الشائع اتّحاد =

تفسيرنا لآية 10 فإنَّ أحد أهداف ترك يوسف في البئر هو ضمان أخذه من قبل بعض المسافرين من غير أن يضطر إخوته للتعامل بشكل مباشر مع من يأخذه تجنّبا للمشاكل التي يمكن أن تنجم عن ذلك.

ويأتي قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ تذكيراً بأنَّ الله عز وجل كان شاهداً على ما فعل المسافرون حين أخذوا يوسف بعيدا عن أرض أبيه، وأنه كان عليما بكل ما كانوا يعملون، وأنهم ما كانوا يستطيعون فعل شيء له لم يأذن هو بحدوثه. وهذه التذكرة تجلب إلى الذهن قوله تعالى في آية سابقة بعد أن وضع إخوة يوسف أخاهم في البئر: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. فهنا أيضا يذكّرنا الله بأنَّه كان حاضراً وناظراً وشاهداً على كل ما يجري وأنه ما كان سيتم شيء من ذلك لولا إذنه ولولا إرادته بأن يتم لغايات ستجلّيها أحداث لاحقة.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20)﴾.

لاحظ أن الفعل ﴿شَرَوْهُ﴾، الذي يعني «باعوه»، والكلمتين ﴿كَانُوا﴾ و﴿الزَّاهِدِينَ﴾ يشيرون إلى نفس ضمير الجماعة الذي تشير إليه الأفعال ﴿أَرْسَلُوا﴾ و﴿أَسَرُّوهُ﴾ و﴿يَعْمَلُونَ﴾ في الآية السابقة. ولما كان بيع يوسف قد وقع في مصر، كما سنرى في قوله تعالى في آية 21: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ﴾، فمن الواضح أن البائعين كانوا من المسافرين وليس إخوته. وهذا يؤكّد تفسيرنا في الآية

جماعات مختلفة يجمعها مسار الرحلة الواحد في قافلة واحدة لأسباب كثيرة منها ضمان أمان الطريق. ومن الممكن أن يكون سبب إسرار أولئك المسافرين ليوسف بين بضائعهم هو كي لا يدعي من معهم من السيّارة شراكة فيه، ومن الممكن أنه كان سيكون على الجماعة التي وجدت يوسف دفع أجور إضافية عن أي مسافر إضافي معهم، وهو سبب تأكيد الآية الكريمة على أن المسافرين أسرّوا يوسف ﴿بِضَاعَةً﴾. وقد يكون معنى إسرار المسافرين ليوسف كبضاعة هو إخفاءه كي لا يجده أهله إن كانوا يبحثون عنه ليستطيعوا فيما بعد بيعه كبضاعة. كما قد يكون السبب مختلف تماما حيث من غير الممكن التأكد من صحة أية من هذه الفرضيّات.

الكريمة السابقة بأنَّ الذين أسرّوا يوسف بضاعة كانوا مجموعة من المسافرين لا إخوته.

هنالك ثلاثة آراء حول معنى كلمة ﴿بَخْسٍ﴾. يشير الرأيان الأولان إلى أن كلمة ﴿بَخْسٍ﴾ تعني «ظلم» أو «حرام»، فيما يشير الرأي الأكثر شيوعا إلى أن هذه الكلمة تعني «منقوص». وفي الحالة الأخيرة يمكن أن يكون وصف الثمن بأنَّه «منقوص» إشارة إلى أنه كان أقل من سعر بيع العبيد في ذلك الزمان. إلا أن الأرجح أن يكون إشارة إلى أن أي مبلغ قبضه المسافرون ثمنا ليوسف هو «قليل» لأن بائع يوسف لا يمكن إلا أن يكون خاسرا إذ يتخلّى عن عبد الله الكريم هذا مقابل مبلغ من المال. ويمكن أن يُعتبَر دليلا على هذا التفسير لمعنى ﴿بَخْسٍ﴾ قوله ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ تأكيدا على رخص الثمن الذي باعوا به يوسف، ومن ثم قوله ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِن الزَّاهِدِينَ﴾ تأكيدا على جهلهم بمكانة يوسف حيث باعوه بأرخص الأثمان.

ثم يبيّن الله بأنَّ ذلك الثمن البخس كان ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾. يشير تعبير ﴿دَرَاهِمَ﴾ إلى أية عملة كانت مستعملة في مكان البيع، أما معنى ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ فهو «قليلة». أشار عدد من المفسّرين إلى أن كلمة ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ تحمل معنى «قليلة» لأن الدراهم توزن عندما تكون كثيرة بينما «تُعَد» عندما تكون قليلة وذلك لسهولة عدّها. ويبدو أن سبب بيع السيّارة ليوسف بقليل من الدراهم هو أنه لم يكلّفهم أي مبلغ، لأنهم لم يشتروه كعبد، وبالتالي فإن كل ثمن كانوا سيأخذوه من بيعه هو ربح صافي.

ثم يختم الله الآية الكريمة بالتأكيد بأنَّ معاملة السيّارة ليوسف وبيعهم له يعكس زهدهم فيه: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِن الزَّاهِدِينَ﴾، أي جهلهم لحقيقة قدره وعدم معاملته بما يستحق. وفي هذا التأكيد المباشر على جهل السيّارة بقدر يوسف إشارة غير مباشرة إلى كرامته وعظم شأنه عند الله. فسبحان الذي اختبر يوسف العزيز عنده بمقام الذل ذاك في الدنيا.

5

يوسف في مصر

سندرس في هذا الفصل ما حدث ليوسف منذ وصوله إلى مصر وحتى دخوله السجن ظلما.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21)﴾.

تبدأ هذه الآية الكريمة بإعلان وصول الطفل يوسف إلى مصر حيث اشتراه هناك رجل وأخذه إلى بيته موصيا زوجته خيراً به: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾. تعني كلمة «مثوى» مكان الإقامة، أي أمر ذلك الرجل زوجته بأن تجهّز ليوسف مقاما طيّبا وكريما يستقر فيه. من الواضح من هذا الأمر أن الذي اشترى يوسف رأى فيه ما جعله يعامله بشكل استثنائي يختلف عن معاملته للعبيد الذين يُباعون ويُشتَرون ولذلك فإنه أوصى زوجته خيرا به. ونجد تفسير معاملته الاستثنائية ليوسف حين يكمل وصيّته لزوجته قائلا: ﴿عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾. إن كل عبد يقوم بعمل ما يجعله ذا فائدة معينة لسيّده، لذلك فلا بد أن الذي اشترى يوسف أراد معنى خاصا بقوله ﴿عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا﴾ لا فائدة من فوائد العبيد العادية لأسيادهم. وهذا استنتاج يؤكّده باقي خطاب ذلك السيّد لزوجته وهو قوله ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾. لا بد أن يوسف بدا متميّزا جدا في عين من اشتراه بحيث فكّر باحتمال اتّخاذه ولدا. وأشار الكثير من المفسّرين إلى أن هذا يعني بأنَّ ذلك الرجل لم يكن له ولد وأنه كان عقيما، كما ذكروا بأنّه كان عنينا لا يأت النساء، لكن ليس في ظاهر الآية

الكريمة ما يؤكّد أيا من ذلك. من الممكن أن ما رأى ذلك الرجل من خلق وجمال وذكاء يوسف الاستثنائيين جعله يفكّر باتخاذه ولدا.

وبعد أن تخبرنا الآية باستقرار يوسف في بيت ذلك الرجل في مصر تصف ذلك الحدث كما يلي: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾.

لاحظ استخدام الله للفعل ﴿مَكَّنَّا﴾ الذي يشترك مع كلمة «مكان» بجذر لغوي واحد، أي كأن الله يقول «وكذلك وفّرنا ليوسف مكانا في الأرض». ويلقي هذا الضوء على استخدام اللغة العربية لكلمات مثل «إمكانية» بمعنى «قدرة»، و«مكانة» و«منزلة» بمعنى «موقع»، إذ إن المكان الذي يحتلّه المرء له علاقة مباشرة بقدرته ومنزلته المعنويّتين.

إن كلمة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، والتي تعني «وهكذا»، تؤكّد بشكل غير مباشر بأنَّ «تمكين يوسف في الأرض» و«تعليمه من تأويل الأحاديث» هما رد الله على كيد من أراد بيوسف شرّا. إذ تشير عبارة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ إلى ما جاء على لِسان إخوة يوسف يوم قالوا: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾، وكأن الله يرد على كيدهم قائلا بأنَّهم «إن كانوا أرادوا طرح يوسف أرضاً فها نحن قد مكّنّا له في الأرض».

يؤكّد واو العطف في بداية قوله الكريم ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ بأنَّ تعليم الله ليوسف من تأويل الأحاديث هو نعمة أخرى أنعمها على عبده تُضاف إلى تمكينه له في الأرض.

أما اللام في بداية كلمة ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ﴾ فهي بمعنى «لكي» وتشير إلى وجود علاقة بين تمكين الله ليوسف في الأرض وتعليمه له من تأويل الأحاديث. أي كان الله سيجعل ذلك المكان والظروف الخاصة به مدرسة ووسيلة لتعليم يوسف من تأويل الأحاديث.

وأشار بعض المفسّرين، كالطبري، إلى أن الهاء في ﴿أَمْرِهِ﴾ في عبارة ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ تعود على ﴿يُوسُفَ﴾ المذكور في بداية الآية الكريمة فمعنى تلك العبارة هو «والله مسيطر على أمر يوسف». إلا أننا نرى بأنَّ الهاء تعود على اسم الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ الوارد في بداية عبارة ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ لا على يوسف،

حيث تناظر العبارة أعلاه قوله في موضع آخر من كتابه العزيز: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ (الطلاق: 3)، التي لا علاقة لها بقصّة يوسف. فعبارة ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ عامة تعني بأنَّ الله قادر على أن يحقق الأمر الذي يريد، وهذه حقيقة تذكرها العديد من الآيات الكريمة كخطابه لسيدنا مُحمَّد: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (يونس: 107)، و﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ (هود: 107). إن أمر الله الذي تشير إليه عبارة ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ في هذا الموقع الخاص في سورة يوسف هو ما أراده ليوسف من تمكينه في الأرض وتعليمه من تأويل الأحاديث. أي يذكّرنا الله هنا بأنَّ إخوة يوسف أرادوا غير ما أراد هو ليوسف إلا أن أمره هو الغالب. وجلي هنا اهتمام الله بيوسف والحنان الذي أسبغه عليه وتولّيه لأمره بنفسه.

وجاءت الآية الكريمة ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ استمرارا للكلام عما يسّر الله ليوسف، إلا أنها طبعا حقيقة عامة شاملة لا تقتصر على أمر ما. ويُلاحَظ هذا الأسلوب في كثير من المواضع في القرآن العظيم حيث يُتبع الله وصفه لحالة خاصة بذكر المواعظ العامة فيها. وسنجد هذا الأسلوب مُستخدَماً في أكثر من موضع في سورة يوسف.

أما الجهل المقصود في الآية الكريمة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهو جهل الناس بأنَّ ﴿اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾. ولا يقتصر هذا الجهل على جهل الذين لا يعرفون الله وقدرته، كأن يكونوا من المشركين، ولكنه يشمل أيضا جهل من يعلم بأنَّ الله تعالى هو الخالق القادر على كل شيء إلا أن علمه لم يرتقِ به إلى درجة الإيمان. ويمكن أن يُدرَج تحت هذا الصنف الثاني جهل الذين يشير الطباطبائي إلى انخداعهم بالظن بأنَّ الأسباب الظاهرة للحوادث تتحكّم فيما يحدث، غافلين عن حقيقة أن الله هو الذي يجعل السبب سببا وأنّه قادر على إبطاله وقت ما يشاء.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22)﴾.

اختلف المفسّرون كثيرا حول العمر الذي يشير إليه قوله تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ

﴿أَشُدَّهُ﴾ حتى تراوحت تقديراتهم بين سن البلوغ والستين عاماً. إن دراسة الإشارات إلى بلوغ الأشد في القرآن يقودنا إلى الاستنتاج بأنَّه وقت بلوغ النضوج العقلي والجسدي. فخلافا لما يقول به بعض المفسِّرين، لا يمثّل بلوغ الأشد سنّا محددا بالضبط، وإنما يختلف ذلك السن إلى حد ما من شخص لآخر، رغم أنه يكون عادة بحدود 16-18 عاما[1].

يخبرنا الله بأنَّه من بعد أن بلغ يوسف أشدّه آتاه ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. إن «الحكم» هو القدرة على التمييز بين الحق والباطل، وبالتالي إطلاق «الأحكام» السليمة، أما «العلم» فيأتي في أشكال مختلفة الله اعلم بحدّها وعدّها. لا شك أن العلم الذي تشير إليه هذه الآية الكريمة يشمل تأويل الأحاديث، وبالتالي فإن هذه الآية الكريمة تشير إلى تحقيق الله وعده في الآية الكريمة السابقة: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، وتحقيق الوعد هذا بدوره تصديق لقوله العزيز في تلك الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾.

(1) ورد «بلوغ الأشد» بصيغ مختلفة في ثمان آيات كريمة، منها الآية التالية التي ترد في موضعين في كتاب الله: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ (الأَنْعام: 152؛ الإسراء: 34). من الممكن الاستدلال على العمر المقصود في هذه الآية الكريمة من مقارنتها بالآية الكريمة التالية التي تتحدث عن نفس الموضوع: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ (النِّسَاء: 6). تذكر هذه الآية الكريمة شرطين لدفع الأموال إلى الأيتام وهما وصول سن البلوغ، أي النضوج الجسدي، ومرحلة الرُّشد، أي النضوج العقلي. من الواضح إذاً أن تعبير ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ الذي ورد في الآيتين 152 من سورة الأنعام و34 من سورة الإسراء يشير إلى عمر بعد سن البلوغ حين يصبح فيه المرء قادرا على اتّخاذ قرارات سليمة ومسؤولة بشأن أموره. أي أن تعبير ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ يشير إلى عمر معين لا يحدد البلوغ الجسدي فقط وإنما النضوج العقلي أيضاً. وفعلا فإن دراسة الآيات الكريمة الخمس الأخرى التي ترد فيها الصيغ المختلفة التي تشير إلى بلوغ الأشدّ (الكَهْف: 82، الحَج: 5، القَصَص: 14، غَافِر: 67، الأَحْقَاف: 15) تبيّن بأنَّ مدى العمر الذي يكون فيه الإنسان بالغ لأشدّه يمتدّ من وقت بلوغه الجسدي والعقلي إلى الوقت الذي تبدأ فيه قدرته الجسدية، وربما العقلية أيضاً، بالتدهور.

ويبيّن مدح الله ليوسف بكونه من ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ في قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ بأنّه استمرّ بالسير على دين آبائه رغم فراقه لأبيه منذ صغره. ومن الجدير بالذكر هو أن من الممكن فهم معنى كلمة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ بشكلين يختلفان قليلا عن بعض. إذ يمكن فهم الكلمة على أنها تشير إلى ذلك الشكل الخاص من مجازاة الله ليوسف إذ آتاه حكما وعلما، وبالتالي يكون معنى العبارة الكريمة بأنَّ الله تعالى يجازي كل محسن بأن يؤتيه حكما وعلما. إلا أنه يمكن أيضا فهم كلمة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ على أنها تشير إلى فعل مجازاة المحسنين بشكل عام، وبالتالي فإن العبارة الكريمة تعني بأنّه الله تعالى يجازي المحسنين خيرا، من غير تحديد طبيعة المجازاة.

وتجدر هنا ملاحظة أن هذه الآية الكريمة التي تذكر بلوغ يوسف أشده جاءت مباشرة بعد الآية الكريمة التي تذكر حادثة شراءه في مصر حين كان طفلا. ويذكّرنا هذا بما سبقت الإشارة إليه في القسم 1-1 حول لا تقليدية السرد الروائي القرآني وخصوصيته، حيث يتجاوز الله عن الإشارة عما حدث خلال عدد من السنين لينقل الحديث إلى مرحلة لاحقة معيّنة.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23)﴾.

يرى بعض المفسِّرين بأنَّ «المراودة» تعني «الطلب برفق»، إلا أن من الواضح أن الفعل «راود» مشتق من «أراد» ولا يتضمّن بالضرورة معنى الطلب برفق. وسنجد فعلا بأنَّ مراودة المرأة ليوسف كانت أبعد ما تكون عن «الطلب برفق». لذلك فإن «مراودة» تلك المرأة ليوسف «عن نفسه» يعني أنها «أرادته»، أي أرادت منه أن يستسلم وينصاع لها بأن يهب لها «جسده».

ويحدد الله في قوله ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ هويّة المرأة بأنّها التي كان يوسف قد انتهى به الأمر في بيتها، وبالتالي فهي التي ورد ذكرها في خطاب زوجها لها في الآية 21. وقد يتبادر إلى الذهن احتمال أن يكون مقام يوسف قد تغيّر خلال تلك

الفترة، كأن يكون ﴿الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾ قد باعه لاحقا حيث انتهى به الأمر في بيت تلك التي أرادت أن تغويه، ولكن يستبعد هذا الاحتمال أنّه بعد أن ذكر الله في الآية 21 أمر ﴿الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾ لزوجته بأن تكرم مثوى يوسف قال: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾، مما يشير إلى استقراره في مكان معيّن، وهذا المكان هو بيت ﴿الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾.

وَرَدَ الفعل ﴿غَلَّقَتْ﴾ بصيغة التشديد للتأكيد على إحكامها غلق الأبواب تجهيزا لما كان في بالها من إغواء يوسف. أما كلمة ﴿هَيْتَ﴾ فقد اختلف المفسّرون في أصلها، ولكن ليس هنالك اختلاف على أن قول المرأة لها جاء في سياق دفع يوسف على مطاوعتها وتنفيذ ما طلبته منه، وكأنها كلمة حث وتشجيع ليوسف.

ويشير الطباطبائي بذكاء إلى أن في وصف الله للمرأة بقوله ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ تأكيد خاص على صعوبة التجربة التي مر بها يوسف حيث كانت تدور في معقل المرأة نفسها وبالتالي فإن تجنّب الوقوع في ما أرادته المرأة كان ذا صعوبة استثنائية. ويؤكد هذا قوله تعالى لاحقا ﴿وَغَلَّقَتْ﴾ بصيغة المبالغة تأكيدا على تجهيزها لكل ما يسهّل مطاوعة يوسف لها ويزيد رفض ما كانت تريد صعوبة.

كان أول رد ليوسف على طلب المرأة هو قوله ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾. وللطباطبائي ملاحظة جميلة هي أن يوسف لم يرفض طلب المرأة لأنه خاف من زوجها أو بسبب أية مخاوف أخرى يمكن أن تنشأ داخل الإنسان في مثل ذلك الظرف، حيث يبيّن جوابه بأنَّ المصدر الحقيقي لعفّته كان الله الذي طلب عونه في محنته تلك.

ثم أتبع يوسف كلمته تلك بقول ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ الذي انقسم المفسّرون بشأن معناه إلى فريقين. يعتقد الفريق الاول بأنَّ كلمة ﴿رَبِّي﴾ تشير إلى رب مسكن يوسف، أي الذي قال لزوجته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾. وبذلك يكون معنى قول يوسف هو استنكاره لأن يخون من أحسن مقامه في بيته. أما الفريق الثاني من المفسّرين فيرى بأنَّ كلمة ﴿رَبِّي﴾ تعود على الله الذي «مكّنَ ليوسف في الأرض» والذي كان أول من ذكره يوسف في محنته حين قال ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾، وبذلك يكون معنى قوله ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ شيئا من

قبيل: «أعوذ بالله مما تريدين، وقد أحسن الله ربي مثواي».

ولما كان ظاهر الآية يقبل التفسيرين فيبدو الأمر وكأنه ترجيح لفرضية على أخرى بشأن ما دار في بال يوسف في ذلك الموقف. لكن يلفت الطباطبائي الانتباه إلى إنهاء يوسف لخطابه بقول ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، مضيفا بأنّه لو كان يوسف يتحدث قبل ذلك عن رب البيت لاستخدم كلمة «الخائنون» بدل ﴿الظَّالِمُونَ﴾ لأن فعل الزنى مع زوجة رب البيت كان سيكون خيانة لرب البيت، بينما لتعبير ﴿الظَّالِمُونَ﴾ هنا معنى ديني إذ يشير إلى أن كل من يرتكب الزنى هو «ظالم» بحق نفسه. لكن يمكن أيضا القول بأنَّ تعبير ﴿الظَّالِمُونَ﴾ هو شامل لتعبير «الخائنون» لأن الخيانة هي شكل من أشكال الظلم، وبالتالي فإن استخدام يوسف لكلمة ﴿الظَّالِمُونَ﴾ لا يعني بالضرورة أنه لم يكن يشير إلى رب البيت.

لكن المشكلة الرئيسية في القول بأنَّ يوسف كان يشير بكلمة ﴿رَبِّي﴾ إلى رب البيت لا إلى الله هو أن هذا التفسير يجعل يوسف يبدو وكأنه يبرّر رفضه للزنى مع تلك المرأة بأنَّ زوجها كان قد يسّر له مكانا طيبا للعيش! أما فهم كلمة ﴿رَبِّي﴾ على أنها إشارة إلى الله فيجعل معنى جواب يوسف استنكارا لأن يسيء استخدام نعمة الله عليه في تمكينه له في الأرض بأن يرتكب الزنى في مكان تلك النعمة، وهو جواب حكيم جدير بأن يصدر عن يوسف. كما يتّفق هذا التفسير الأخير لكلمة ﴿رَبِّي﴾ مع بدء يوسف لجوابه على المرأة بذكر الله والتحصّن به ضد ما أرادته منه. كما سنجد في الآية الكريمة التالية بأنَّ كلمة «رب» في قوله ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ترد أيضا بمعنى «الله».

ومما يؤكّد استنتاجنا هذا هو ورود إحدى عشرة إشارة، بصيغ متعدّدة، إلى «رب يوسف» في الآيات 6، 23، 24، 33، 34، 37، 50، 100، 101، وفي كل هذه المرّات نجد بأنَّ المشار إليه هو الله.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24)﴾.

إن اللام في كلمة ﴿وَلَقَدْ﴾ هي لام القسم. أي كأن الآية تبدأ بقول «والله قد ....». من الممكن أن يكون القسم هنا واقع على ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾ أو ﴿هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ أو ﴿هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾. ويؤكّد تقديم الفعل المنسوب إلى المرأة، ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾، على الفعل المنسوب إلى يوسف، ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، بأنَّ المرأة كانت ولازالت صاحبة المبادرة.

من الواضح أن قوله ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾ يشير إلى أفعال قامت بها المرأة بهدف دفع يوسف إلى الزنى، ولكن اختلف المفسّرون كثيرا في معنى قوله ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، حيث انقسموا إلى فريقين. يرى الأول بأنَّ يوسف أراد في لحظة ما أن يجاريها في ما أرادت، إلا أنّه طبعا لم يفعل. ومن الذين نسبت كتب التفسير إليهم هذا الرأي هم ابن عباس ومجاهد وقتادة وعكرمة والحسن وسعيد بن جبير وأبو نصر القشيري وابن الأنباري والنحاس والماوردي وكثيرين غيرهم. إلا أن هنالك أيضا روايات تستثني بعض أولئك المفسّرين من هذه النظرة. ونُسِبَ إلى بعض من هؤلاء المفسّرين أقوالا ليس في النص القرآني ما يؤيّدها، كالادعاء بأنَّ يوسف كان قد حل سراويله وجلس منها مجلس الرجل من المرأة حين رأى برهان ربه! بل يبيّن النص القرآني لاحقا في آية 25 بأنّه كان لابسا قميصه حين هم بترك الغرفة[1].

أما الفريق الثاني من المفسّرين فيعتقد بأنه بالرغم من أن التفسير أعلاه لا يتّهم يوسف بارتكاب الفحشاء فإنه ينسب إليه ما لا يمكن أن يصدر عنه كونه من أنبياء

---

(1) وللمزيد من التفاصيل عن ادّعاءات المفسّرين هذه يمكن للقارئ مراجعة ما جمعه الطبري والقرطبي مثلا في تفسيريهما للآية الكريمة 24 وما جمعه الطبري في تفسيره للآية الكريمة 53. إن بعض هذه التفاسير تسرف في سرد تفاصيل لا أساس لها ولا نراها جديرة إلا بالإهمال.

الله، وبالتالي فإنهم يتبنّون تفسيرا بديلا. فمثلا يذكر الطبري قول الغزالي بأنَّ يوسف همّ بها في منامه لا في يقظته. كما قال الكثير من هؤلاء المفسِّرين بأنَّ الفعل ﴿هَمَّ﴾ منسوب بمعنى مختلف إلى المرأة وإلى يوسف، وأن ما همَّ به يوسف هو غير ما همّت به المرأة. أما الرأي الشائع بين هذا الفريق من المفسّرين فهو أنَّ يوسف همَّ بضرب المرأة أو دفعها عنه، وقال البعض بأنَّ هم يوسف بالمرأة يعني أنه تمنى لو كانت زوجته، كما قال البعض بأنَّ يوسف همّ بقتلها. وهنالك من قال بأنَّ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ يعني بأنَّه فكّر فقط بأن ينصاع لها إلا أنه لم يفعل.

ومن التأويلات التي احتجَّ بها هؤلاء المفسِّرين هو القول بأنَّ الاستدراك في قوله تعالى ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ يعود على قوله ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، أي كأن الله يقول بأنَّ يوسف لم يهم بالمرأة لأنه رأى برهان ربّه. فتقدير القول حسب هذا التفسير هو «وَلَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ لهَمَّ بِهَا»، وأنّ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هو جواب ﴿لَوْلَا﴾ وقد تقدَّم عليها في الآية الكريمة. لكن غالبية المفسّرين لا يميلون إلى القول بأنَّ جواب ﴿لَوْلَا﴾ يمكن أن يأتي قبلها، وبالتالي لا يعتبروا ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ جواب ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ولهذا فإن العبارة الأخيرة لا تنفي الأولى. ولكن بالرغم من أنّه في الغالبية العظمى من الآيات التي ترد فيها ﴿لَوْلَا﴾ يأتي جوابها لاحقا لها، فقد لاحظ بعض المفسّرين مُصيبون آيات وإن كانت قليلة يبدو فيها جواب ﴿لَوْلَا﴾ متقدِّما عليها لا لاحقا لها.

إلا أن هنالك ملاحظة غاية في الأهمّيّة غابت عن انتباه هذا البعض من المفسِّرين، وهي أن في كل الآيات الكريمة التي ورد فيها جواب ﴿لَوْلَا﴾ متقدِّما عليها، وهي أربع آيات لا أكثر، احتوى الجواب على جملة بصيغة النفي، بينما عبارة ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ في آية سورة يوسف أعلاه هي بصيغة التثبيت. وفيما يلي هذه الآيات الأربع:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: 43).

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ (الفرقان: 77).

﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الفرقان: 42).

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (القصص: 10).

لاحظ في جوابات ﴿لَوْلَا﴾ المتقدّمة احتواء ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ و﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾ على ﴿مَا﴾ النافية، بينما يحتوي الجوابان ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ و﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ على العبارة ﴿إِنْ كَادَ﴾ التي تفيد معنى النفي أيضا. لذلك فإن ادعاء البعض بأنَّ قوله الكريم ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هو جواب ﴿لَوْلَا﴾ في عبارة ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ يجعل من هذه الآية الكريمة شاذّة في استعمالها لجواب ﴿لَوْلَا﴾ المتقدِّم بصيغة الإثبات لا النفي، حيث قال ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ولم يقل شيئا من قبيل «وكاد أن يهمَّ بها». بسبب هذا فإننا لا نتّفق مع رأي الذين يقولون بأنَّ عبارة ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هي جواب متقدِّم لكلمة ﴿لَوْلَا﴾ ولا مع استنتاجهم الخاطئ بأنَّ يوسف لم يهمّ بالمرأة.

إن فهم معنى الآية أعلاه بشكل سليم يتطلب ملاحظة أن الفعل ﴿هَمَّ﴾ يشير إلى النية بفعل الشيء والمباشرة به، إلا أنّه لا يبيّن اكتمال الفعل أو عدمه. أما في القرآن، فيقترن هذا الفعل بالأفعال التي لم تتم، وكما هو واضح من الآيات الكريمة التي ورد فيها:

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: 13).

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (التوبة: 74).

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: 122)

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء: 113)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المائدة: 11).

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (غافر: 5).

تستخدم كل هذه الآيات الكريمة الفعل ﴿همَّ﴾ بمعنى النية على فعل شيء والمباشرة به ولكن من غير إكماله. ومن المهم أيضا ملاحظة أن عدم إكمال الفعل لا يمثّل تغييرا في نيّة الفاعل ولا إعراضه عما همَّ به، وإنما يمثّل فشله في إكمال ذلك الفعل نتيجة تدخّل أو حدث خارجي لم يكن للفاعل قدرة على ردّه. ويتّفق هذا تماما مع وصف الآية الكريمة لما حدث بين امرأة العزيز ويوسف. إن ما أرادته المرأة لم يكتمل لأن يد الله منعته، وكما واضح في قوله الكريم: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾.

وحاول الكثير من المفسّرين تحديد تفاصيل الحدث الذي وصفه الله بقوله ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ للبرهنة على أن يوسف لم يرتكب معصية الزنى. إلا أن هذه المحاولة بحد ذاتها مبنيّة على مغالطة، وهي الاعتقاد بأنَّ الدليل على براءة يوسف من الفحشاء وعدم مطاوعته للمرأة يكمن في تفسير معيّن لعبارة ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾. لكن الحقيقة هي أن الدليل على عدم وقوع يوسف في ما أرادته المرأة هو قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. إذ أكّد الله ثلاث مرّات في هذا النص براءة يوسف من الفحشاء. أولا: بجعله يوسف يرى البرهان: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾؛ ثانيا: بصرفه للسوء والفحشاء عنه: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾؛ وثالثا: باستخلاصه عبدا

له: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

إذا رغم عدم إمكانية تحديد تفاصيل الحوادث التي يشير إليها قوله ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ نستطيع أن نقول بثقة مطلقة بأنَّ يوسف لم يرتكب المعصية التي دفعته إليها المرأة، بدليل ما ورد في بقية الآية الكريمة من تنزيه صريح له.

لا بد من الإشارة إلى روعة ودقة التعبير القرآني ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ الذي يتحدّث عن صرف السوء والفحشاء عن يوسف وليس صرف يوسف عن السوء والفحشاء، تأكيدا على أن يوسف لم يطلب السوء والفحشاء، وإنما ابتِلِيَ بمجيئهما إليه من غير رغبة منه فيهما أو سعي إليهما.

وكما هو متوقّع، اختلف المفسّرون في ماهية البرهان الذي يشير إليه قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾، بين من يعتقد بأنَّ يوسف رأى أباه يعقوب، أو رأى مَلَكا، أو رأى رب البيت، وغير ذلك من الكثير من التفاسير التي ليس في النص القرآني أي دليل عليها. إن وقوع ﴿بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ هو استجابة من الله لدعاء يوسف في بداية محنته في آية 23 حين استعاذ به من دعوة المرأة قائلا ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾. أما ماهيّة ذلك البرهان الذي صرف به الله عن يوسف ﴿السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾، فالله اعلم بها.

ثم ينهي الله الآية الكريمة بقوله ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ تفسيرا لاهتمامه الخاص بيوسف. هنالك من يقرأ اسم المفعول ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بكسر اللام، أي بصيغة اسم الفاعل «المخلِصين». لكن استخدام القرآن العظيم لاسم الفاعل ﴿مُخْلِص﴾ يأتي في سياقات يكون الإنسان فيها هو الفاعل لفعل الإخلاص، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (الأعراف: 29)، وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (العنكبوت: 65). ففي هذه الآيات نجد الله يشير إلى أفعال يقوم بها الإنسان ولذلك من المنطقي استخدام اسم الفاعل، أي ﴿مُخْلِصِينَ﴾.

أما اسم المفعول فيُستَخدَم في القرآن العظيم للإشارة إلى من يصطفيهم الله، أي يكون الله نفسه في موقع الفاعل وهم في موقع المفعول بهم. فعلى سبيل المثال

يتحدّث الله في الآية الكريمة التالية عن عباده الذين ينجّيهم من العذاب، ولذلك فالصيغة المُستخدَمة هي اسم المفعول: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ (38) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (39) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40) أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ (الصافّات: 38 – 41)، وهنا أيضا يتحدّث الله عمّن اصطفاهم وأنجاهم من العذاب وبالتالي فإنه يصفهم بكلمة ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (73) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الصافّات: 73، 74). ولما كان مقام يوسف في الآية 24 هو مقام الاصطفاء، حيث تدخّل الله لعصمته من السوء والفحشاء، فإن الكلمة التي تنتهي بها الآية الكريمة يجب أن تكون ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ وليس «المُخلِصين».

إن معنى ﴿الْفَحْشَاءَ﴾ التي صرفها الله عن يوسف واضح تماما، ولكن ما المقصود بكلمة ﴿السُّوءَ﴾؟ أحد الاحتمالات هو أن هذه الكلمة تشير إلى سوء كان سيصيب يوسف لو أطاع المرأة لأن صاحب البيت كان على وشك الوصول إلى البيت، كما سنرى في الآية القادمة، وبالتالي فإن اكتشافه للأمر كان سيجعله ينتقم من يوسف. من الممكن أيضا أن يكون السوء المقصود هو ما كان يمكن أن يحدث ليوسف لاحقا لو طاوع المرأة.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25)﴾.

مر بنا الفعل ﴿اسْتَبَقَا﴾ في الآية 17 بصيغة ﴿نَسْتَبِقُ﴾ حين اختلق إخوة يوسف قصة ذهابهم بعيدا في سباقهم وتركهم يوسف مع متاعهم وأكل الذئب له.

سبق وأن تطرقنا إلى الترابط الأسلوبي الخلاب بين الآيتين 23 و24، والذي يمكن رؤيته في هذه الآية أيضا. إذ شاهدنا يوسف في الآية 23 وهو يرفض طلب المرأة بحزم، وشاهدناه في بداية الآية 24 وقد لانَ موقفه حيث ﴿هَمَّ بِهَا﴾ قبل أن يرى برهان ربّه الذي أشار إليه الجزء الاخير من الآية الكريمة، ونراه هنا وقد عاد

إلى رفضه الحازم إلى ما دعته إليه المرأة حيث ركض إلى الباب ليخرج ويبتعد عنها.

ويبدو أن يوسف أدرك بأن لا فائدة تُرجى من بقائه في الغرفة ومحاولة إقناع المرأة بأن تتوقّف عما كانت فيه، ولذلك قرّر بأنَّ خياره الوحيد هو ترك المكان. والجدير بالملاحظة هنا هو أنه بخلاف ما سبق من حوادث بين المرأة ويوسف كان هو الذي أخذ المبادرة هذه المرّة وركض نحو الباب فركضت هي وراءه.

وبالرغم من تسابق يوسف والمرأة للوصول إلى موضع واحد فقد كان تسابقهما لهدفين متناقضين تماما. إذ بينما كان هدف يوسف من الوصول إلى الباب هو الخروج من المكان والحفاظ على عفّته وطهارته، كان هدف المرأة منعه من الخروج لدفعه إلى ما كانت تريد من الفحشاء. ويبيّن الفعل ﴿اسْتَبَقَا﴾ شدة تمسّك كل منهما بهدفه المناقض لهدف الآخر.

من المُلاحَظ أن الآية 23 تتحدث عن تغليق المرأة للأبواب، ﴿وَغَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ﴾، بينما تشير الآية 25 إلى باب واحد معين وجدا سيدّها عنده: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾. من الواضح أن تعبير ﴿الْأَبْوَابَ﴾ يشمل العديد من أبواب البيت، ولا شك أنه شمل باب الغرفة التي كان فيها يوسف والمرأة وكذلك الباب الخارجي للبيت. ولو افترضنا بأنَّ الإشارة في هذه الآية الكريمة هي إلى باب الغرفة التي كانا فيها، كما في التفسير الشائع، فإن هذا يعني بأنَّ رب البيت كان قد فتح الباب الخارجي وكان، لسبب ما، قد جاء إلى باب الغرفة التي كانا فيها. وهذا بدوره يعني بأنَّ تقفيل الأبواب جَعَلها مغلقة على من بداخلها لا على من هو خارجها، بدليل وصول الزوج إلى باب الغرفة الداخلي، وهو استنتاج واضح الضعف.

أما التفسير الذي نراه أكثر ترجيحا فهو أن الباب المُشار إليه هو في الواقع الباب الخارجي للبيت، حيث كان يوسف قد ترك الغرفة التي كانا فيها لا بغرض الخروج من تلك الغرفة فقط، ولكن بهدف ترك البيت بأكمله، لأن المرأة كانت ستبقى تلاحقه أينما ذهب طالما بقي داخل البيت. ولما وصل يوسف إلى الباب الخارجي يريد فتحه للخروج لم يبق امام المرأة أي شيء تفعله لمنعه من الخروج سوى شق

قميصه، حيث ما كان سيستطيع الخروج من البيت وهو شبه عار. أي أن شق المرأة لقميص يوسف وفقا لهذه الصورة كان متعمّدا وحدث بينما كان يحاول فتح الباب الخارجي لترك البيت وهي واقفة وراءه، وكان الهدف منه جعل يوسف في حال يمنعه من الخروج من البيت.

إننا نرجّح هذا على التفسير التقليدي الذي يصوّر يوسف وهو يبتعد عن المرأة باتجاه باب الغرفة بينما هي تحاول جذبه من قميصه نحوها متسبّبة في شق قميصه. فليس في نص الآية الكريمة ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ ما يشير إلى أن المرأة شقّت قميص يوسف عفوا، بل إن هذا الفهم هو وليد التفسير التقليدي لما حدث. في الواقع، يوحي النص بأنَّ فعل المرأة كان متعمّدا.

كان من الواضح لزوج المرأة الواقف عند الباب أن أمرا مثيرا للشك كان يدور بين زوجته وبين يوسف. ولا بد أن هيئة يوسف وقميصه المشقوق وهيئة المرأة جعلوا زوجها يُدرك ما كانت هي بصدده. لذلك بادرت المرأة باتّهام يوسف بمحاولة الاعتداء عليها وذهبت في ذلك إلى حد تحريض زوجها على سجن يوسف أو تعذيبه: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. من الواضح من هذا التحريض بأنَّ ما كانت تكنّه المرأة ليوسف هو شيء لا علاقة له بالحب الحقيقي وإلا لما افترت عليه وطلبت سجنه أو تعذيبه.

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (26)﴾.

يبدو أن أدب يوسف وخجله من الموقف منعه من المبادرة بالكلام ليشكي أمره إلى زوج المرأة مع أن شكواه كانت ستكون شكوى حق، على العكس تماما من المرأة التي بادرت إلى اختلاق قصّة كاذبة لاتّهامه. فرد يوسف تهمة المرأة له بأن قال الحق، وهو أنها هي التي أرادت أن تغويه.

يبدو من ظاهر النص أن زوج المرأة هو الذي طلب حكم شخص آخر في رواية زوجته ورواية يوسف المتناقضتين حول ما حدث بينهما. ومن المرجّح أن سؤال

الزوج لشخص آخر ليحكم في الأمر وعدم تصديقه لما قالته زوجته من دون تحقيق يعني بأنَّ الموقف الذي رآه حينئذ وما كان يعرف عن يوسف، وربما ما كان يعرفه عن زوجته أيضا، جعلوه يشك في صدق رواية زوجته.

لاحظ بأنَّ كلمتي ﴿شَهِدَ﴾ و﴿شَاهِدٌ﴾ لا تعنيان بأنَّ ذلك الشخص «شاهَدَ» الحادِثة ببصره. فالفعل ﴿شَهِدَ﴾ يمكن أن يعني رؤية الشخص للحادثة أو حضوره لها، كقوله: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (النمل: 49)، وهذا استعمال خاص للفعل. إلا أن المعنى الأشمل لهذا الفعل هو «قَرَّ» أو «أعلَنَ» شيئا ما بناءً على ما يراه الشاهِد من أدلة مقنعة، بما في ذلك الأدلة الظرفية والحجج العقلية، وهذا هو المعنى الذي يُستَخدَم فيه هذا الفعل في معظم مرّات وروده في القرآن الكريم، كقوله: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام: 150)، وكذلك: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (فصلت: 20). فكلمتا ﴿شَهِدَ﴾ و﴿شَاهِدٌ﴾ في آية سورة يوسف لا تعنيان بأنَّ ذلك الشخص كان حاضرا للحادثة التي كان سيدلي بشهادته عنها، ولكنهما تشيران إلى دوره في إعطاء «إفادة» و«رأي» حولها نتيجة دراسته لظروفها. وقد يبدو بأنَّ الدور المُشار إليه في الآية الكريمة «بالشاهد» هو قريب إلى دور «القاضي»، إلا أن سبب وصف القرآن العظيم له بأنَّه ﴿شَاهِدٌ﴾ بدل صفة أخرى تعني «قاضي» هو أن دور ذلك الشخص كان استشارياً وأن الزوج كان هو صاحب القرار النهائي بشأن حقيقة ما حدث[1].

---

(1) قد يعتقد البعض بأنَّ ذلك الشخص «شهد» عيانيا الحادثة لأنّه كان في صحبة الزوج عند قدومه إلى البيت. إلا أن هنالك أكثر من سبب لرفض هذا التفسير تماما. **أولا**: إن الفعل ﴿شَهِدَ﴾ في عبارة ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ يشير بشكل لا يقبل اللبس إلى «شهادة» ذلك الشخص حول دلالات شق القميص التي تلي تلك العبارة، حيث يرد نصفها الأول في هذه الآية =

وهنالك عدد من الروايات المختلفة بشأن هوية الشاهد وعمره، بما في ذلك حديث يُنسَب إلى ابن عباس بأنَّ الشاهد كان طفلا تكلّم في المهد. إلا أن من الواضح أن هذا غير صحيح لأنه لو كان صحيحا لذكر الله في كتابه العزيز تأييده ليوسف بمعجزة تكليمه لطفل في المهد نصرةً له، كما ذكر معجزة تكلّم عيسى في المهد، ولكان وقوع الحدث بحد ذاته أقوى دليلا من الحجة نفسها التي نطق بها الشاهد.

إن وصف الله للشاهد بأنَّه ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ دون أي وصف آخر، كوصفه مثلا بأنَّه طفل في المهد، يعني بأنَّ ذلك الشاهد كان قد اختيرَ قصدا من أهلها للحكم في هذا الأمر وأنه لا يمكن أن يكون طفلا في المهد تحدّث بمعجزة بشكل مفاجئ.

ربما كان اختيار الزوج لشاهد ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾، أي من أهل زوجته، منعا لانتشار الخبر بين الغرباء، أو ربما لضمان أن الشاهد ما كان سيحكم بالهوى ليوسف لسبب أو لآخر، أو ربّما عَكَسَ الاختيار شكّ الزوج شخصيّا بكذب زوجته وأنه لذلك أراد حَكَما أبعد ما يكون عن التأثّر برأيه، أو ربما كان للمرأة نفسها رأي في اختيار الشاهد وأنها أرادت ذلك الشخص من أهلها بالذات شاهدا، أو ربما كان اختيار الشاهد من أهل المرأة نتيجة لبعض أو كل تلك العوامل مجتمعة.

ونأتي الآن إلى النصف الأول من حكم ذلك الشاهد: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِن الْكَاذِبِينَ﴾. أي إن كان قميص يوسف قد شُقَّ من الأمام فإن المرأة صادقة في دعواها، لأن ذلك كان سيعني بأنَّ المرأة كانت تدفع يوسف عن

=

الكريمة ونصفها الثاني في الآية التالية. لذلك يجب أن يكون اسم الفاعل ﴿شَاهِدٌ﴾ أيضا مشتقا من هذا المعنى للفعل ﴿شَهِدَ﴾ الذي يشير إلى دوره في اعطاء شهادته حول دلالات الكيفية التي شُقَّ بها القميص، لا إلى كونه «شَهِدَ» الحادث بمعنى «رآه». ثانيا: من الواضح من الآيات 26-28، وبالذات الآية 28، بأنَّ «الشاهد» لم يكن يدري جهة شق القميص، لذلك فإن ﴿شَهِدَ﴾ لا يمكن أن يعني الرؤية العينية.

نفسها بينما كان هو يتحرّش بها مما تسبّب في شقّها لقميصه من الأمام.

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27)﴾.

وتكمل لنا هذه الآية الكريمة نصف الحكم الثاني وهو أنه إذا كان قميص يوسف قد شُقَّ من الخلف فإنه هو الصادق وأن المرأة هي الكاذبة، لأنه يعني بأنّه كان مديرا ظهره لها حين شقّت قميصه وبالتالي فإنّها هي التي كانت تتحرَّش به وتريد إغوائه.

هنالك نقاط تجدر ملاحظتها هنا. **أولا:** لم تنكر المرأة شقّها للقميص ولكنّها ادَّعت سببا خالفه قول يوسف. فمهمة الشاهد لم تكن تحديد من شقّ القميص وإنما الحكم في سبب شقّ المرأة لقميص يوسف، أي فيما إذا كان دفاعا عن نفسها أو تحرّشا بيوسف. **ثانيا:** من الواضح أن الشاهد لم يكن على علم بجهة شق قميص يوسف، وهو سبب ذكره للاحتمالين في حكمه (انظر أيضا تفسير الآية الكريمة القادمة). **ثالثا:** بدأ الشاهد حكمه بذكر الاحتمال الذي يجعل من المرأة هي الصادقة، على الأرجح تأدّبا معها كونه من أهلها.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28)﴾.

يرى البعض بأنَّ هذا كلام للشاهد فيما ينسبه البعض الآخر إلى الزوج. إلا أننا نرى بأنَّ هذا يجب أن يكون ضرورة كلام الشاهد. رغم أن بعض المفسِّرين يرى بأنَّ قوله ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ﴾ لا يشير بالضرورة إلى الرؤية العينية للقميص ولكن إلى التفكّر فيه، أي كأنما الله قد قال: «ولَمَّا كان يعلم بأنَّ القميص»، فإننا نرى بأنَّ هذا التفسير ركيك جدا وهو نتيجة لنسبة القول أعلاه إلى الزوج وليس دليلا عليه. إن ظاهر الآية الكريمة واضح تماما في أن المقصود هو الرؤية العينية لا غيرها، وهذا بدوره يعني بأنَّ الرائي المقصود يجب أن يكون الشاهد وليس الزوج لأن الآية الكريمة تتحدث عن شخص لم يكن قد شاهد القميص المشقوق قبل ذلك، بينما من المحتّم أن يكون الزوج قد شاهد جهة شق القميص حين لقي يوسف والمرأة عند الباب.

ويتّفق هذا الاستنتاج مع ملاحظتنا أعلاه بأن ذكر الشاهد لحكمه في حالتي شق القميص من الجهتين يؤكد بأنّه لم يكن يدري جهة شق القميص. كما أنه من المنطقي أن الذي سأل الشاهد أن يحكم في الأمر قد سأله أيضا أن ينظر إلى القميص تكملة للحكم، وبالتالي فإن القول أعلاه يجب أن يكون كلام الشاهد. من المرجَّح أن الزوج لم يتقصّد عدم إخبار الشاهد بجهة شق القميص لأنه لم يخطر بباله أن ذلك يمكن أن تكون له علاقة بتحديد الطرف المذنب، ولذلك فبعد سماعه لحكم الشاهد بناءً على جهة شق القميص قام بجلب القميص إلى الشاهد ليراه ويطلق الحكم النهائي.

ولما اطّلع الشاهد على القميص ورأى أنه قد شُقَّ من الخلف قال مخاطبا المرأة: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾. كما بيّنّا في تفسيرنا لتحذير يعقوب ليوسف من كيد إخوته في الآية 5 في الفصل الثالث، إن الكيد هو الاحتيال والتآمر، وطبعا يمكن أن يتضمّن التلفيق والكذب كما في هذه الحالة. كان واضحا للشاهد بأنَّ كل ما قاله يوسف كان صدقا وأن كل ما قالته المرأة كان كيدا من الكذب والبهتان. أما استخدام الشاهد لصيغة الجمع المؤنث السالم لا صيغة المفرد في خطابه للمرأة في إشارة إلى النساء بشكل عام فربما لتخفيف حدة لومه لها. ويبدو أن تعميم الشاهد في خطابه للمرأة يعكس الاعتقاد الشائع بامتلاك النساء بشكل عام لقدر كبير من الدهاء. وسنشاهد لاحقا تعرّض يوسف لكيد مجموعة من النساء بقيادة تلك المرأة.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (29)﴾.

رغم أن الكثير من المفسّرين يرون بأنَّ هذا من قول الزوج، فإن كونه استمرارا لخطاب الآية السابقة يرجّح كونه كلام الشاهد، وهو استنتاج سنجد عليه دلائل أخرى في ما سيأتي من تحليل. لاحظ أن استمرار الشاهد بالكلام وعدم تدخّل الزوج يعني موافقة الأخير على استنتاج الشاهد بشأن حقيقة ما حدث.

نجد هنا الشاهد يطلب من يوسف أن يتغاضى عما حدث: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ

هَـٰذَا﴾. ويفسّر الكثيرون قول الشاهد هذا على أنه أمر ليوسف بأن يكتم ما حدث سِرّا وأن لا يحدّث به أحدا.

اما الخطاب المُوَجّه إلى المرأة: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾، فيرى بعض المفسّرين الذين يعتقدون بأنّه من كلام زوجها بأنّه أمر لها بأن تطلب المغفرة من ربّها الذي كانت تعبده. إلا أن تفسيرنا بأنّ هذا كلام الشاهد لا الزوج يرجّح بأن يكون المقصود من الخطاب هو حث المرأة على طلب المغفرة من زوجها على فعلها. وخطاب الشاهد إلى يوسف يمثّل توجيها ليوسف بشأن كيفية تعامله لاحقا في حياته مع ما حدث، وليس هنالك في ظاهر الآية ما يشير إلى أن قول الشاهد ليوسف يحتمل معنى دينيا. كما لم يكن يوسف على دين أولئك القوم فما كان ذلك الشاهد في موقع من يوجّه نصيحة دينية له. من المنطقي إذا الاستنتاج بأنّ قول الشاهد للمرأة هو الآخر يتضمّن نصيحة لها بشأن ما يتوجّب عليها فعله لتجاوز ما حدث وبالتالي فإنه ليس نصيحة دينية. إن عدم إتباع الشاهد لكلمة ﴿وَاسْتَغْفِرِي﴾ بكلمة تحدّد هويّة المطلوب استغفاره يعني ضمنيّا بأنّ الزوج هو المقصود.

لاحظ أيضا أن عقلانية لغة الخطاب وخلوها من العواطف تؤكّدان بأنّ المُخاطِب لم يكن متأثّرا شخصيا بشكل مباشر بما حدث وأنه كان قادرا على أن ينظر إلى الأمر بشكل موضوعي بعيدا عن العواطف، ولذلك فإنه لا يمكن أن يكون زوج المرأة، كما ذكرنا اعلاه.

لقد فسّر المفسّرون قبول الزوج بما حكم به الشاهد وإبقاءه على زوجته بشدة حبه لها أو فقدانه للغيرة. لكن هنالك عدد من التفسيرات المحتملة لسلوك الزوج الغريب هذا. فإذا كان سبب إبقاء الزوج على زوجته شدة حبّه لها، فقد يكون علمه بعدم ارتكابها الفحشاء مع يوسف هو أحد العوامل المساعدة على قراره. أما كون الزوج فاقدا للغيرة فليس بالأمر المُستبعَد على الإطلاق حيث سنرى لاحقا إشارات في النص القرآني إلى تفشّي التفسّخ الأخلاقي في ذلك المجتمع، على الأقل بين الطبقة العليا.

وأحد التفسيرات المحتملة الأخرى لإبقاء الزوج على امرأته هو أنها كانت هي صاحبة السلطة والكلمة في بيتها، ربّما بسبب انتمائها إلى عائلة متنفّذة كان الزوج حريصا على الا يفقد علاقته بها وما كانت تمثّله له من طموح ونفوذ. قد يكون هذا أيضا سبب استعانة الزوج بشاهد من أهل المرأة. كما يفسّر هذا أيضا إبقاء الزوج على يوسف في بيته من بعد أن علم برغبة امرأته فيه، إذ من الواضح أنها هي التي أرادت بقاء يوسف لأنها كانت مصرّة على أن تجعله يطاوعها فيما كانت تريده منه. إن إبقاء الزوج على امرأته قد يعود لأكثر من واحد من هذه الأسباب أو كلّها مجتمعة.

لاحظ المفسّرون استخدام الآية الكريمة لكلمة ﴿الْخَاطِئِينَ﴾ وليس «الخاطئات»، مفسّرين ذلك بأنّه يعني «أهل الخطيئة» بشكل عام لا النساء منهم فقط. إلا أن من الواضح مما تقدّم بأنَّ تعبير «أهل الخطيئة» لا يحمل هنا أي معنى دينيا.

ومن الممكن أن يكون سبب استخدام الشاهد لتعبير ﴿الْخَاطِئِينَ﴾ الأكثر عموما من «الخاطئات» هو نفس سبب استخدامه لصيغة الجمع في إشارته إلى كيد النساء بشكل عام في الآية السابقة، أي لتخفيف حدّة لومه للمرأة.

يؤكّد استخدام الشاهد لوصف ﴿الْخَاطِئِينَ﴾ بأنّه بالرغم من تفشّي التفسّخ الأخلاقي في المجتمع فإنه كان يعتبر سلوكا سيئا.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (30)﴾.

هذا أول ظهور للقب العزيز في سورة يوسف. ورغم عدم وجود نص صريح على أن امرأة العزيز المذكورة هي نفسها المرأة التي وصفها الله في الآية 23 بعبارة ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾، فإن السياق يجعل هذه الحقيقة واضحة. كانت للعزيز سلطة ومكانة عاليتين جدا في البلاد، إلا أن العزيز ليس الملك نفسه، كما سنرى في دراستنا لاحقا لآيات كريمة، وهي حقيقة غفل عنها الكثير من المفسّرين الذين

استخدموا لقبي «العزيز» و«الملك» بشكل متبادل.

تخبرنا هذه الآية الكريمة عن تسرّب خبر ملاحقة امرأة العزيز ليوسف خارج بيت العزيز ووصوله إلى أسماع نسوة في المدينة. ومن غريب ادعاءات بعض المفسّرين، كالعيّاشي والحويزي، هو قولهم بأنَّ يوسف هو الذي تحدّث عما حدث! مما لا شك فيه أن حشمة يوسف وأخلاقه الرفيعة كانت ستمنعه عن التحدّث لأحد عن محاولة زوجة العزيز إغوائه.

إن هنالك أكثر من احتمال عن كيفية تسرّب ذلك الخبر خارج بيت العزيز. إذ يمكن أن تكون امرأة العزيز نفسها قد أسرّت الأمر إلى شخص ما تأتمنه، أو أن يكون الشاهد هو الذي تحدّث بذلك لأحد ما وبالتالي انتقل الخبر إلى آخرين، أو يمكن أن يكون الخبر قد انتشر عن طريق أحد العاملين في بيت العزيز من الذي عرفوا بما دار، كما يمكن أن يكون العزيز نفسه قد تسبب بشكل غير مقصود في انتشار الخبر، وإن كان هذا احتمالا مستبعدا.

ومن المهم ملاحظة استخدام تلك المجموعة من نسوة المدينة للفعل ﴿تُرَاوِدُ﴾ بصيغة المضارع لا الماضي، أي «راودت». ويعكس هذا معرفتهنّ باستمرار امرأة العزيز في محاولتها الإيقاع بيوسف، أي لم تتوقف امرأة العزيز عن محاولاتها مع يوسف بعد حادثة شق القميص.

تعني كلمة «فتى» في العربية «شاب». أما إذا جاءت منسوبة إلى شخص ما، كما في ﴿فَتَاهَا﴾، فتعني الخادم. يرى المفسّرون بأنَّ كلمة ﴿فَتَاهَا﴾ تعني «عبدها» وتشير إلى أن يوسف كان عبدا في بيت العزيز، وهو تفسير قد يؤيّده أن العزيز «اشترى» يوسف. إلا أن من الممكن أيضا لكلمة فتى أن تعني الخادم الذي ليس بالضرورة عبدا مملوكا.

ويكشف قول نسوة المدينة ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ عن اعتقادهنّ بخطأ امرأة العزيز في مراودتها ليوسف عن نفسه. إلا أن من المهم أن انتقاد أولئك النسوة لسلوك امرأة العزيز لم يكن له دافع ديني ولا ذو علاقة بأنَّ تلك المرأة المتزوّجة كانت تريد إقامة علاقة غير شرعية، حيث سبق وأن ذكرنا بأنَّ التفسّخ الأخلاقي كان منتشرا في ذلك المجتمع. كان الخطأ في نظر النسوة هو شغف امرأة العزيز ذات المكانة المرموقة بمن ليس بأكثر من فتى لها.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31)﴾.

من المُرجّح أن النسوة اللاتي تشير إليهن الآية 30 كنّ من علية المجتمع وكنّ يعرفن امرأة العزيز شخصيا، وهذا يفسّر وصول خبر ما كُنَّ يتحدّثن به إليها ويفسّر دعوتها لهنّ في بيتها وطبيعة ما سنرى من سلوكها نحوهن.

وينسب الطباطبائي وصف الآية الكريمة لكلام النسوة بأنّه مكر في كلمة ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ إلى أن ذلك الكلام هدف إلى فضحها بين الناس. كما ذكر رأيا آخر وهو أن وصفه بالمكر يعود إلى أن النساء استخدمن كلامهنّ ذاك بدهاء كوسيلة حيث إن وصوله إلى أسماع امرأة العزيز كان سيجعلها تريهنّ يوسف، وهو رأي ذكره الطبري. ويشير القرطبي إلى رأي ثالث بأنّ امرأة العزيز كانت هي التي أطلعت النسوة على الأمر واستأمنتهنّ عليه فأفشين سرّها، ولذلك كان فعلهنّ مكرا. ويبدو من ظاهر الآيات الكريمة أن قول الطباطبائي هو الأصح.

قامت امرأة العزيز ردا على كلام النسوة بدعوتهن إلى بيتها، وهو معنى قوله ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾، حيث جهّزت لضيفاتها طعاما وفي ذهنها خطة ما. إن معنى ﴿أَعْتَدَتْ﴾ هو «جهّزت» أو «أعدّت»، أما كلمة ﴿مُتَّكَأً﴾ فقد اختلف المفسّرون في معناها، حيث ينص أحد الآراء على أنه بمعنى ما يُتّكأ أو يُستَنَد عليه. إلا أن سياق الآية الكريمة لاحقا يبيّن بأنّه كانت هنالك وليمة، أو على الأقل طعاما ما، من غير إشارة إلى تجهيز امرأة العزيز لذلك الطعام سوى قوله ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾. ويعني هذا بأنَّ تعبير ﴿مُتَّكَأً﴾ يعني ضمنيّا وجود طعام، وبالتالي يكون معنى هذه الكلمة «مجلسا يُتّكأ فيه لتناول الطعام». إلا أن هذا الاستنتاج لا يصح إذا كان الكتاب العزيز قد تجاوز عن ذكر تجهيز الطعام صراحة بسبب من بيان الإشارة إليه ضمنيا في ما يلي من الآية الكريمة.

ولاحَظَ الطباطبائي بأنَّ أمر امرأة العزيز ليوسف بالمجيء إلى متّكأ النساء، وهو

قولها ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾، كان أمرا «بالخروج عليهنّ» وليس «الدخول عليهنّ»، وفسّره بأنَّ يوسف كان في مكان داخل مكان المأدبة، أي مخدعا داخل الغرفة التي كانت النساء جالسات فيها. ولكن بالرغم من أهمية ودقة ملاحظة الطباطبائي حول الفعل المُستخدَم، فإن تفسيره لا يبدو مقنعا. إن هنالك في الواقع عدد من التفسيرات الممكنة. فمثلا هنالك التفسير الضعيف الاحتمال بأنَّ المكان الذي استقبلت فيه امرأة العزيز النسوة كان «خارج» بناء البيت، مثلا في حديقة أو باحة الدار، ولذلك أمرت يوسف «بالخروج» من البيت عليهن. ويستخدم القرآن العظيم فعلا تعبير «يخرج على» أو «يخرج إلى» للإشارة إلى خروج من هو في الداخل على من هو في الخارج، ويستخدم تعبير «يدخل على» للإشارة إلى دخول من هو في الخارج على من هو في الداخل. إلا أن استخدام تعبير ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ في الآية الكريمة يمكن أن يعود إلى أن النساء وإن كُنَّ داخل البيت فإنهنّ أصلا قادمات من الخارج إلى البيت الذي كانت تدور فيه الأحداث والذي هو مكان عيش يوسف، ولذلك فدخوله إلى الغرفة التي كنّ فيها كان بمثابة خروجه من البيت إليهنّ.

إلا أننا نرجّح التفسير التالي الأعمق لوصف دخول يوسف إلى مكان تواجد النساء بأنّه خروج عليهنّ. من الواضح من تفاجؤ النسوة بجمال يوسف بأنّهن لم تسبق لهنّ رؤيته من قبل. بل لا يحتوي قولهنّ ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ على أية إشارة على أنهنّ كن على علم بجماله الخارق. ولنتذكر أيضا بأنَّ يوسف كان قد جُلِبَ إلى بيت تلك المرأة وهو طفل صغير لذلك فمن الممكن أن امرأة العزيز كانت قد حرصت على أن لا يعلم أحد بجماله، وهو أمر ربما يعني بأنّها منعته من أن يظهر امام الناس. من المُستبَعَد أن يكون يوسف نفسه قد تجنّب الخروج على الغرباء بشكل عام لسبب أو لآخر، والأرجح هو أن امرأة العزيز كانت وراء اختفائه عن أعين الناس، ربما لأنها كانت تعلم بأنَّ إطلاع الناس على جماله سيجعل نسوة أخريات يحاولن إغواءه، وهو فعلا ما ستحاول النسوة اللاتي تذكرهنّ الآية الكريمة القيام به بعد رؤيتهنّ له. فإذا أخذنا هذا بنظر الاعتبار يصبح المعنى الأعمق لقول امرأة العزيز ليوسف ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾

هو خروج يوسف على النساء لا مكانيا فقط، إنما أيضا خروجه إليهنّ من ستره ومخبأه كي يرين جماله.

ظنّت النساء أن السكّين التي أُعطِيت لكل واحدة منهنّ كانت لقطع الطعام، إلا أن امرأة العزيز كان في بالها شيء مختلف تماما. إذ إنها أمرت يوسف أن يأتي إلى حيث كن النساء اللاتي ما إن رأينه حتى أعظمن جماله وأعجِبنَ به، وهو معنى قوله ﴿أَكْبَرْنَهُ﴾. ولـم تستطع النساء أن يملن ببصرهنّ عنه، فتسبّبت كل واحدة منهنّ في جرح يدها بسكّينها التي كانت من المفروض أن تقطع بها الطعام.

لكن تطرح هذه الحادثة السؤال عن كيفية توقّع امرأة العزيز بما كان سيحدث للنساء عند رؤيتهنّ ليوسف والسكاكين في أيديهن! والجواب هو أن امرأة العزيز نفسها كانت قد مرّت مرارا بذلك الموقف وأنها كثيرا ما جرحت نفسها وهي تستعمل السكين أو تسهو عن فعل شيء ما بشكل صحيح في حضور يوسف وذلك لذهاب انتباهها إليه عما في يديها. لاحظ تأكيد الله على أن امرأة العزيز أعطت كل واحدة من النساء سكّينا: ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا﴾. من الممكن أن في هذا التأكيد إشارة إلى أن إعطاء كل ضيف من الضيوف سكّينا عند تناول الطعام لم يكن تقليدا سائدا وأن امرأة العزيز فعلت ذلك عمدا لكي يحدث للنسوة ما حدث. ومن المرجّح أيضا أن امرأة العزيز أمرت يوسف أن يبقى في مجلس النساء لفترة من الوقت بينما كانت في نفس الوقت تدعوهن إلى تناول الطعام لتجعلهنّ يجرحن أيديهنّ. ويبدو أن استخدام الله للفعل ﴿قَطَّعْنَ﴾ بصيغة المبالغة هو إشارة إلى جرح كل واحدة منهنّ ليدها أكثر من مرة او لكون الجروح عميقة.

إن ما حدث للنسوة، وغير ذلك من الأحداث ذات الصلة في قصة يوسف بشكل عام، توحي بأنَّ الوقع الخاص لحضوره لم يعد لجمال شكله فحسب. فمن الواضح أن هذا النبي الكريم كان يتمتّع بحضور روحي متميّز يترك أثرا كبيرا على من في محيطه من الناس، فيتأثّر كُل بحسب طبيعته.

كان رد فعل النسوة على رؤية يوسف قولهنّ: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. إن تعبير ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ هو صيغة تنزيه لله غالبا ما تُستخدَم لإنكار

واستنكار أمر ما، وهو الشكل المُستخدَمة به في هذه الآية الكريمة حيث نرى النساء وكأنّهنّ ينكرن أن يكون يوسف من البشر. إن هذا لا يعني إنكار النسوة «فعلا» لكون يوسف من البشر، وإنما يمثّل قولهنّ صيغة مبالغة للتأكيد على تفوقه جمالا على البشر.

ولكن هل يعني ورود عبارة ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ على لسان النسوة بأنّهنّ كن يعرفن الله؟ من الممكن أن تكون العبارة مُستعمَلة في الآية الكريمة بمعناها المجازي العام لا الحرفي حيث إنها وعبارات أخرى شبيهة تُستَخدَم عادة لمعناها العام لا لأمر له علاقة باحتوائها على اسم الجلالة على وجه الخصوص. إلا أن من الممكن أيضا أن تكون الإشارة فعلا إلى الله. لقد كان ذلك المجتمع يعبد آلهة غير الله، وكما يتّضح في خطاب يوسف لصاحبيه في السجن: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (يوسف: 40). من الممكن طبعا أن ذلك المجتمع كان مشركا بالله كحال العرب قبل الإسلام الذين كانوا يؤمنون بالله إلا أنهم كانوا يشركون معه آلهة أخرى. وحين نقول أنهم ربما كانوا يؤمنون بالله فإننا لا نقصد الله بصفاته القرآنية ولكن ككبير الآلهة. ومن الممكن أن إشارة القرآن إلى كبير الآلهة في مجتمع العزيز باسم الجلالة تعود أيضا إلى أن كبير الآلهة الذي عبده أولئك القوم كان تشويها لصورة الله الذي كان قد عرفه ذلك المجتمع عن طريق بعض الأنبياء. من الجلي أن القرآن استخدم اسم الجلالة المألوف لدى العرب بدل الاسم القديم وغير المألوف الذي استخدمه قوم العزيز. فمثلا يشير القرآن إلى الإله الذي عبده العرب قبل الإسلام بالاسم الذي عرفوه به، الله، إلا أن صورة الله في القرآن تختلف بشكل جوهري عن صورته عند العرب، وهي صورة مشوّهة عن الله الواحد الذي كانوا قد عرفوه من القِدَم عن طريق من ظهر في تلك الأرض من أنبياء، كسيدنا إبراهيم.

ومن الواضح أن النساء قصدن من تشبيه يوسف بالمَلَك في قولهم ﴿مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ الإشارة إلى جماله الخارق.

ولكن كما أشرنا، إن التأثير الذي كان يتركه يوسف على الناس كان بسبب من

روحانيّته أيضا، إلا أن النسوة ما كنّ مدركات لذلك طبعا.

أما كلمة ﴿كَرِيمٌ﴾ فتعني النبيل، والسامي، وذو المكانة العالية. وهنا أيضا يبرز سؤال عما إذا كانت عبارة ﴿مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ تعني بأنَّ المجتمع الذي انتمت إليه النسوة كان يؤمن بوجود الملائكة وفيما إذا كانوا ينظرون إلى الملائكة بشكل معيّن، والمرجّح هو الجواب بالإيجاب، رغم أن هذا لا يعني بأنَّ نظرة ذلك المجتمع كانت قريبة من الصورة القرآنية الحقّة للملائكة.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (32)﴾.

بعد أن نفّذت امرأة العزيز خطّتها بنجاح وجرحت النسوة أيديهنّ نتيجة رؤيتهّن ليوسف ردّت امرأة العزيز على ما كُنَّ يقلنَ عنها قبل ذلك بقولها: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾، أي أن هذا هو يوسف الجميل الذي لُمتنّني على مراودتي له عن نفسه، وكأنها تقول لهنّ بأنّهنّ لو كُنَّ مكانها لفعلن مثل فعلها بدليل ما ظهر عليهنّ من تأثّر بيوسف. ويعكس هذا الموقف الفساد الأخلاقي الذي كان شائعا في ذلك المجتمع حيث يبدو من سياق الآية الكريمة بأنَّ اتخاذ النساء لعشّاق كان أمرا طبيعيا.

وبعد أن برهنت امرأة العزيز لأولئك النسوة بأنَّ كل واحدة منهنّ كانت ستحاول إغواء يوسف كما حاولت هي لو كان يوسف فتاها، اعترفت صراحة بأنّها راودته عن نفسه، كما اعترفت بأنّه ﴿اسْتَعْصَمَ﴾، أي طلب العصمة من الله ورفض مطاوعتها وعصى لها طلبها. إلا أنها زادت على ذلك بأن توعّدت أن تلقيه في السجن وأن يُعامَل باحتقار معاملة ﴿الصَّاغِرِينَ﴾، أي «الأذلاء»، إذا أصر على رفضه الانصياع لها. من الواضح من توعّدها بأنها كانت ذات سلطة ونفوذ، وذلك طبيعي بحكم كونها زوجة العزيز، إلا أنه قد يكون ذلك أيضا لأنها كانت من عائلة متنفّذة.

إن اللام في كلمة ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ هي لام القسم والنون في نهاية الكلمة هي نون تلقّي القسم.

ويذكّرنا تهديد امرأة العزيز بطلبها من زوجها يوم افترت على يوسف الكذب واتّهمته بمراودته لها عن نفسها بأن يضعه في السجن أو أن يعذّبه: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ويؤكّد تهديدها الجديد مرة أخرى أن اهتمامها بيوسف لم يكن حبّا حقيقيّا وإلا لما عزمت على التصرّف نحوه بهذا القدر من الظلم والعدوان إذا لم يطعها.

لما كان الهدف من تهديد امرأة العزيز إجبار يوسف على الانصياع لها، فإن من الواضح أنه حدث في حضور يوسف. ومما يؤكّد هذا آية 50 التي تبيّن بأنَّ يوسف كان على معرفة بعلم النساء اللاتي قطّعن أيديهنّ بسبب وضعه في السجن.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33)﴾.

مما يلفت الانتباه في دعاء يوسف هو ورود كلمتي ﴿يَدْعُونَنِي﴾ و﴿كَيْدَهُنَّ﴾ بصيغة الجمع لا المفرد، في إشارة إلى النسوة وليس امرأة العزيز فقط. والتفسير المحتمل الأول هو أن الفعل ﴿يَدْعُونَنِي﴾ يعني بأنَّ أولئك النسوة أخذن هنّ أيضا في حثّ يوسف على الانصياع لطلب امرأة العزيز، وأن كلمة ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ هي وصف آخر لفعلهنّ هذا. إلا أن التفسير الأرجح هو أن أولئك النساء، ومن بعد أن شاهدن يوسف، أردن هنّ أيضا إقامة علاقات معه، وهو أمر يمكن أن يكنّ قد أعلمنه به في وقت حضورهنّ إلى بيت امرأة العزيز أو ربما عن طريق وسطاء أوصلوا إليه الأمر. ومما يرجّح هذا على التفسير السابق هو قوله ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ الذي يعني «أشتاق إليهنّ». ويشير هذا الاحتمال الأخير إلى الحقيقة التي مر ذكرها من أن ذلك المجتمع كان في حالة من التحلل الأخلاقي بحيث يبدو أن اتخاذ عشّاق كان أمرا شائعا بين المتزوجات، أو على الأقل بين علية المجتمع.

إن حتمية أن يكون كيد النسوة قد حدث في فترة لاحقة للقاء يوسف بهنّ في حضور امرأة العزيز الموصوف في الآية الكريمة السابقة يعني بأنَّ دعاء يوسف في الآية الكريمة مدار البحث قد حدث هو الآخر في فترة لاحقة لذلك اللقاء.

إن دعاء يوسف ردّا على تهديد امرأة العزيز يظهر طهارة هذا النبي المُخلَص سليل الأنبياء. فهو يفضّل دخول السجن على ارتكاب المعصية وقد دعته إليها نساء من أرفع طبقات المجتمع، بل ويقول في دعائه بأنّه إذا كان يجب عليه أن يختار بين دخول السجن أو طاعة تلك النسوة فإنه يطلب من الله صرفهنّ عنه وتركه يدخل السجن مع ما في السجن من مشقة ومعاناة. إن هنالك أدب عظيم في دعاء هذا النبي الكريم حيث يخجل أن يدعو ربّه أن يصرف عنه كيد النساء وأن ينجّيه من السجن في الوقت نفسه ويكتفي بدعاء واحد وكأنه يقول لله: «اصرف عني هذه الغواية وأنا راضٍ بدخول السجن».

ويوضّح دعاء يوسف ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ توكّله على الله بإقراره بأنَّ مقاومته الناجحة لما تريد النسوة هي هبة إلهيّة. ثم يستمر يوسف في دعائه واصفا ارتكاب الفحشاء ومطاوعة أولئك النسوة والسقوط في كيدهنّ بأنّه نوع من الجهل: ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34)﴾.

يعلمنا الله هنا باستجابته لطلب يوسف فصرف عنه كيد النسوة، ولكن ليس في ظاهر الآية الكريمة تفاصيل عن كيفية حدوث ذلك، إلا أن المعنى هو أن الله جعل يوسف في منأى من المعصية التي دعته إليها النسوة.

أما ذكره لاسميه الحُسنَيين ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فهو إشارة إلى سماعه واستجابته لدعاء يوسف، وعلمه بما كان وسيكون من الأمور.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35)﴾.

تخبرنا هذه الآية الكريمة عن قرار سجن يوسف. يذكر الطبري رأيا ينص على أن ضمير الجماعة «هم» في قوله ﴿لَهُمْ﴾ يشير إلى شخص واحد وأن استخدام صيغة الجماعة يعود إلى عدم تحديد الآية الكريمة لهوية ذلك الشخص. لكننا لا نتّفق مع ذلك التفسير، خصوصا وأن الفعل ﴿يَسْجُنُنَّ﴾ قد جاء هو الآخر بصيغة الجماعة. إننا نأخذ بظاهر الآية الكريمة بأنّه كانت هنالك جماعة مسؤولة عن سجن

يوسف لا شخص واحد، وهو استنتاج يتّفق مع تحقيق الملك لاحقا مع جماعة النسوة حول ما حدث ليوسف.

من المهم ملاحظة استخدام الله للضمير «هم»، الذي يستخدم للإشارة إلى مجموعة تتكون من أكثر من اثنين من ذكور أو ذكور وإناث، وليس «هنّ»، الذي يُستَخدَم حصرا للإشارة إلى جمع من الإناث، مما يعني بأنَّ أولئك النسوة لم يكنّ وحدهنّ مسؤولات عن دخول يوسف السجن. من الواضح أنهن لجأن إلى الاستعانة بأحد رجال النفوذ لوضع يوسف في السجن، وليس من المستبعد أن يكون ذلك الشخص العزيز. ويرى الطباطبائي بأنَّ ضمير الجماعة المذكّر يشير إلى امرأة العزيز والعزيز وأعوان له، إلا أن من المرجّح أنه كان للنساء الأخريات أيضا يدا في ما حدث، ولو من باب التحريض، حيث كنَّ في قلب الأحداث. وسنرى لاحقا طلب يوسف من الملك التحقيق مع أولئك النسوة بشأن كيدهنّ له.

ولكن إذا كانت كل هذه الخطط من وضع امرأة العزيز، وربما بقية النسوة أيضا، بهدف إغواء يوسف، فما الذي دفع العزيز إلى مشاركتهن في مخطّطهن ذاك؟ من الممكن طبعا أنه كان فقط يطيع ما أرادت منه زوجته المُسَيطرة. إن سجن العزيز ليوسف يعني أيضا وضع يوسف بعيدا عن منال زوجته. كما ليس من المستبعد أن العزيز ومن معه سجنوا يوسف بتهمة التحرّش بامرأة العزيز وربما بقية النسوة لتحريف الحقيقة التي كانت قد شاعت في المدينة عن محاولتهنّ إغوائه.

تعني عبارة ﴿بَدَا لَهُمْ﴾ أنهم «قرّروا بعد تفكير بالأمر»، ومعنى الآية الكريمة باختصار هو أنهم قرّروا من بعد أن رأوا الآيات أن يسجنوا يوسف لفترة ما. ويجمع المفسّرون على أن ﴿الْآيَاتِ﴾ في الآية الكريمة تعني العلامات والدلائل على تعفّف يوسف ورفضه للفحشاء، حيث رأى العزيز والشاهد والنسوة الدليل وراء الآخر على عفّة يوسف. لاحظ كيف تبيّن الآية الكريمة بأنَّ رؤيتهم للآيات كانت هي السبب وراء سجنهم ليوسف. وتفسير ذلك هو أنه من بعد أن تأكّدت امرأة العزيز، وربما بقية النسوة كذلك، بأنَّ يوسف كان مُصِرًّا على الحفاظ على عفّته وإطاعة ربه، لم يجدن من وسيلة لإجباره على الانصياع لهنّ سوى وضعه في السجن ﴿حَتَّى

حِينٍ﴾. وهذا «الحين» المقصود هو وقت حدوث ما كانوا يتأملون من انهيار إرادة يوسف وموافقته على ما كانوا يريدون منه. من الواضح أن «الحين» الذي كان ينتظره العزيز كان أمرا آخر، ربما نسيان الناس لما شاع عن تولّع زوجته بيوسف أو انتهاء اهتمامها به. إن عدم قدرتنا على أن نرجّح احتمالا معيّنا على غيره من الاحتمالات لمعنى ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ في حالة العزيز يعود إلى عجزنا على أن نحدِّد بثقة موقفه من قصة زوجته مع يوسف بشكل عام.

ويشير استخدام لام القسم ونون تلقّي القسم في الفعل ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ إلى إصرار سجّاني يوسف على وضعه في السجن. كان دخول السجن ثمنا دفعه يوسف نتيجة تمسّكه بأمر الله ورفضه إطاعة النساء في ما دعونه إليه من معصية. لقد حقّقت امرأة العزيز بهذا تهديدها ليوسف في حضور النسوة يوم قالت: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَن مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾. إلا أن يوسف فضّل هذا قَدَرا على الوقوع في المعصية: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾.

6

يوسف في السجن

بعد أن شاهدنا في الفصل السابق كيف وُضِعَ يوسف في السجن ظُلما ستتابع في هذا الفصل ما حدث له في السجن إلى أن أنعم الله عليه بالحرية.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36)﴾.

انتهت الآية الكريمة السابقة بالحديث عن عزم أولئك الناس على وضع يوسف في السجن، فيما تبيّن هذه الآية والآيات التي تليها قيامهم بذلك.

يبدأ القرآن العظيم قصة يوسف في السجن بذكر دخول فَتَيين معه إلى السجن. لاحظ أن كلمة ﴿مَعَهُ﴾ تصف المكان لا الزمان. أي أن هذه الكلمة لا تعني بأنَّ الفتيين دخلا السجن «في نفس الوقت» الذي دخله فيه يوسف ولكنها تعني بأنَّهما دخلا إلى نفس السجن الذي كان فيه. تشير الآية ضمنيًا إلى أن دخول الفتَيَين إلى السجن بعد دخوله إليه، لكنّها لا تصرّح متى بعد دخول يوسف سُجِنَ الفتَيَان.

كما أشار المفسّرون إلى أن كلمة ﴿فَتَاهَا﴾ في الآية 30 تعني عبدها المملوك لها، فإنهم أشاروا إلى أن كلمة ﴿فَتَيَانِ﴾ في هذه الآية تعني عبدين مملوكين. ولكن كما ذكرنا في تفسيرنا للآية 30، ليس هذا سوى أحد المعاني المحتملة حيث يمكن لكلمة «فتى» أن تأتي بمعنى «خادم» بشكل عام سواء كان مملوكا أم لا.

في اللقطة التالية من حياة يوسف في السجن التي يطلعنا عليها القرآن نرى الفتيين وهما يستشيرانه لتفسير كل رؤيا شاهدها. ولما كان ذكر أحداث بشكل

متتالي في القرآن الكريم لا يعني بالضرورة وقوعها بعد بعض مباشرة أو حتى بعد فترة قصيرة، كما بيّنا في القسم 1-1، فإن من الخطأ التسرّع بالاعتقاد بأنَّ رؤية الفتيين لرؤيتيهما حدثت بعد دخولهما السجن مباشرة، وهو خطأ يقع فيه على سبيل المثال العيّاشي الذي يعتقد بأنَّ الفتيين شاهدا الرؤيتين في ليلة دخولهما السجن وأنهما سألا يوسف صباحا عن تأويلهما.

لاحظ أن تبريرهما لسؤالهما يوسف عن تأويل الرؤيتين هو أنه بدا لهما ﴿مِن الْمُحْسِنِينَ﴾. لا بد أن إدراك الفتيين لكون يوسف ﴿مِن الْمُحْسِنِينَ﴾ حدث بعد أن صاحباه مدة في السجن فعرفا عنه وشاهدا منه ما جعلهما يريان فيه تلك الصفة ويتأملان منه تأويلا صادقا لرؤيتيهما، وهذه المدة لا يمكن أن تكون مجرّد بضع ساعات أو حتى أيام. أي حتى إذا شاهدا الرؤيتين بعد دخولهما إلى السجن مباشرة، وهي فرضيّة لا دليل عليها في النص، فإن طلبهما من يوسف تفسيرهما لا بد وأن يكون قد حدث بعد فترة من ذلك، وعلى وجه التحديد بعد إدراكهما بأنّه كان ﴿مِن الْمُحْسِنِينَ﴾. لاحظ أيضا بأنَّ الآية الكريمة تخبرنا عن طلب الفتيين من يوسف تفسير رؤيتيهما في نفس الوقت، إلا أنها لا تخبرنا فيما إذا شاهدا تلكما الرؤيتين في نفس اليوم.

ويشير تعبير ﴿مُحسِن﴾ في القرآن العظيم إلى الإنسان الذي يتحلى بالصفات الطيبّة التي يريدها الله للإنسان مثل الإيمان، والصدق، والأمانة، والإخلاص، والرحمة، والتضحية، والسخاء، والعفو، والصبر، والمغفرة، وغيرها، وهي صفات جميلة يحبّها ويثمّنها الناس بشكل عام حتى وإن كانوا لا يتحلّون بها. وصفات مثل هذه لا تخفى، بل إن الكثير منها هي بطبيعتها مما يظهر على الإنسان أثناء سلوكه اليومي. ولما كان يوسف محسنا حقا، بدليل وصف الله له بذلك في الآية 22: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، فلا بد وأن الفتيان شاهدا خلال بقائهما معه في السجن علامات الإحسان ظاهرة عليه، مما يفسّر خطابهما له بعبارة ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِن الْمُحْسِنِينَ﴾.

إلا أن صفات الإحسان التي أشرنا إليها لا توحي بأنَّ المُحسِن هو شخص له

قدرة على تأويل الأحلام، فلِمَ ربط الفتيان بين كون يوسف ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ واعتقادهم بقدرته على تفسير الرؤى؟ من الاعتقادات التي سادت ولازالت سائدة بين الغالبية العظمى من الناس، بغض النظر عن أديانهم، هو وجود علاقة بين كون المرء ذي صفات طيبة وبين اكتسابه لقدرات خارقة أو روحية كما يُشار لها عادة. لذلك يمكن أن يكون هذا سبب طلب الفتيين من يوسف تفسير رؤيتيهما لهما، أي أنهما تأمّلا فيه القدرة على تفسير المنامين لأنه كان من المحسنين.

إلا أن التفسير الذي يبدو لنا أكثر رجحانا هو أنهما شاهدا خلال مصاحبتهما له في السجن دلائلا على قدرته على تأويل الرؤى أو امتلاكه لغيرها من القدرات الخارقة، حيث نرى فعلا في الآية القادمة ذكر يوسف لبعض ما أنعم عليه الله من القدرات الخارقة. وهكذا يعكس وصفهما له بتعبير ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ اعتقادهما بأنَّ صفاته الطيّبة هي أصل قدراته الخارقة. لم يصف الفتيان يوسف بأنَّه «من المؤمنين» أو «من المتقين» أو بأية صفة تبيّن نسبتهم لما شاهدا عليه من قدرات خارقة إلى دينه، لأنهما لم يكونا مؤمنين بذلك الدين.

أما رأي البعض الذي ذكره الحويزي بأنَّ ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تعني «ممن يحسن تأويل الرؤيا» فليس له ما يؤيده في القرآن العظيم. بل يخالف هذا الرأي حقيقة أن كلمة ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ وردت في القرآن العظيم دائما بالمعنى الذي ذكرناه اعلاه.

إن معنى عبارة ﴿إِنِّي أَرَانِي﴾ هو «إني رأيت نفسي في المنام»، وقد سبق وأن تحدّثنا عن معنى الفعل «رأى» في هذا السياق عند تفسيرنا للآية 4. إن معنى الفعل ﴿نَبِّئْنَا﴾ هو «أخبرنا» وكلمة ﴿تَأْوِيلِ﴾ هو «تفسير»، كما فصّلنا في تفسيرنا للآية الكريمة 6 في الفصل الثالث.

لاحظ استخدام القرآن العظيم لكلمة ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾، التي تحتوي على ضمير متّصل مفرد، بدل كلمة «بتأويلهما»، التي تحتوي على ضمير مثنّى، بالرغم من أن الإشارة هي إلى منامَين. وتفسير ذلك هو أن الإشارة اللغوية إلى المنامَين ليست مباشرة، حيث يعود الضمير المفرد في ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ إلى «موضوع» الكلام. أي كأن المتكلّم قال «نبّئنا بتأويل ما ذكرناه لك»، والذي هو المنامَين. أي أن الإشارة هنا إلى «الحديث» الذي يحتوي تفاصيل مناميهما.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(37)﴾.

يعود الضمير في كلمة ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ على كلمة ﴿طَعَامٌ﴾ في قوله: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾. ومعنى قول يوسف هو «إنني أستطيع أن أخبركم بنوع الطعام الذي سيأتيكما من قبل أن يأتي»[1].

أشار أحد الباحثين في دراسته عن سورة يوسف إلى أن الطعام المقصود ليس طعام السجن الذي اعتاده السجناء وعرفوا أوقاته، ولكن الطعام الذي يأتيهم من خارج السجن عن طريق زائريهم، وهو ما لا يمكن توقّع نوعه ولا وقت مجيئه[2].

---

(1) ذكر الطباطبائي رأيا خاطئا وغير مألوف عن معنى الضمير المتّصل في كلمة ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ وبالتالي معنى قول يوسف ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾. بالرغم من أن الطباطبائي اعتبر هذا الرأي بعيد الاحتمال وفقا لسياق النص القرآني، فإن من المفيد التطرّق له لتبيان مواضع ضعفه التي قد يسهو عنها البعض.
وينص هذا التفسير على أن الضمير المتّصل في كلمة ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ في هذه الآية الكريمة يشير إلى نفس ما يشير إليه الضمير في نفس تلك الكلمة في الآية السابقة، أي «الرؤيتين»، وبذلك يكون معنى كلمة ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ هنا هو «بتأويل الرؤيتين». وهذا بدوره يعني بأنَّ معنى ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ هو «سأنبئكما بتأويل الرؤيتين قبل أن يأتيكما أي طعام ترزقانه». إلا أن هذا المعنى الذي قادنا إليه التفسير أعلاه للضمير في ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ فيه عيوب واضحة تبيّن خطأه. **أولا**: إن هذا التفسير يجعل تركيب الجملة، وعلى وجه التحديد الكيفية التي تتكرّر فيها كلمة ﴿يَأْتِيكُمَا﴾، غريبا. **ثانيا**: يعني هذا التفسير بأنَّ يوسف ما كان سيؤول الرؤيتين مباشرة، إلا أن الآيات التالية تبيّن خطأ هذا الافتراض حيث نجده يؤول الرؤيتين مباشرة ومن دون أي ذكر لمجيء طعام أو أي شيء من هذا القبيل. **ثالثا**: إن الربط المزعوم بين تأويل الرؤيتين ومجيء طعام يبدو من غير معنى إلا اذا افترضنا بأنَّ يوسف لم يكن قادرا على تأويل الرؤيتين مباشرة وكأنه بذلك حدد للفتيين موعدا لتبليغهما بتأويل رؤيتيهما. إلا أن تفسير يعقوب لرؤيا يوسف وتفسير يوسف لاحقا لرؤيا الملك كانا كلاهما فوريّان ولم يتطلبا مهلة ما. لهذه الأسباب فإن التفسير أعلاه للضمير في ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ وما ينتج عنه من تفسير للآية الكريمة هما تفسيران خاطئان.

(2) طهماز، <u>الوحي والنبوّة والعلم في سورة يوسف</u>.

لاحظ أن قدرة يوسف الخارقة على معرفة نوع الطعام الذي سيأتي السجناء قبل مجيئه هي قدرة أخرى غير قدرته على تأويل الرؤى. فالأولى هي أيضا قدرة على معرفة حوادث مستقبلية ولكن ليس من خلال منامات وإنّما عن طريق إشارات معيّنة أعطى الله يوسف القدرة على تأويلها. وهذا يعود بنا إلى ما سبق وان ذكرناه في تفسيرنا للآية 6 من أن علم ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ الذي أنعم به الله على يوسف يشمل علم ﴿تَأْوِيلِ الأَحْلَامِ﴾ ولكن لا يقتصر عليه، والله أعلم بعدد وأشكال علم ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ التي أنعم بها على عبده يوسف.

لما كان ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ هو علم معرفة حوادث الماضي والحاضر والمستقبل من خلال تفسير مختلف أنواع الإشارات والمعلومات، فإن من الواضح أن هنالك أشكالا لانهائية من هذا العلم. فَلِمَ ذكر يوسف على وجه الخصوص قدرته على التنبؤ بنوع الطعام الذي سيأتي إلى السجن؟ يعود ذلك إلى طبيعة المُخاطَب. لقد كان يوسف ذو الحكم والعلم الواسعين يتحدّث إلى ساقٍ للخمر وآخر توحي رؤياه بأنّه كان خبّازا، أي شخصين بسيطين تتعلق مهنة كل منهما بالشراب والطعام، لذلك فلم يكن هنالك مثالا أقرب إلى مداركهما من الطعام.

كحال كل نبي من أنبياء الله، كان يوسف مأمورا في كل وقت ومكان بدعوة الناس إلى دين الإسلام لوجه الله. لذلك فقبل أن يبدأ بتأويل رؤيتي الفتيين أخذ أولا في إرشادهما إلى دينه دين الحق. وكان أول ما استهل به موعظته لهما هو إبلاغهما بما غفلا عنه من أن كل ما كان في حوزته من علوم هي عطاء من ربّه.

من غير الواضح من ظاهر الآيات الكريمة إذا ما كان الفتيان على علم بأنّ يوسف كان - بالإضافة إلى تأويل الرؤى - قادرا على معرفة نوع الطعام قبل أن يأتي إلى السجن. إلا أن من الواضح أنه تقصّد أن يذكر هذه القدرة الخارقة في بدء موعظته: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾، ليخبر الفتيين بأنّها وكل علومه هي من نِعَم ربّه عليه: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾. وأخبرهما بعد ذلك بأنّ هذا الرب العليم هو «الله»: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

لم يبغِ يوسف مجرّد إخبار الفتيين بأنَّ علومه هي من الله وإنما أراد استخدام هذه الحقيقة ليوصل إليهما ما يستطيع من الرسالة التي أنزلها عليه الله لينقلها إلى الناس. إن القدرة التي تقصّد يوسف ذكرها وقدرته على تأويل الرؤى، التي استشاره الفتيان بسببها، هما قدرتان على معرفة حوادث المستقبل. ولما كانت هاتين القدرتين هبتين من الله، فإن هذا يعني بأنَّ الله عالم بالغيب. ولما كان الله قد أخبَرَ بيوم حساب سيأتي في وقت ما في المستقبل، فإن هذا يعني بأنَّ الآخرة حق، وهذا هو ما أراد يوسف تبليغه بقوله ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾. أي قال يوسف لسائليه بشكل غير مباشر بأنّهما لما كانا قد أقرّا بأنّه مالك لعلم حق هما جاهلان به، فإنهما يجب أن يؤمنا بأنَّ الله الإله الواحد الأحد حق لأنه الرب الذي آتاه ذلك العلم. ولما كانا يؤمنان بأنَّ يوسف كان عالما بما سيحدث في المستقبل، بواسطة الله، فإن من المنطقي أن يؤمنا بيوم الحساب الذي كان يوسف على علم به من الله.

لاحظ أن تكرار الضمير المنفصل ﴿هُمْ﴾ في قوله ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ هو للتأكيد. أما القوم الذين يشير يوسف إلى تركه مِلّتَهم، أي عقيدتهم وسلوكهم، فمن الواضح أنهم قوم العزيز. ولا يعني قول يوسف بأنّه كان يوما ما من أتباع ملة أولئك القوم ثم تركها لاحقا، وإنما يعني بأنّه حين كان عليه أن يختار بين دخول السجن وبين اتّباع سلوكهم اختار دخول السجن. فباختياره للسجن اختار يوسف التمسّك بدينه وقيمه ورفض استبداله بالتحلّل الأخلاقي والدين الوثني لقوم العزيز وهو دين لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر.

ومن الواضح إذا بأنَّ يوسف حدّث صاحبي سجنه بقصّته في بيت العزيز. ومن الطبيعي أن يسأل السجناء بعضهم البعض عن سبب سجنهم، إلا أنّ يوسف كان له سببا خاصا حتّم إخباره لهما عن قصّته. لقد كان يوسف داعيا إلى الله وخليفته في الأرض، ومن الطبيعي أن يربط كل من يسمع دعواه بين ما يراه فيه ويعرفه عنه وبين ذلك الرب الذي يدعو إلى عبادته. لذلك فلا بد أن يكون يوسف قد حرص كل الحرص على أن يبيّن لصاحبي سجنه بأنّه لم ينته به الأمر في السجن لأنه امرؤ سوء

بل العكس تماما، حيث وُضِع في السجن لأنه إنسان صالح لم يرد الوقوع في الرذيلة.

ومن المهم هنا التأكيد على أن وصف يوسف لأولئك القوم بأنَّهم كانوا ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ لا يعني بالضرورة بأنَّهم لم يعبدوا ربّا كان لهم بمثابة كبير الآلهة، إذ لا يعتبر ذلك إيمانا بالله وفقا للقرآن. فالتعريف القرآني للإيمان بالله هو الإيمان بالله بصفاته التي عرّفها لنا، بما في ذلك كونه «الإله الواحد». ولذلك يصنّف القرآن الكريم الشرك بالله على أنه «كفر بالله» وليس «إيمان» به. فمثلا كان المشركون من أهل الجزيرة العربية في وقت نزول القرآن العظيم يعبدون الله، ولكن بسبب عبادتهم لآلهة أخرى معه نجده يصفهم في القرآن العظيم بأنَّهم كانوا غير مؤمنين به: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الحديد: 8). وينطبق الشيء نفسه على الإيمان باليوم الآخر. فمثلا مجرّد الإيمان بحياة أخرى بعد الموت لا يساوي الإيمان باليوم الآخر، لأن هذا الأخير يعني الإيمان باليوم الآخر كما هو حقا، أي كما وصفه الله في كتابه العزيز. سنعود إلى هذا الموضوع بتفصيل أكبر في تفسيرنا للآية 39.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38)﴾.

بعد أن أخبر يوسف صاحبي سجنه بأنَّه ليس من ملّة القوم الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ عرّفهما بأنَّ ملّته هي ملّة آبائه ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ﴾. لاحظ أن كلمة «آباء» تُستخدَم في القرآن للإشارة إلى الأجداد أيضا وليس الآباء المباشرين فقط، كما في قوله الكريم، على سبيل المثال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الدخان: 8). ثم فصّل يوسف للفتيين أساس دين آبائه بقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

لاحظ كيف يتكلّم يوسف عن أبيه يعقوب وعن نفسه بصيغة الماضي في قوله ﴿مَا كَانَ لَنَا﴾، أي مثلما يتحدّث عن أبويه إبراهيم وإسحق اللذَين كانا قد غادرا هذه

الحياة. وهذا تأكيد على أن توحيده وأبيه لله وتجنّبهما للإشراك به هو أمر محسوم لا تغيير فيه مثلما أن توحيد جدّيه إبراهيم وإسحق اللذين كانا قد انتقلا من هذه الحياة هو أمر مقضي ما كان يمكن تغييره.

يركّز يوسف في هذه الآية وفي الآية القادمة على تأكيد وحدانية الله وعلى أن التوحيد هو الدين الحق وأن الإشراك هو دين باطل. إن التوحيد هو أساس الدين، ولذلك فإن إعلان قبول المرء الإسلام دينا يبدأ بقراءة آية التوحيد: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّـهُ﴾ (محمّد: 19)، ومن ثم آية التسليم بأنَّ محمد هو رسول الله لتبليغ رسالة التوحيد: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـهِ﴾ (الفتح: 29). أما الإشراك فهو أكبر الذنوب، وهو ذنب لا مغفرة له: ﴿إِنَّ اللَّـهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء: 48).

ثم يستطرد يوسف ليؤكّد بأنَّ توحيده هو وآبائه لله ليس فضلا ربّانيا عليهم فحسب وإنما على الناس كذلك. إذ باختيار الله لإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف انبياءً موحّدين فإنه جعل للناس رسلا من بين أنفسهم يعلّمونهم التوحيد والإيمان باليوم الآخر وبكل ما علّمهم من دينه الحق. ويجدر بنا هنا أن نستشهد بحديث الرسول: «أفضل ما قلتُ أنا والنبيّين من قبلي «لا إله إلا الله»».

إلا أن يوسف يستدرك قائلا: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، مؤكدا نكران أكثر الناس لفضل الله ورفضهم لرسالة أنبيائه. وأكبر مظاهر كفر الناس بنعمة الله هو إشراكهم به. وإرشاد يوسف لصاحبي سجنه هو أحد وجوه شكره على نعمة الله عليه وعلى آبائه، وهو من أعمال الشكر التي أمر بها في قوله الكريم: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: 13).

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39)﴾.

من بعد أن حدّث يوسف صاحبيه في السجن عن دينه الحق وقارنه بالدين الباطل للقوم الذين تركهم، ناداهما بالعبارة الودّية ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ ليجذب انتباههما إلى المقارنة بين ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ و﴿اللَّـهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾. لاحظ

استخدام يوسف لخطاب النكرة في قوله ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ ليكون خطابه شاملا لكل الأرباب دون الله وليس مقصورا على آلهة معينة، بما فيها الآلهة التي كان صاحبا سجنه وقومهما يعبدونها. كما أن قوله ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ بدل «أرباب» فقط هو للتأكيد على أن أي جمع من ﴿أَرْبَابٌ﴾ يبقون حتما ﴿مُتَفَرِّقُونَ﴾.

على عكس استخدامه لصيغة النكرة في إشارته إلى طرف المُقارَنة الاول فقال ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ ولم يقل «الأرباب المتفرقون»، استخدم يوسف صيغة التعريف حين ذكر طرف المقارَنة الثاني فقال ﴿اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ولم يقل «إله واحد قهّار». فلو قال «إله واحد قهّار» لكانت المقارَنة بين آلهة متفرقّين وإله واحد، أي أي إله من غير تعيين، وهذا لا يجوز لأن أصل المقارَنة هو الإشارة إلى الإله الواحد. لذلك ذكر يوسف اسم ذلك الإله الأوحد فقال ﴿اللَّهُ﴾، ثم أتبع ذلك باثنتين من صفاته ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

وقوله ﴿الْوَاحِدُ﴾ للتأكيد على أن الله هو وحده الإله الذي لا إله غيره، وأما ﴿الْقَهَّارُ﴾ فتأكيد على أنه الغالب الذي لا يُغلَب وبالتالي فإن الاعتقاد بوجود آلهة أخرى معه هو اعتقاد يناقض نفسه. إذ لما كان الله هو القاهر لكل موجود آخر فلا معنى على الإطلاق للقول بأنَّ هنالك آلهة معه لأن كون هذه الآلهة المزعومة تحت قهر الله مثل غيرها من الموجودات ينفي أي تميّز لها عن غيرها من الخلق وينزع عنها أية صفة الهية. أما استخدام صيغة المبالغة ﴿الْقَهَّارُ﴾ بدل اسم الفاعل «القاهر» فهو للتأكيد على قدرة القهر الإلهية.

إن الدين الحق هو دين التوحيد. إلا أن هذا لا يعني مجرّد الإيمان بإله واحد، وإنما الإيمان بالإله الواحد. قد يعبد شخص ما موجودا معينا أو كائنا يعتقد بوجوده ويعتبره الإله الوحيد، إلا أن هذا ليس بدين التوحيد وإنما شكل آخر من أشكال الإشراك. إن التوحيد هو الإيمان بأنَّ الله بالذات هو الإله الواحد. لاحظ أن الآية الكريمة التي تمثّل شهادة التوحيد في الإسلام تنص على أن ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وليست مجرّد عبارة إيمان بإله واحد مثل «لا إله الا إله واحد».

وبالإضافة إلى ما تقدّم، فإن الإيمان بأنَّ الله هو الإله الوحيد لا يعني مجرّد

الإيمان بأنَّ اسم الإله الواحد هو «الله» وتصوّره كيفما شاء. بل يعني الإيمان بوحدانية الله الإيمان بصفاته التي وصف بها نفسه في كتابه العزيز، كما في هذه الآيات الكريمة مثلا:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر: 22 - 24).

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: 103).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الحديد: 4 - 6).

ومن البديهي أن لا يمكن للإنسان أن يكون في حالتي توحيد وإشراك في نفس الوقت لأنهما صفتان متناقضتان بالتعريف تلغي إحداهما الأخرى. إلا أن ما قد لا يدركه الكثيرون بشأن هاتين الحالتين المتناقضتين هو أن كل إنسان محتوم عليه بأن يكون في واحدة منهما في كل وقت. أي إذا لم يكن المرء من الموحّدين فهو حتما من المشركين، وإذا لم يكن من المشركين فإنه حتما من الموحّدين. مثلما من المستحيل أن يكون المرء موحّدا ومشركا في نفس الوقت فمن المستحيل أيضا أن لا يكون مشركا ولا موحّدا.

لا يختلف الإلحاد في جوهره عن الإشراك، لأن الإلحاد هو اعتبار «الأسباب»، مثل قوانين الطبيعة، المحرّكات الحقيقية للحوادث وأن هذه الأسباب قائمة بذاتها لا تحتاج إلى إله يعطيها مقوّمات وجودها واستمرارها. أي بينما يجعل الإشراك آلهة أخرى مع الله، فإن الإلحاد ينكر وجود الله وينسب إلى المادة صفات إلهية جاعلا منها بديلا مساويا لله.

إذاً ليس خطاب يوسف في الآية الكريمة أعلاه مجرّد إنكار لوجود آلهة متفرّقة، ولكنه إنكار لوجود أيّة آلهة سوى الله، وتأكيد على أن الله هو الإله ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (40)﴾.

لاحظ أن الضمير ﴿أَنْتُمْ﴾ يشير إلى صاحبي يوسف في السجن وقومهما في ذلك الوقت، فيما تشير كلمة ﴿آبَاؤُكُمْ﴾ إلى الأجيال التي مضت من أجدادهم الذين كانوا جميعا مشركين، عابدين لآلهة غير الله.

بدأ يوسف أولا بتفنيد تلك الآلهة المزعومة مبيّنا بأنّها مجرّد أسماء بلا مُسمَّيات إلهية حقيقية، سائقا دليلين على ذلك. **الأول:** هو أن واضعي هذه الأسماء ليسوا سوى عابديها أنفسهم، أي أن الأمر لا يعدو أن يكون اختراع أناس لآلهة يعبدونها توارثها من بعدهم أبناؤهم وأحفادهم. **والثاني:** هو أن الله، الإله الحق الذي لا يُؤْخَذ الحق إلا منه، لم يُنزّل أي ﴿سُلْطَانٍ﴾، أي دليل أو برهان، على أن هذه الأسماء هي لآلهة حقيقية. أي كأن يوسف قال لصاحبي سجنه بأن الخبر عن إله ما لا يمكن أن يأتي إلى البشر من أنفسهم، إذ ليس لبشر من وسيلة لمعرفة وجود إله ما، حيث إن أي علم مثل هذا يجب أن يأتي من إله. وهذا الإله يجب أن يكون الله، الذي لا إله غيره.

ثم يبيّن يوسف بأنَّ الله يحكم بما يشاء: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، ويستطرد مؤكّدا بأنَّ الله قد حكم بوجوب عدم عبادة أي إله سواه لأنه الإله الوحيد.

ثم يصف يوسف أمر الله ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ بأنَّه ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، أي الدين القويم الحق. ويختم يوسف قوله بالإشارة إلى أن أكثر الناس جاهلين بأنَّ الإيمان بالله وحده هو الدين الحق: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. لاحظ تشابه نهاية هذه الآية الكريمة مع نهاية الآية الكريمة 38: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (41)﴾.

خاطب يوسف مستمِعيه مرة أخرى بعبارة ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ جذبا لانتباههم لأنّه على وشك أن يغيّر موضوع الحديث لينتقل إلى تفسير رُؤيتيهما. أشار يوسف إلى أن أحدهما سيسقي ربّه خمرا، أي أنه كان سينجو من السجن وأي عقاب كان مُتوَقَّعا له، وأن الآخر كان سيُصلَب فتأكل الطير من رأسه.

ويقول ابن كثير بأنَّ يوسف لم يعيّن المُخاطَب في حالة كل تفسير لئلا يحزن السجين الذي كان سيُصلَب. إلا أن هذا التفسير يتجاهل حقيقة أنّ عدم تحديد السجين المصلوب كان على الأغلب سيجعل كلي السجينين في حالة قلق وحزن شديدين لا العكس. أما الدليل الذي لا يقبل الشك على خطأ تفسير ابن كثير فهو وضوح التفسير الذي يعود إلى كل واحدة من الرؤيتين. فمن الواضح أن الشخص الذي كان سيسقي ربّه، أي سيّده، خمرا هو الذي رأى نفسه يعصر خمرا، وأن الشخص الذي سينتهي به الأمر بالصلب فتأكل الطير من رأسه هو السجين الذي رأى نفسه يحمل خبزا تأكل الطير منه.

إن استخدام كلمتي ﴿أَحَدُكُمَا﴾ و﴿الْآخَرُ﴾ للإشارة إلى السجينين يتماشى مع أسلوب القرآن العظيم في اختيار ما قل ودلّ من التعابير والجمل، إذ إن وضوح انتماء كل تفسير إلى إحدى الرؤيتين جعل من الممكن الاكتفاء باستخدام تلك الكلمتين للإشارة إلى كل من السجينين من غير الحاجة إلى وصفهما بتفصيل أكبر.

ويرى الكثير من المفسّرين بأنَّه بعد تفسير يوسف للرؤيتين قال الشخص الذي كان مكتوبا له الصلب بأنّه كان قد كَذَب بشأن الرؤيا التي طلب تفسيرها من يوسف وأنه في الواقع لم يرَ شيئا، مما جَعَلَ يوسف يقول: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، بمعنى أن هذا الأمر سيحدث مثلما فسّره. إلا أنه ليس في ظاهر الآية الكريمة ما يشير إلى قول السجين لما جاء في رواية المفسّرين. ولم يكن قول يوسف ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ ردّا على تعليق لأحد السجينين وإنما

تأكيدا على أن تفسيره للرؤيتين هو تفسير حق محتوم له أن يحدث، ذلك لأنه كان قد نسب علمه بتأويل الأحاديث إلى الله حين قال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾. أي أراد يوسف تذكير صاحبي سجنه بأنّه لما كان علم تأويل الأحاديث الذي امتلكه علم من الله فإنه علم حق وبالتالي توجّب تحقّق تفسيريه للرؤيتين.

سنرى في ما سيلي من آيات بأنَّ «الرب» الذي ذكر يوسف في تفسيره بأنَّ السجين الناجي كان سيعمل في خدمته هو الملك. إلا أن من المرجَّح بأنَّ عمل ذلك السجين ساقيا للملك بعد خروجه من السجن مباشرة يعني بأنَّه كان ساقيا له قبل دخوله للسجن وانه أُعيد إلى عمله ذاك بعد إخراجه من السجن. إذ من المُستَبعَد أن يُمنَح شخص ما وظيفة ساقي الملك بعد خروجه من السجن مباشرة. بل يوحي سياق القصة بأنَّ السجينين كانا في خدمة الملك قبل دخولهما السجن.

ولما كانت في رؤيا السجين الناجي إشارة إلى مهنته كساقي فإن من المرجّح أن رؤيا السجين الثاني تعني بأنَّه كان خادما في مطعم الملك أو مسؤولا عن طعامه. ويبدو أن شيئا ما حدث يتعلّق بخدمتهما في قصر الملك أدى إلى اتّهامهما ووضعهما في السجن. كما أن صلب أحدهما يعني بأنَّ التهمة كانت خطيرة، فيما يبدو بأن السجين الناجي تمت تبرئته من تلك التهمة. أما القصص التفصيلية عن سبب دخول الفتيَين إلى السجن التي وردت في كتب التفسير فليس في كتاب الله ما يؤيّدها.

من المرجّح أن ذلك السجن كان سجنا خاصا بدليل أنه حوى سجين العزيز وسجيني الملك.

ويشغل تفسير رؤيتي السجينين آية كريمة واحدة بينما تشغل الموعظة الإرشادية التي بدأ بها يوسف كلامه أربع آيات كريمة، 37-40. يشير هذا إلى استغلال يوسف لما آتاه الله من علم تأويل الأحاديث في خدمة ربه والدعوة إلى صراطه المستقيم.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42)﴾.

بعد أن فسّر يوسف لصاحبي سجنه رؤيتيهما طلب من الذي كان سينجو من السجن، أي ذلك الذي كان سيعصر لسيّده خمرا، أن يذكره عنده.

قد يتبادر إلى ذهن البعض الاعتقاد بأنَّ الفعل ﴿ظَنَّ﴾ في الآية الكريمة يعني بأنَّ يوسف لم يكن متيقّنا من تفسيره، حيث يرد هذا الفعل وتصريفاته المختلفة في القرآن العظيم بمعنى الحدس أو التخمين، أي المعرفة غير اليقينية التي يمكن أن تشير إلى معلومات غير صحيحة، وكما في هاتين الآيتين الكريمتين على سبيل المثال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (البقرة: 78)، ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (النساء: 157). إلا أنه لا بد أن يكون لكلمة ﴿ظَنَّ﴾ في قوله ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾ معنى آخر. إذ كيف يمكن أن يكون يوسف غير متيقّن من تفسيره وقد وصف مصدره بأنّه علم إلهي في قوله ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾؟ وكيف يمكن أن ينسب يوسف تفسيره هذا إلى علم ربّاني ويستخدمه برهانا في إرشاد صاحبي سجنه إلى دين الله الحق بينما في داخله هو نفسه شك في حقّانية التفسير؟ كما يعكس قول يوسف ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ تيقّنه المُطلَق بأنَّ الأمر سيحدث كما فسّره. وفعلا فإن لكلمة «الظنّ» في القرآن العظيم معنى ثانٍ مختلف تماما عن المعنى أعلاه. إذ يمكن للظن أن يأتي أيضا بعنى «الاعتقاد اليقيني»، وكما نرى في الآيات الكريمة التالية التي تتحدث عن يقين المؤمنين باليوم الآخر:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: 45، 46).

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ

يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّـهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّـهِ وَاللَّـهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: 249).

ومن الواضح إذا أن معنى «الظن» في القرآن العظيم يعتمد على السياق الذي يرد فيه. لاحظ أن المرتين اللتين ورد فيهما فعل «الظن» أعلاه تتعلّقان بيوم القيامة الذي هو حدث مستقبلي مثلما كان نجاة السجين الذي أشار إليه يوسف حدث مستقبلي في حينه. ولذلك فإن كلمة ﴿ظَنَّ﴾ في عبارة ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾ تعني «تيقّنَ»، أي تيقَّنَ من نجاته في المستقبل.

طلب يوسف من السجين الذي كُتِبَت له النجاة أن يذكره عند سيّده: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾. يرى البعض بأنَّ معنى هذا الطلب هو أن يوسف أراد من السجين أن يذكر لسيّده مآثره وقدراته الخارقة علّه يتدخّل فيطلق سراحه. إلا أننا سبق وأن بيّنّا في تفسيرنا للآية الكريمة 37 بأنَّ من المؤكد أن يوسف كان حدّث صاحبي سجنه عن قصة سجنه ظلما، ولذلك فإن طلبه من ذلك السجين أن يذكره عند ربّه يعني طلبه أن يقص عليه ما تعرّض له من ظلم. وسنرى بأنَّ سيّد السجين الناجي كان الملك نفسه وهو بالتالي الشخص المثالي لرفع ما حلّ من ظلم بيوسف لأن الملك طبعا أعلى منزلة من كل سجّاني يوسف، بما فيهم العزيز. يجب أن نلاحظ هنا أيضا بأنَّ طلب يوسف يعني علمه بأنَّ الملك هو السيّد الذي كان ذلك السجين سيسقيه خمرا.

ثم يخبرنا الله بأنَّ نسيان السجين الناجي لذكر يوسف أمام سيّده تركه منسيّا تماما في سجنه: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾. يبدو أن هذه الآية الكريمة تخبرنا عن طول الفترة التي بقيَها يوسف في السجن، مما يعني بأنَّ حوادث دخول الفتيين السجن معه ومن ثم خروجهما منه، واحد إلى بيت سيّده والآخر إلى مكان صلبه، وقعت كلها بعد دخول يوسف إلى السجن بفترة قصيرة. واختلف المفسّرون في تحديد عدد السنين التي قضاها يوسف في السجن، حيث تراوحت التقديرات بين سنة وأربع عشرة سنة أو أكثر. إن كلمة ﴿بِضْعَ﴾ لا يمكن أن تعني سنة أو اثنتين، ومن المُستبعد أن تعني أكثر من عشرة سنين. إن الافتراض بأنَّ الفترة كانت حوالي

ستة سنين لن يكون بعيدا جدا عن الحقيقة.

وسبق وأن أشرنا بشكل مختصر في القسم 1-3 إلى سوء تفسير كبير وشائع لهذه الآية الكريمة، وسنحاول هنا أن نتطرق إلى هذا الموضوع بمزيد من التفصيل. وفقا لهذا التفسير الخاطئ، الذي من بين من يذكره العيّاشي والقمّي والطوسي والقرطبي والحويزي، فإن الضمير المتّصل في كلمتي ﴿فَأَنسَاهُ﴾ و﴿رَبِّهِ﴾ لا يعود إلى السجين الناجي ولكن إلى يوسف نفسه، وبالتالي فإن الرب المقصود بكلمة ﴿رَبِّهِ﴾ هو الله وليس سيّد السجين الناجي. بناء على هذه الفرضية التي لا أساس لها من الصحة، فإن معنى الآية الكريمة هو أن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربّه فلبث في السجن بضع سنين عقابا له على ذلك!

ولكي يبرر المفسِّرون هذا التفسير فإنهم أضافوا قولا لا يقلّ سوءا بادّعائهم بأنَّ الشيطان أنسى يوسف ربّه لأن يوسف لم يطلب العون من الله وإنما طلب عون العبد حين قال للسجين الناجي ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾! ثم يورد المفسِّرون قصصا طويلة لا يعلم أحد لها أصلا عن عتاب الله ليوسف على استعانته بالسجين بدل أن يستعين به. وكما هو متوقَّع في مثل هذه الحالات، هنالك أحاديث مُختلَقة منسوبة إلى الرسول تؤكد هذه القصص كالحديث الموضوع: «عجبت من أخي يوسف كيف استغاث بالمخلوق دون الخالق»، والحديث المُختلَق الآخر: «لولا كلمته ما لبث في السجن طول ما لبث».

لقد فات على ناقلي هذه الروايات ملاحظة تناقضها الكامل مع الصورة التي يرسمها القرآن العظيم ليوسف نبي الله. ويبدو أنهم فشلوا في إدراك أن ادّعاءاتهم بأنَّ يوسف نسي الله واستغنى عنه بطلبه من السجين الناجي أن يذكره عند سيّده وأن سجنه كان عقابا له من الله على ذلك إنما هي تهم كبيرة. هذه الصورة المشوّهة ليوسف يرفضها النص القرآني الذي يصفه بأنّه كان من عباد الله ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ ويبيّن تقوى والتزام هذا النبي الكريم منذ سني طفولته واختياره المعاناة على معصية ربّه. والغريب أن الكثير من المفسِّرين الذين يتناقلون هذه الروايات التي تفتري على يوسف الكذب تراهم في موضع آخر يدافعون، وأي دفاع، عن نظرتهم الخاصة

لمفهوم العصمة التي ينسبونها إلى الأنبياء وغيرهم من الصالحين! إن النص القرآني واضح كل الوضوح في تفنيده لكل واحدة من الفرضيات الخاطئة للروايات أعلاه التي تنتقص من مكانة يوسف، وكما سنبيّن أدناه.

إن احدى الفرضيات الخاطئة التي تستند عليها تلك الروايات هي أن قول يوسف للسجين الناجي ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ تعني طلبه المساعدة من العبد بدلا من الرب. إن الحقيقة هي أن الإسلام لا يعتبر طلب الأمور من أسبابها استغناء عن الله تعالى، وإنما الاستغناء أن ينسى الإنسان بأنَّ الله هو رب الأسباب. بل من غير الممكن لأي إنسان أن يعيش من غير أن يطلب الأمور من أسبابها. فمثلا يطلب الإنسان رزقه عن طريق العمل والاجتهاد في ذلك، فهل أن الذهاب إلى مكان العمل أو محاولة البائع إقناع الزبائن بشراء البضائع هي استغناء عن الله لأنها لا تتضمن طلب الرزق من الله مباشرة؟

يسّر الإسلام الكثير من الأمور للإنسان لأن الله يريد به اليسر لا العسر: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: 185). فقد أحل الله، على سبيل المثال، للإنسان طلب المساعدة من أخيه الإنسان ولم يصف ذلك بالشرك. فأحلّ الله مثلا اقتراض المسلم للمال عند الحاجة، بل وشرّع قوانينا تحكم العلاقة بين المدين والدائن. إن قول يوسف لصاحب سجنه ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ هو طلب مساعدة كان يوسف أدرى بأنَّها ما كانت لتأتي من غير إذن من الله، وهو طلب أحلّه الله في شرعه. لقد نسي مُرَوِّجو تلك الروايات عن يوسف بأنَّ الذي طلب من صاحب سجنه ذلك الطلب كان عبدا يذكر الله ويدعوه ساعات الليل والنهار ولذلك فإنه أبعد ما يكون عن أن ينسى أن كل شيء هو بيد الله.

كما مر ذكره، تعتمد تلك الروايات الضالّة على الادعاء بأنَّ الهاء في كلمة ﴿فَأَنسَاهُ﴾ في عبارة ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ تعود على يوسف وأن الرب المقصود في كلمة ﴿رَبِّهِ﴾ هو رب يوسف، الله. إلا أن الحقيقة هي أن تلك العبارة هي جواب لعبارة ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ التي سبقتها. فالمُخاطِب في هذه العبارة الأخيرة هو يوسف والمُخاطَب هو السجين الناجي، ولذلك فإن عبارة ﴿فَأَنسَاهُ

الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ إنما تقصّ ما حدث لطلب يوسف حيث نسي السجين إخبار سيّده، فالضمير المتصل «هاء» في كلمتي ﴿فَأَنسَاهُ﴾ و﴿رَبِّهِ﴾ يعود على السجين الناجي. لاحظ أن طلب يوسف أشار إلى «رب» ذلك السجين وأن جواب تلك العبارة يحتوي أيضا على كلمة «رب» التي لا بد أن تعني أيضا سيّد السجين.

بل إن النص القرآني يأتي بدليل جلي آخر على أن الذي نسي هو السجين الناجي وأن ما نساه هو أن يذكر يوسف أمام سيّده. إذ يقول الكتاب العزيز عن السجين في آية 45: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، حيث إن معنى ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ هو «وتذكّر بعد مدّة» أي بعد مدّة من النسيان. لقد أنسى الشيطان السجين الناجي ما طلبه منه يوسف لكي يبقى في السجن لعل إيمانه يضعف وتنهار عزيمته وينصاع لما كان يريده منه سجّانوه. إن هذا هو أحد ذكرين في القرآن العظيم لمحاولة الشيطان للتأثير على يوسف بشكل غير مباشر عن طريق التأثير على أناس حوله. إذ سنرى في الآية 100 كيف يصف يوسف ما حدث بينه وبين إخوته من شقاق بأنّه نزغ من الشيطان.

أما الادّعاء بأنَّ السجن كان عقابا ليوسف فقد شاهدنا الدليل تلو الآخر على أن يوسف اختار لنفسه السجن مع طاعة الله على الحرية مع المعصية حين قال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾، وأنه كان قادرا على ترك السجن متى شاء لو أراد اختيار المعصية على الطاعة، حاشاه من ذلك.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43)﴾.

بعد أن لبث يوسف في سجنه لبضع سنوات، بدأت تلوح معالم الفرج من محنته برؤية الملك لمنام أراد تفسيره. وهذا الملك هو سيّد السجين الناجي الذي كان يوسف قد طلب منه أن يذكره امامه وأنساه الشيطان ذلك.

رأى الملك في منامه سبع بقرات سمان تأكلهنَّ سبع بقرات عِجاف، أي

هزيلات، كما رأى سبع سنبلات خضر ﴿وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾، أي: «وسبع سنبلات يابسات». وقص الملك رؤياه هذه على حاشيته، وهو معنى كلمة ﴿الْمَلأُ﴾ هنا، طالبا منهم أن يحكموا في معنى هذه الرؤيا، منهياً قوله بعبارة: ﴿إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾، أي: «ان كنتم تعرفون تفسير الرؤيا». من الواضح من طلب السجينين من يوسف تأويل رؤيتيهما وطلب الملك تفسيرا لرؤياه بأنَّ تفسير الرؤيا كان من الممارسات الشائعة عند أولئك القوم[1].

ويرى الطباطبائي بأنَّ الإشارة إلى تفسير الرؤيا بكلمة «تعبير» مشتقّ «من عبور النهر ونحوه، كأن العابر يعبر من الرؤيا إلى ما وراءها من التأويل». إلا أن التحليل الذي يبدو أقرب إلى الصحة هو أن كلمة «تعبير» تعني «الوصف بعبارات»، وهكذا ففي حالة الرؤيا فإنها تعني «تأويل الرؤيا» لأنها تعني وصف معاني الصور في الرؤيا بعبارات.

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (44)﴾.

كان رد كبار حاشية الملك على طلبه تعبير رؤياه أن قالوا بأنَّ تلك الرؤيا هي ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ وأنهم ما كانوا يعرفون تأويل الأحلام. ومعنى كلمة ﴿أَضْغَاثُ﴾ هو «خليط»، وهي جمع ﴿ضِغْث﴾ الواردة في قول عن أيوب: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: 44)، والتي تعني هنا «حفنة» أو «قبضة» من شيء ما والتي تتضمّن معنى الخليط.

وأشار بعض المفسّرين إلى أن كلمة ﴿أَضْغَاثُ﴾ تتضمّن القول بأنَّ تلك

---

(1) ولكن لِمَ لم يطلب الملك تفسير رؤيا ما خلال السنين السابقة التي قضاها يوسف في السجن؟ هنالك الاحتمال البعيد بأنَّ الملك لم يرَ رؤيا اثارت اهتمامه خلال تلك السنين، أو أن تلك الرؤيا بالذات تركت عليه أثرا خاصا، ربّما لتكرّرها، فاهتمّ بتفسيرها. إلا أنّ الأرجح هو أنه كان لدى الملك من يفسّر له مناماته، إذ قلّما يخلو زمان أو مكان من أفراد يدّعون القدرة على تفسير الأحلام، وأن ذلك الشخص لم يعد أو لم يكن موجودا لسبب أو لآخر حين حدّث الملك حاشيته عن رؤيته.

الأحلام كانت كاذبة أو ليست بذات دلالة ما. إلا أن هذا التفسير غير صحيح. إن تكملة رد حاشية الملك: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ يخالف الادّعاء بأنّهم أنكروا احتواء حلم الملك على معنى، لأنه لو كان ذلك فعلا ما قصدوه بقولهم ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ فما كان سيكون هنالك مبرر لقولهم للملك بأنّهم ما كانوا يعرفون تأويل الأحلام. بل خلافا لما يقول العديد من المفسّرين، إن ردّ رجال الحاشية على طلب الملك تفسير رؤياه يشير إلى اعتقادهم بوجود معنى ما في منام الملك. إذ قصدوا بعبارة ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أن حلم الملك بدا لهم خليطا من مشاهد من الصعوبة تحليلها وبالتالي فإن تفسيرها يتطلّب شخصا له قدرات خاصة على تفسير الأحلام. ويؤكد هذا أيضا اقتراح ساقي الملك في الآية القادمة أن يسأل يوسف تفسير المنام.

وردت كلمة ﴿أَضْغَاثُ﴾ أيضا في واحدة من اتهامات المشركين للرسول التي تخبرنا بها هذه الآية الكريمة: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ (الأنبياء: 5). إن كلمة ﴿أَضْغَاثُ﴾ لا تعني «ما لا معنى له» كما قد يتبادر إلى ذهن البعض الذي يطبّق هذا الفهم الخاطئ للكلمة في آية سورة يوسف. فقصّ المشركون هو أن آيات القرآن الكريم لم تكن وحيا من الله كما كان يقول النبي وإنما كانت خليطا من أحلام كان يراها في نومه. أما سبب استخدامهم لكلمة ﴿أَضْغَاثُ﴾ فهو أن القرآن الكريم لم ينزل مرة واحدة وإنما كانت آياته تنزل كل حين وآخر، وكأن المشركون قالوا بأنّ هذه الآيات جميعا ما هي إلا خليط من أحلام كان يراها الرسول في منامه بين الحين والآخر. أي لم يقصد المشركون بأنّ الآيات لم تكن ذات معنى لأنها ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ وإنما قصدوا بأنّها لما كانت ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ فإنها لم تكن «وحيا من الله» كما كان يقول النبي.

ومما يؤكد صحة هذا التفسير أيضا هو أنه بالإضافة إلى وصفهم للقرآن بأنّه ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾، فإنهم وصفوه أيضا بأنّه «افتراء» و«شعر». إن هاتين الصفتين أيضا تنكران المصدر الإلهي للقرآن العظيم، ولكنهما لا تعنيان بأنّ القرآن لم يكن ذي معنى.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45)﴾.

تشير عبارة ﴿الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ إلى صاحب يوسف في السجن الذي نجا من الموت والسجن. ومن الواضح انّه السجين الذي أوّل له يوسف رؤياه بقوله: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾. تعني كلمة ﴿أُمَّةٍ﴾ في هذه الآية الكريمة «مدّة»، وكما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (هود: 8).

إن الذي نسيهُ الساقي والذي يشير إليه قوله الكريم: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، أي: «وتذكّر بعد مدّة»، هو طلب يوسف منه: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾، أي: «اذكرني عند سيّدك الملك»، الذي كان الشيطان قد أنساه إياه: ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾.

من الطبيعي أن يكون ساقي الملك حاضرا في مجلسه، مطّلعا على ما يدور فيه. فلما شاهد الساقي أنه لم يكن بين الحضور من يعرف تفسير رؤيا الملك تذكّر يوسف فقال: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾، أي «ائذنوا لي بالذهاب إلى شخص أعرفه يستطيع تفسير الرؤيا فآتيكم بالتفسير». لاحظ كيف تعكس كلمات ساقي الملك ثقته التامّة بقدرة يوسف على تفسير المنام.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46)﴾.

تبدأ هذه الآية الكريمة بخطاب الساقي ليوسف مما يعني ضمنيا بأنَّ الملك أخذ باقتراح الساقي وأرسله إلى يوسف لسؤاله عن الرؤيا. لاحظ أن ساقي الملك وصاحبه وصفا يوسف حين كانا معه في السجن بأنّه ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أما الآن فنرى ساقي الملك يصف يوسف بصفة ﴿الصِّدِّيقُ﴾ التي هي صيغة مبالغة من صفة «الصادق». وسبب مخاطبة ساقي الملك ليوسف بتلك الكلمة في هذه المرة يعود إلى ما كان قد شاهد من صدق يوسف في تفسير رؤياه ورؤيا السجين الذي صُلِب، بالاضافة إلى علامات صدق أخرى في ما قال أو فعل يوسف الله أعلم بها.

ومما يثير الانتباه في خطاب ساقي الملك هو عدم وجود أية إشارة إلى أنّه أخبر

يوسف بأنَّ الرؤيا التي كان يسأل عنها قد شاهدها سيّده الملك. إذ إنه بدأ خطابه بقوله ﴿أَفْتِنَا﴾ من غير أن يحدّد الجماعة التي يتحدّث باسمها وأتبع ذلك بوصف الرؤيا، ثم أنهى الوصف بقوله: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أيضا من غير تحديد هويّة أولئك ﴿النَّاسِ﴾. لا بد أن عدم ذكر تلك المعلومة المهمّة كان مقصودا، وليس بالمستبعد أن ساقي الملك أحجم عن ذكر ذلك بأمر من مولاه الملك، ربّما لاختبار يوسف. إلا أننا سنرى في الآيات الثلاث التالية بأنَّ تفسير يوسف الرؤيا كانت له دلالات تشمل كل المملكة.

إن «لَعَلَّ» هي من الحروف المُشَبَّهة بالفعل التي تُستَعمَل مع ما هو مُحتَمَل وليس مؤكَّد الحدوث. لاحظ أن قوله ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ لا يعني بأنَّ السجين الناجي كان غير متأكد من «رجوعه إلى الناس» ولكنه كان غير متأكد من «رجوعه إلى الناس بالتأويل»، أي كأن تقدير العبارة هو «لعلّي ارجع إلى الناس بتأويل الرؤيا». ولما كان عِلمُ الناس بالتأويل يتوقَّف على عودته إليهم بالتأويل، وكان هذا مرتبطا بـ ﴿لَعَلَّ﴾ التي تفيد احتمال الوقوع، جاء علم الناس بالتأويل هو الآخر مرتبطا بـ ﴿لَعَلَّ﴾: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. أي أن معنى قول السجين الناجي ليوسف هو «إن أفتيتني في الرؤيا فإنني سأعود إلى الناس بخبرها ليعلموا».

ولكن هل يعني استخدام ساقي الملك لكلمة «لعلَّ» في خطابه ليوسف بأنّه فعلا لم يكن واثقا من عودته إلى الملك وحاشيته بتفسير الرؤيا لسبب أو لآخر؟ إن الجواب على هذا هو بالنفي لأن قوله الواثق ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ يبيّن بأنّه كان متيقّن من قدرة يوسف، ويعكس ثقته المطلقة بأخلاق يوسف السمِحة وبأنّه ما كان سيرفض طلبه تفسير الرؤيا ردّا على نسيانه لأن يذكره عند الملك. إن سبب استخدام ساقي الملك لكلمة «لعلَّ» إنما يعود في الواقع إلى الحرج الذي أحسّ به في حضرة يوسف لأنه كان قد نسي أن يذكر أمره للملك بعد خروجه من السجن كما طلب منه. أي أن استخدام ساقي الملك لكلمة «لعلَّ» كان تأدّبا وتحرّجا لا أكثر.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47)﴾.

أشار ابن كثير إلى ملاحظة جميلة حول كرم أخلاق يوسف وهي تفسير هذا النبي الكريم الرؤيا لساقي الملك من غير تأنيبه له على نسيانه لما كان قد أوصاه به من ذكره عند سيّده ومن غير وضعه لأي شرط مسبق كإخراجه من السجن. بل إنه أعطى أيضا نصائحا بشأن كيفية التعامل مع الشدّة المقبلة. لاحظ أن يوسف لم يطلب هذه المرة من ساقي الملك إيصال أية رسالة إلى الملك بشأنه، رغم أن من المرجّح أنّه كان يعلم بأنَّ الرؤيا هي رؤيا الملك.

وأخبر يوسف ساقي الملك بأنّه ستمرُّ عليهم سبع سنين متتالية من الرخاء يكون فيها زرعهم على أحسن حال. ولكن قبل أن يخبر يوسف ساقي الملك بباقي تأويل الرؤيا حول سنين القحط السبع التي كانت ستليها أشار عليه بما آتاه الله من علم بفكرة رائعة وهي أن يتركوا معظم ما سيحصدون من بذور في سنابله ولا يدرسوه. أشار المفسّرون بأنَّ هذا يجعل البذور تصمد لسنين طويلة فلا تفسد فيمكن بذلك خزنها للاستفادة منها خلال سنين القحط.

إن قول يوسف لساقي الملك ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ يستثني من خطّة عدم درس البذور التي نصح بها ما يحتاج الناس أكله. إلا أن كلمة ﴿قَلِيلًا﴾ تحمل أيضا نصيحة بأن لا يسرف الناس في الكميات التي يخصصوها لأكلهم خلال فترة الرخاء لكي يتمكّنوا من توفير ما يكفي من الحبوب لفترة العسرة.

من الواضح أن سنوات الخير السبعة هي تفسير رمزي «السبع بقرات السمان» و«السبع سنبلات الخضر».

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48)﴾.

فسّر يوسف رَمزَي «البقرات السبع الضِّعاف» و«السنبلات السبع اليابسات» بأنّهما سبع سنين ﴿شِدَادٌ﴾، أي قليلة الخير. أما أكل البقرات الضِعاف للبقرات

السِّمان وتلي السنبلات اليابسات للسنبلات الخضر فتفسيره هو أن سنين الشدة تلك ستأتي بعد سنين الرخاء.

وأشار المفسِّرون، ومنهم القمّي والطبري والجلالين والطباطبائي، إلى أن قوله ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ يعني بأنَّ السنين الشديدة ستأكل ما كان قد ادّخره الناس لها في سنين الرخاء، أي سيستهلك الناس ما ادّخروا لتلك السنين. إلا أن ما فات على أولئك المفسِّرين ملاحظته هو عدم امكانية توفيق تفسيرهم هذا مع قوله ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾. فإذا كان ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ يشير إلى ما ادّخره الناس من طعام لاستهلاكه في سنين الشدة، فإن «تحصينهم» لهذا الطعام يجب أن يعني «امتناعهم عن استهلاكه»، وهو قول عديم المعنى!

إن سبب اشتباه المفسِّرين في تفسيرهم الخاطئ اعلاه لقوله ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ هو سوء فهمهم لمعنى الفعل «قدّم» متبوعا بالحرف «لـ» في هذه الآية الكريمة بالذات. إذ يستخدم القرآن العظيم في العديد من الآيات الفعل «قدّم لـ» بمعنى «أعدّ مسبقا لـ»، أي للتجهيز للمستقبل، كما في هاتين الآيتين الكريمتين على سبيل المثال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: 110)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر: 18). لذلك، رأى المفسِّرون بأنَّ قوله ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ يشير إلى ما كان الناس قد جهزوا مسبقا لسنين الشدّة، واستنتجوا بالتالي بأنَّها «الحبوب» المخزونة.

إلا أن من الواضح أن سنين الشدة ما كانت ستؤثّر على ما كان الناس قد خزنوه من حبوب وإنما على ما كانوا سيزرعونه في سنين الشدة تلك. لذلك فتفسيرنا البديل والذي يتّفق تماما مع ظاهر الآية الكريمة هو أن ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ يشير إلى ما يجتهد الناس في زراعته خلال سنين الشدّة. أي إن شدّة تلك السنين ستقضي على كل ما يزرع الناس خلالها باستثناء القليل الذي ينجحون في تحصينه، وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾. وفقا لهذا لتفسير فإن سبب استخدام الآية الكريمة للفعل «قدّم لـ» هو أن الزرع سابق طبعا للحصاد. فما يقدّم الناس لسنين

الشدة هو ما يزرعوه فيها بهدف حصاده لاحقا.

والمقصود بالشدّة هنا هو الجفاف، كما سيتبين من الآية القادمة. لذلك فإن من المرجّح أن معنى «التحصين» في الآية الكريمة هو توفير الماء للزرع في سنين جفاف. أي كأن الآية الكريمة تقول «سيأتي بعد سنين الرخاء السبع تلك سنين جفاف سبع يموت خلالها كل زرع لكم سوى القليل الذي ستستطيعون أن تحصنوه ضد الجفاف بتوفير الماء له لينبت فتحصدوه».

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49)﴾.

إن معنى الفعل ﴿يُغَاثُ﴾ هو «يُنجَد»، وهو فعل عام يمكن استخدامه مع أي نوع من النجدة، كما في الآيات التالية: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ (القصص: 15)، ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال: 9)، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: 29). أما كلمة «غَيْث» فغالبا ما تُستعمَل للإشارة إلى المطر، حيث إن «الغيث» هو النجدة التي تأتي لإنقاذ الزرع، وبالتالي الناس، من الهلاك، وكما نجد مثلا في الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الشورى: 28).

لما كان الكلام في ما سبق من آيات من سورة يوسف هو عن الزرع وسنين رخاء وشدّة فإن من الواضح تماما أن الفعل ﴿يُغَاثُ﴾ في الآية أعلاه يعني: «يُنَزَّل المطر عليهم». أي بيّن يوسف لساقي الملك بأنَّ سنوات الجفاف السبعة ستليها سنة مطر وفير. ومما يؤكّد على أن فعل الإغاثة هنا يشير إلى نزول المطر هو وصف يوسف لعام نزول المطر ذاك بقوله ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، حيث يرى معظم المفسّرين

بأنَّ المقصود بهذا هو عصر الثمرات التي يمكن الاستفادة من عصيرها كالأعناب والتمور والزيتون والسمسم. من المُرجَّح أن عصر الثِّمار كان يحدث فقط في السنين التي يكثر فيها الحصاد بشكل غير عادي ولذلك فإن قول يوسف ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أشار إلى غزارة المطر وبالتالي وفرة الحصاد في تلك السنة. كما أشار بعض المفسِّرين إلى أن العصر هنا يمكن أن يشمل حلب الأنعام، إلا أننا نرى بأنَّ سياق الآية الكريمة لا يدعم هذا التفسير.

وهنالك من المفسِّرين من قرأ ﴿يَعْصِرُونَ﴾ بصيغة المبني للمجهول أي «يُعصَرون» أو حتى «يُعصِرون»، في إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ (النبأ: 14، 15). يبدو أن مصدر هذا الرأي هو أن الفعل ﴿يُغَاثُ﴾ مبنيٌّ للمجهول. ولكن يبدو لنا أن قراءة الأغلبية ﴿يَعْصِرُونَ﴾ هي الأصح لأن كلمة «يُعصَرون» لها نفس معنى ﴿يُغَاثُ﴾ ولا تُضيف جديدا إلى الجملة. كما من الطبيعي أن يكون الفعل ﴿يُغَاثُ﴾ بصيغة المبني للمجهول لأنّ الناس هم في موقع استِلام الغوث لا إعطائه، بينما هم الفاعلين لفعل العصر، فمن الطبيعي أن يأتي هذا الفعل بصيغة المبني للمعلوم ﴿يَعْصِرُونَ﴾.

ولاحظ الطباطبائي بأنَّ يوسف استعمل ضمير الجماعة المُخاطَبة الحاضِرة الذي تقديره «أنتم» في تفسيره لرؤيا الملك حين قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ وحين قال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾، إلا أنه أكمل كلامه مُستخدما كلمة ﴿النَّاسُ﴾ في صيغة ضمير الجماعة المُخاطَبة الغائبة: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، أي أنّه لم يقل: «فيه تُغاثون وفيه تَعصِرون». ويرى الطباطبائي بأنَّ هذه إشارة إلى أن «الناس» سيكونون في ذلك العام في غِنى عن مساعدات الدولة مما كانت قد ادّخرته لأن المطر سيكون غوثا مباشرا لهم.

من الواضح أن قول يوسف بأنَّ سنوات الشدّة السبع ستليها سنة مطر وفير ليس له رمز مقابل في ظاهر رؤيا الملك. وهذا دليل على أن تأويل الأحلام، الذي هو

أحد أشكال علم تأويل الأحاديث الذي أنعم به الله على يوسف، ليس مجرّد تفسير لرموز ظاهرية وصريحة في المنامات بمقابلاتها في الواقع. فبخلاف ما تعتقده الغالبية العظمى من الناس، لا تحمل الرموز في الأحلام معاني ثابتة وإنما لها في كل حلم معنى خاصاً. فمن الخطأ القول بشكل عام بأنَّ «بقرة سمينة» في المنام تمثّل «سنة خير»، أو حتى أن «بقرة» تمثّل «سنة».

إن كتب تفسير الأحلام التي تعطي معانٍ محدّدة للرموز مبنيّة على فرضيّة خاطئة تماما.

إن كل شكل من أشكال علم تأويل الأحاديث، بما في ذلك تأويل الأحلام، هو قدرة خاصة على إدراك المعاني التي تكتسبها الرموز عند ظهورها في سياقات معيّنة. أي أن معنى الرمز الواحد يعتمد على سياقات ظهوره، لذلك فمن المستبعد جدا أن يكون للرمز الواحد نفس المعنى في سياقات مختلفة، أي في أحلام مختلفة. وهكذا يمكن القول بأنَّ من شبه المؤكد، على سبيل المثال، بأنَّ «بقرة» في حلم ما لا تعني «سنة» وأن «بقرة سمينة» لا تعني «سنة خير».

ويعني هذا بأنَّ من غير الممكن تعلّم تأويل الأحلام من غير امتلاك المرء للقدرة الخاصة التي يتطلبّها ذلك.

كذلك، فإن الشخص الذي يملك هذا العلم لا يستطيع تعليمه لمن لا يملكه لأنه ليس مجرَّد علم عقلي أو نقلي كمعظم العلوم، بخلاف ما يعتقد معظم الناس ومؤلفو كتب تفسير الأحلام[1].

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50)﴾.

بعد أن عاد ساقي الملك إلى سيّده بتأويل يوسف لرؤياه، أمر الملك أن يأتوا

(1) إن هذا الموضوع المعقّد هو خارج نطاق موضوع بحث هذه الكتاب ولكن بإمكان القارئ المهتم به الاطلاع على دراسة مفصّلة لهذا الموضوع المعقّد في كتابنا البارانورمالوجيا: قراءات في علم خوارق العادات.

بيوسف عنده. من الواضح من طلب الملك بأنَّ تفسير يوسف قد أثار على الأقل فضوله وأنّه أراد أن يسأله وجها لوجه عن المنام. من المرجح أن يكون الملك قد اقتنع بأنَّ يوسف هو فعلا كما وصفه ساقيه وأن هذا الذي قاله يوسف هو حقا تأويل رؤياه ، وبالتالي أراد أن يسأل يوسف عن المنام وعن نفسه ويكرمه.

ولكن حين وصل رسول الملك ليأخذ يوسف إلى سيّده رفض يوسف الذهاب معه وطلب من الرسول أن يعود إلى الملك برسالة وهي أن يسأله: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾. ومعنى هذا الطلب هو أن يتدخّل الملك فيستفسر عن خبر النسوة اللاتي قطّعن أيديهنّ. يلاحظ الطباطبائي هنا أن الملك أراد رؤية يوسف لتكريمه لا لمقابلته ومن ثم إعادته إلى السجن، ولذلك فإنه كان في موقع من يستطيع أن يطلب من الملك شيئا ما قبل أن ينفّذ طلبه بالحضور عنده. من الجلي أن يوسف ورسول الملك كان على علم بأنَّ الملك كان ينوي خيرا ليوسف، وإلا لما طلب يوسف ما طلب بدل تلبية أمر الملك فورا، ولأجبَرَ رسول الملك يوسف على الذهاب إلى الملك وما رضي بأن يعود إلى ربّه من غيره.

أراد يوسف بطلبه من الملك أن يزيل عن نفسه أية تهمة سيئة ألصقها بها سجّانوه. لا شك أن هدف يوسف هنا هو نفس هدفه حين شرح ظروف دخوله إلى السجن لرفيقي سجنه، والذي تطرّقنا إليه في تفسيرنا للآية الكريمة 37. لما كان يوسف داعيا إلى الله فقد كان حريصا على أن لا يعزو الناس أيّ سوء سلوك اتُّهِمَ به ظُلما إلى ربّه. لذلك اجتهد، قولا وفعلا، في نفي التهمة الظالمة عن نفسه وتبليغ الناس بأنَّ الله يدعو إلى العمل الصالح والسلوك النبيل: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 268)، ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: 28).

ويرى الطباطبائي بأنَّ نص الآية الكريمة يشير إلى إحجام يوسف عن اتّهام النسوة بشيء واقتصاره على الطلب من الملك أن يحقق في حقيقة ما حدث بشأنهن، رغم إقراره بأنَّ قوله ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فيه شكوى. لكن هذا الرأي

يناقض نفسه لأن طلب يوسف من الملك التحقيق مع النسوة يحمل بحد ذاته اتّهاما واضحا لهنّ، بل لا يترك قول يوسف ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أي شك بأنّه كان يشتكي إلى الملك ما لحق به من ظلم النسوة. وفعلا نرى في الآية القادمة بأنَّ الملك يبدأ استجوابه للنسوة بسؤالهنّ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾، أي أنه كانت لديه معلومات عن قصّة ظلمهنّ ليوسف من قبل أن يحدّثهنّ، وهي معلومات من الواضح أن يوسف كان قد أطلع رسول الملك عليها حين زاره في السجن.

كما أن وصف يوسف للنسوة بأنّهنّ ﴿اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ يعني بأنّه أخبر رسول الملك بقصة ما حدث له في بيت العزيز يوم دعت زوجة العزيز النساء إلى بيتها وأخرجت عليهنّ يوسف فقطّعن أيديهن. كما نعرف بأنَّ ساقي الملك على الأقل كان على دراية ببعض أو كل تفاصيل قصة سجن يوسف. إذ بيّنّا بأنَّ يوسف لا بد وأن يكون قد أطلع صاحبي سجنه على قصّته ليبيّن لهما عفّته وطهارة دينه.

لاحِظ أن يوسف لم ينسب الكيد الذي تعرّض له إلى امرأة العزيز فقط وإنما إلى ﴿النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾. وكما ذكرنا في تفسيرنا للآية ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ بأنَّ ضمير الجماعة يشير إلى اشتراك النسوة في مؤامرة وضع يوسف في السجن ولعبهنّ دورا في ما تعرَّض له، وهو أمر ذكرناه أيضا في تفسيرنا للآية الكريمة: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

ومن الواضح أن يوسف أعطى رسول الملك بعض المعلومات عن هويّة النسوة ليحقّق معهن. من الممكن القول بأنَّ عبارة ﴿النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ لم تشمل امرأة العزيز. ربّما كان هدف استثناء يوسف لامرأة العزيز هو جعل الملك يستمع إلى النسوة قبل أن تتدخّل امرأة العزيز في الأمر وتؤثّر عليهنّ لكي يكذبن في شهادتهنّ. لكن الأرجح هو أن قول يوسف شمل امرأة العزيز أيضا وأن سبب عدم تسمية يوسف لها على وجه الخصوص هو أنه عدم تفريقه بينها وبين النسوة حيث اشتركن جميعا في الكيد له، كما أن تفاصيل القصة تستوجب استدعاء امرأة العزيز

كونها صاحبة البيت الذي حدث فيه الأمر وإحدى الشخصيات الرئيسية في القصة.

ومن الجلي أن من أسباب طلب يوسف شهادة النساء اللاتي قطّعن أيديهن هو أنّهن كن شهود قَسَم امرأة العزيز بأن تسجنه إذا لم يستجب لها وأنّهن حاولن هنّ أيضا التحرّش به، أي كنّ وراء وضعه في السجن.

ذكرنا سابقا بأن الآية الكريمة ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ تشير إلى اشتراك رجل، من المرجَّح أنه كان العزيز، في مؤامرة وضع يوسف في السجن؛ فلِمَ لم يطلب يوسف شهادة العزيز أيضا؟ من الممكن أن يكون السبب هو موت العزيز خلال وجود يوسف في السجن، كما يمكن أن يعود ذلك إلى أن النسوة كنّ السبب الرئيسي في سجنه.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51)﴾.

بعد أن عاد رسول الملك إلى سيّده بطلب يوسف منه بأن يحقّق فيما وقع عليه من ظلم، أرسل الملك إلى النسوة وسألهنّ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾. يرى المفسّرون بأنَّ معنى هذا السؤال هو: «ماذا حدث حين أردتن إغواء يوسف؟». فأجبنه النسوة: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾، وهو جواب يجمع المفسّرون على أن معناه هو: «حاشا لله أن يكون يوسف قد ارتكب سوءا». أي كان سؤال الملك عما فعل يوسف حين راودنه عن نفسه فيما كان جواب النسوة تنزيها له عن ارتكاب الفحشاء. إلا أننا نرى أن تفسيري السؤال والجواب هذين خاطئين تماما، وكما سنبيّن أدناه.

لنبدأ أولا بتفسير سؤال الملك للنسوة: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾. لقد انشغل المفسّرون بقول الملك ﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ عن حقيقة أن السؤال محصور في عبارة ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ الذي هو سؤال للنسوة عن تفاصيل ما قمن به حين راودن يوسف عن نفسه وليس سؤال عن رد فعل يوسف

على محاولتهن تلك. إن عبارة الملك ﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ تعامل محاولة النساء إغراء يوسف كحقيقة مفروغ منها. وورود هذه العبارة بعد السؤال هدفه تحديد السياق الذي كِدنَ فيه النسوة ليوسف، أما سؤال الملك فهو عن تفاصيل ذلك الكيد. أي إن معنى سؤال الملك هو: «ما هي قصة كيدكنّ ليوسف يوم راودتنّه عن نفسه؟».

شاهدنا في الآية السابقة بأنَّ يوسف أخبر رسول الملك بكيد أولئك النسوة له وطلب منه إيصال شكواه إلى الملك لكي يحقّق في الأمر. من الواضح من استدعاء الملك للنسوة أنه استجاب لطلب يوسف ولذلك فإن قول الملك ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يجب أن يكون سؤالا استجوابيا للنسوة عن ما كِدنَ ليوسف وليس سؤالا عن رد فعل يوسف على مراودتهنّ له عن نفسه! أي أن تحقيق الملك مع النسوة هو بحد ذاته تصديق لاتهام يوسف لهنّ بالكيد له فكيف يكون معنى السؤال أنّه أراد أن يسألهنّ عما فعل يوسف وكأنهنّ مصدر ثقة؟ وكم كان سيكون سخيفا وعديم المعنى سؤال الملك لو كان بمعنى «ماذا فعل يوسف حين راودتنه عن نفسه؟»، وكأنه ليس مهتم على الإطلاق بمحاولة النساء إغراء يوسف وإنما كان كل اهتمامه منصبّا على معرفة رد فعل يوسف على ذلك، بل ومعرفة رد الفعل ذاك من النسوة المُتَّهمات أنفسهن؟

ولنأتي الآن إلى جواب النسوة للملك: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾. كما ذكرنا سابقا، يرى المفسِّرون خطأً بأنَّ قول النسوة هذا هو جواب على سؤال الملك عن رد فعل يوسف على مراودتهنّ له عن نفسه. إذ يعتقد المفسِّرون بأنَّ النسوة قصدن يوسف بعبارة التنزيه ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾، وأن قولهنّ ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ كان تصريحا بأنَّ يوسف لم يفعل أي سوء. لاحظ أن هذا التفسير الشائع لجواب النسوة مبني على التفسير الشائع لسؤال الملك الذي بيّنّا خطأه أعلاه. إذ كان سؤال الملك استجوابا للنسوة بناءً على طلب يوسف وما قاله عن كيدهنّ، فكيف يُعقَل أن يكون جوابهنّ على ذلك الاتّهام مدحا ليوسف؟ وما مصلحة النسوة في الدفاع عنه؟ بل إن التفسير الشائع لجواب النسوة يعني بأنّهن بدل أن يتصدّين للدفاع عن أنفسهنّ وقد

سمعن الملك يتّهمهنّ نقلا عن يوسف بمحاولة إغوائه فإنّهن قمن بدفع كل تهمة عنه ومدح أخلاقه! بل يجعل هذا التفسير جوابهنّ يتضمّن اعترافا صريحا بظلمهنّ ليوسف! إن هذا هراء ليس له معنى، ولذلك فإن التفسير الشائع لجواب النسوة لا يمكن أن يكون صحيحا مثلما أن التفسير الشائع لسؤال الملك هو الآخر خاطئ. فما هو إذا التفسير الصحيح لجوابهن؟

لما كان سؤال الملك للنسوة تحقيقا معهنّ عما كِدنَ ليوسف لا عما قام به فلا بد أن جوابهنّ كان، خلافا لما أجمع عليه المفسّرون، دفعا عن أنفسهنّ لتهمة الكيد له. على ضوء هذا يمكننا الآن تقديم تفسيرنا الجديد لجواب النسوة للملك: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾. لم تقصد النسوة بقولهنّ ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ تنزيه يوسف وإنما تنزيه أنفسهن. إذ إن عبارة ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ هي إنكار عام لما اتّهمهم به الملك. أما قولهنّ بعد ذلك: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ فهو إنكار تحديدا لأن يكنّ على علم بتعرّض يوسف إلى سوء، وبالتالي إنكار لتورّطهنّ في ما حدث له. فجواب النسوة على سؤال الملك الاتّهامي هو إنكار لمحاولتهنّ إغراء يوسف وإنكار للعبهنّ أيَّ دور في سجنه.

ويتّفق هذا التفسير المنطقي مع نص هذه الآية الكريمة بشكل خاص ومع القصة بشكل عام، كما يتجانس مع سلوك النسوة اللاتي لم يردن يوما خيرا ليوسف. أما الرأي الذي اتّفق عليه المفسّرون بأنَّ ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ هو تنزيه ليوسف عن ارتكاب السوء فليس له ما يبرّره، ولا يتّفق مع سؤال الملك الذي يحمل اتّهاما للنسوة، ويخالف ما ورد في الكتاب العزيز عن طبيعة سلوكهن.

إن من أسباب وقوع المفسّرين في تفسيرهم الخاطئ لقول النسوة ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ هو غفلانهم عن ملاحظة أن ارتباط حرف الجر «على» بكلمة «سوء» في القرآن العظيم، كما في قوله الكريم ﴿عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾، يشير إلى وقوع السوء «على» المرء وليس وقوعه «منه». فبالإضافة إلى الآية 51 من يوسف، وردت كلمة ﴿سوء﴾ مرتبطة بحرف الجر ﴿عَلَى﴾ في الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ

﴿الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (النحل: 27). لاحظ كيف أن السوء المقصود هنا هو شيء «يُصابُ» به الكافرون لا شيء «يصدر» عنهم. هنالك أيضا الآيتان الكريمتان التاليتان اللتان ورد فيهما تعبير ﴿دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ مرتبط بحرف الجر «على» في كلمة ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: 98).

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (الفتح: 6).

وهنا أيضا نجد الله يتكلّم عن سوء «يُصابُ» به الأعراب وأصحاب النفاق والشرك وليس سوء «يصدر» عنهم. يبرهن هذا بما لا يقبل الشك التفسير الذي غاب عن انتباه المفسّرين وهو أن عبارة ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ تعني «ما علمنا بوقوع سوء عليه» وليس «ما علمنا بوقوع سوء منه»، فهو إنكار من النسوة لعلمهنّ بأنَّ يوسف كان قد تعرّض لظلم، لأنّ علمهنّ بذلك يعني تورّطهنّ فيه بشكل أو آخر.

والآن لنلخّص ما عرفناه عن معنى قوله: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾. تبدأ هذه الآية الكريمة بسؤال اتّهامي استجوابي يوجّهه الملك للنسوة عن كيدهنّ ليوسف حين راودنه عن نفسه، حيث يعكس السؤال تصديقه لوصف يوسف للأحداث. فكان جواب النسوة أن أنكرن ارتكابهنّ أي ذنب بحق يوسف فقلن ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ تنزيها لأنفسهنّ عن تلك التهمة، ثم أتبعن ذلك بالادعاء بأنّهنّ لم يكنّ على علم أساسا بتعرضه لظلم.

لاحظ كيف يوضّح هذا التفسير سياق جواب امرأة العزيز بعد كلام النسوة: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾. على العكس من النسوة اللاتي أنكرنَ ما حدث، أرادت امرأة العزيز قول الحق فبادرت أولا بقول ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾، أي بدأ الحق بالظهور من بعد خفاء. ثم زادت: ﴿أَنَا

رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾، وكأنها تقول مُستدرِكة: «إن كُنَّ النسوة قد أنكرن مراودتهنّ يوسف عن نفسه فإنني اعترف بأنّني قد حاولت إغواءه فعلا». ثم أتبعت ذلك بالقول: ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، أي بخلاف تكذيب النسوة له فإنني أقر بصدق اتّهامه لنا بالكيد له وتورّطنا في سجنه. من الواضح أن قول امرأة العزيز هو نوع من «الاستدراك»، وبالتالي فإنه يجب أن يكون مخالفا في المعنى لما سبقه من قول. لو كان جواب النسوة تنزيها ليوسف لما كان هنالك مبرر لأن يكون قول امرأة العزيز استدراكا، ولكن فهم جوابهن على أنه تنزيه لأنفسهنّ واتّهام ليوسف بالكذب يجعل من المنطقي أن يكون جواب امرأة العزيز استدراكا.

وتجدر الإشارة أخيرا إلى خطأ بعض المفسّرين الذين يعتقدون بأنَّ الملك هو نفسه العزيز وبالتالي فإن امرأة العزيز هي امرأة الملك. إن إشارة هذه الآية الكريمة إلى تلك المرأة بتعبير ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾، وفي نفس الوقت استخدام الآية السابقة لتعبير ﴿الْمَلِكُ﴾ في الإشارة إلى الملك يجعل من الواضح خطأ ذلك التفسير. كما لا يسمح سياق القصّة هو الآخر بمثل هذا التفسير.

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52)﴾.

انقسم المفسّرون بشأن هوية الشخص الذي وردت على لسانه هذه الآية الكريمة. قال أحد الفريقين بأنّها من قول يوسف، حيث تشير ﴿ذَلِكَ﴾ إلى طلبه من الملك أن يستفسر عن خبر النسوة معه وأن قوله ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ هو تعليق على ما أجابت به النسوة وامرأة العزيز على سؤال الملك. وفقا لرأي هذا الفريق، فإن المقصود بضمير الغائب الذي تقديره «هو» في كلمة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ والضمير المتّصل في كلمة ﴿أَخُنْهُ﴾ هو زوج المرأة، أي العزيز. وبذلك يكون معنى قول يوسف ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ هو «أنني طلبت التحقيق في ما قامت به النسوة لكي يعلم زوج المرأة أنني لم أخنه بالغيب مع زوجته».

إن لهذا التفسير دلالة مهمّة. لما كانت الآية الكريمة ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ تشير

إلى شخص من دون تحديد هويته فلا بد أن تكون هويته قد ذُكِرت صراحة في ما تقدّم من كلام يوسف، أي في قوله: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾. وهذا بدوره يعني بأنَّ الشخص المعني هو «رب رسول الملك»، أي الملك نفسه. وهذا بدوره يعني بأنَّ الملك هو نفسه العزيز، وهو فعلا ظن بعض المفسّرين، إلا أنّه استنتاج خاطئ تماما كما بيّنّا. لا يمكن أن يكون الملك الذي حقّق مع النسوة هو نفسه العزيز الذي ظهر في ما تقدّم من السورة وعاش يوسف في بيته.

إن نسبة القول في الآية الكريمة أعلاه إلى يوسف يقوم أيضا على افتراض أنَّ العزيز لم يكن على علم ببراءة يوسف التامّة من تهمة زوجته له، وهو الآخر افتراض لا يمكن إلا أن يكون خاطئاً. إذ يكفي أن نتذكّر أنّ العزيز وجد يوسف وهو يحاول الهرب من زوجته وأن الشاهد من أهلها قضى بأنّها هي التي راودت يوسف عن نفسه وأن يوسف امتنع عن مطاوعتها. إن الرواية القرآنية لما بدر من امرأة العزيز تجاه يوسف لا تترك مجالا للشك بأنَّ العزيز كان على دراية تامّة بأنَّ يوسف كان بريئا وأن امرأته كانت هي الخاطئة. لذلك لا يمكن أن يكون اعتراف امرأة العزيز في الآية السابقة هو الذي جعل العزيز يعلم بأنَّ يوسف لم يخنه مع امرأته، كما يفترض التفسير أعلاه.

ويفشل هذا التفسير تماما أيضا في تفسير وجود كلمة ﴿بِالْغَيْبِ﴾ لأنّ أية خيانة زوجية من المحتّم أن تحدث بالغيب، أي في غياب الزوج، وبالتالي فلا مبرّر لذكر تلك الكلمة أساسا.

أما التفسير الذي أخذ به الفريق الآخر من المفسّرين، وهو التفسير الصحيح، فهو أن الآية الكريمة ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ وردت على لسان امرأة العزيز لا يوسف. فبدءاً لا يوجد أي دليل في هذه الآية الكريمة على أنها تمثّل انتقالا في الكلام من المتحدِّث في الآية السابقة لها، وهو امرأة العزيز، إلى متحدّث آخر، رغم أننا يجب أن نُقر بأنَّ هذا ليس بالضرورة دليلا على أن المتحدّث لم يتغيّر. إلا أن النقطة الأساسية هي وضوح السياق تماما

بأن هذه الآية الكريمة هي استمرار لكلام امرأة العزيز في الآية السابقة. إذ تشير كلمة ﴿ذَلِكَ﴾ وفقا لهذا التفسير إلى اعتراف امرأة العزيز: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، أي كأنّها تقول بأنَّ تبرير اعترافها ذلك هو: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.

والمقصود بالضمير في فِعلَي ﴿لِيَعْلَمَ﴾ و﴿أَخُنْهُ﴾ في هذه الجملة هو يوسف بالتأكيد، وسبب استخدامها لكلمة ﴿بِالْغَيْبِ﴾ هو أنه كان غائبا وقت اعترافها، إذ كان لايزال في السجن. أما سبب تأكيدها في كلامها على أنها لم تخنه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ فهو تمييزا لنفسها عما قامت به النسوة اللاتي أنكرن مراودتهنّ ليوسف عن نفسه أو علمهنّ بأي سوء أصابه: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾.

ومن الغريب أن حتى المفسّرين الذي قالوا بأنَّ ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ هو كلام امرأة العزيز لا يوسف، كابن كثير، لم ينجحوا في تحديد المقصود به لأنهم ظنّوا بأنّها قصدت عدم خيانتها لزوجها بالغيب. والخطأ في هذا هو أن زوج المرأة كان على علم تام بعدم وقوع شيء بينها وبين يوسف.

كما إذا كانت امرأة العزيز تريد أن تؤكّد لزوجها بأنّها لم تكن لها علاقة بيوسف فإنها بالتأكيد ما كانت ستنتظر سنينا إلى أن يدعوها الملك يوما لتقول ذلك في حضوره! وإذا كان زوجها لم يصدّق طوال كل تلك المدّة أنها لم تكن لها يوما علاقة بيوسف فبالتأكيد ليس هنالك سبب ليصدّقها هذه المرة بالذات! بل إن القول بأنَّ ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ هو من كلام امرأة العزيز يحتّم بأنَّ الشخص الذي يشير إليه الضمير في الآية الكريمة هو يوسف لأنه الشخص المذكور بشكل شبه صريح في كلام امرأة العزيز السابق لذلك، ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، والذي يمثّل بدوره جوابها على خطاب الملك الذي يذكر يوسف صراحة: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾. بالإضافة إلى كل هذه الملاحظات، يجب أن نتذكّر بأنَّ موضوع الكلام في هذه الآيات هو يوسف وتبرئته لا زوج المرأة!

لكن هنالك ملاحظات يرى البعض فيها سببا للتشكيك في نسبة الكلام في آية 52 إلى امرأة العزيز، ولذلك فسنستعرضها ونذكر تفسيرنا لها. الملاحظة **الأولى** هي أنه إذا كانت امرأة العزيز مستعدّة فعلا للاعتراف بأنّها هي التي ظلمت يوسف ورمته في السجن، كما يقول ذلك التفسير، فما الذي جعلها تسكت كل هذه الفترة عن سجنه وعدم محاولة إخراجه؟

لاحظ أننا ليست لدينا معلومات عما حدث لامرأة العزيز بعد دخول يوسف السجن وإلى حين استدعائها من قبل الملك. من الممكن أن المرأة التي كانت يوما قادرة على أن ترمي يوسف في السجن ظلما فقدت بعد فترة ذلك النفوذ وبالتالي فإنها حين تغيّرت وأرادت إخراجه من السجن لم يعد ذلك الأمر في يدها.

فمن الممكن مثلا أن يكون زوجها قد فقد موقعه في الحكم أو مات، أو أنه تركها ولم يكن يسمح بإطلاق سراح يوسف، أو غير ذلك من الأسباب.

إن مما له دلالة خاصّة هنا هو العبارة التي بدأت بها امرأة العزيز شهادتها في الآية الكريمة السابقة: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾. توحي كلمة ﴿الْآنَ﴾ بأنَّ المرأة وجدت التحدّث إلى الملك مباشرة أول فرصة حقيقية لها لجعل الحق «يحصحِص»، أي يظهر بعد خفاء. إن إقناع الملك ببراءة يوسف كان سيعني حتما إطلاق سراحه.

أما الملاحظة **الثانية** فهي أن قول ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ لا يمكن أن يصدر إلا من شخص مؤمن بينما يرى المفسّرون بأنَّ امرأة العزيز لم تكن من المؤمنات. لكن الحقيقة هي أنه بينما لم تكن امرأة العزيز مؤمنة حين وضعت يوسف في السجن فإنه ليس هنالك ما يمنع من أن تكون آمنت فيما بعد، ربما من بعد أن رأت إخلاص يوسف لربّه. بل بالرغم من عدم وجود أي فرق في السلوك بين امرأة العزيز وباقي النسوة حين راودن يوسف عن نفسه، فإن سلوكها المختلف في حضور الملك لا يترك أي شك في أنّها تغيّرت تماما ولم تعد واحدة منهن. ويجب أن لا ننسى هنا أن يوسف عاش في بيت العزيز عدداً من السنين لا بد أن يكون قد تحدّث خلالها كثيراً عن دينه الحق، مثلما تحدّث إلى صاحبي سجنه. فمن

الممكن جدا أنه بالرغم من أن كلام يوسف الارشادي لم يؤثّر فيها في حينه فإن ما أتبعه من فعل مبني على ذلك الكلام، وعلى وجه الخصوص اختياره السجن على معصية الله، ترك فيها أثرا كبيرا وأصبح سببا لهدايتها.

ونأتي الآن إلى الملاحظة الثالثة، التي كان الطباطبائي أحد من ذكرها للاعتراض على تفسير هذه الآية الكريمة على أنها من كلام امرأة العزيز. يُلاحظ أولئك المفسِّرون بأنَّه لما كان القول ﴿وَأَنَّ اللَّـهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ هو تكملة للقول ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ فإنه يجب أن يكون معطوفا على كلمة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ وبالتالي فكأنّ القائل يقول: «ولكي يعلم يوسف بأنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين». وحجّة المفسِّرين هي أن امرأة العزيز لا يمكن أن تكون قد قالت ذلك لأنها لم تكن في موقع من ينصح يوسف وهو الذي قال لها حين راودته عن نفسه: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

إن الخطأ في هذه الحجة هو أن القول ﴿وَأَنَّ اللَّـهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ليس معطوفا على كلمة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ وإنما على كلمة ﴿ذَلِكَ﴾ في القول ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّـهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾، أي كأنها قالت «ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وذلك أن الله لا يهدي كيد الخائنين».

لذلك فمعنى القول هو: «إنني اعترفت بالحق ليعلم يوسف بأنّني لم أخنه في غيبه ولأن الله لا يهدي كيد الخائنين»، وهذا يُسقِط أساس اعتراض المفسِّرين أعلاه على تفسير ذلك القول على أنه من كلام امرأة العزيز.

ومعنى ﴿وَأَنَّ اللَّـهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ هو «إن الله لا يصوّب فعل الخائنين»، ولذلك فإن من المنطقي للشخص المؤمن أن يتجنّب الخيانة.

وهكذا تشير كل الدلائل إلى أن ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّـهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ هو من كلام امرأة العزيز عن يوسف وأنها كانت مؤمنة حين قالت ذلك الكلام.

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)﴾.

من الواضح أن قائل ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ يعترف بذنبه ولا يريد مجرّد تبرئة نفسه. كما يؤكّد في قوله ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ بأنَّ كل نفس تدفع صاحبها إلى عمل السوء، مستثنيا من ذلك النفس التي يغدق عليها الله رحمة منه فيصرفها عن الأمر بالسوء، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾. ثم ينهي القائل خطابه بالتأكيد على أن الله ذو مغفرة وذو رحمة.

ومثلما حدث مع الآية الكريمة السابقة، انقسم المفسِّرون بشأن قائل هذه الآية الكريمة بين من ينسبها إلى امرأة العزيز ومن يعزوها إلى يوسف. ويبدو أن السبب الرئيسي في نسبة فريق من المفسرين لها إلى يوسف هو وضوح علامات الإيمان على قائلها حيث لا يعتقد المفسِّرون بأنَّ امرأة العزيز يمكن أن تكون قد آمنت. إلا أنه ليس هنالك على الإطلاق أية إشارة في القرآن العظيم تستوجب استبعاد احتمال أن تكون امرأة العزيز قد آمنت لاحقا. بل شاهدنا في تفسيرنا للآية السابقة بأنَّ تحليل الآيات الكريمة يقودنا فعلا إلى استنتاج أنَّ امرأة العزيز آمنت فعلا. لذلك فإن نسبة المفسِّرين هذا القول إلى يوسف لا اساس له.

وهنالك أيضا حجة لا يمكن ردّها على أن هذه الآية الكريمة والتي سبقتها لا يمكن أن تكونا من قول يوسف، وهي أن الكلام في كلتي الحالتين قيل حين كان يوسف لايزال في السجن، وذلك بعد إعادته لرسول الملك بطلبه من الملك التحقيق في قصّته وقبل زيارة رسول الملك الثانية له في السجن التي سنقرأ عنها في الآية الكريمة التالية. من المهم أيضا ملاحظة أن الكلام في هذه الآية الكريمة هو جزء من حوار، وبينما تتحدّث الآيات الكريمة السابقة عن حوار بين الملك وامرأة العزيز ليست هنالك أية إشارة على أن يوسف كان يتبادل الحوار مع أحد. لذلك فإن الكلام في هذه الآية الكريمة يجب أن يكون من قول امرأة العزيز جوابا على الملك.

ويستوجب نسبة القول في هذه الآية الكريمة إلى امرأة العزيز نسبة الآية التي سبقتها أيضا اليها. وبذلك فإن قول ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هو تأكيد من امرأة العزيز، من بعد اعترافها بما قامت به تجاه يوسف، بأنَّها تريد قول الصدق لا مجرّد تبرئة نفسها من الذنب، وأنّ النفس تأمر المرء بعمل السوء ما عدا تلك النفوس التي يرحمها الله، وأنهت قولها بالتأكيد على أن الله ذو مغفرة ورحمة.

لإنهاء امرأة العزيز كلامها بالإشارة إلى «مغفرة» و«رحمة» الله في قولها ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ دلالات مهمة. قسّمت امرأة العزيز النفوس إلى صنفين، أولهما الأمّارة بالسوء. لقد درجت هذه النفوس على عمل السوء وهي لذلك بحاجة إلى «مغفرة» الله. أما الصنف الثاني فيضم النفوس التي أغدق الله عليها «رحمة» ولذلك فهي ليست بأمّارة بالسوء، أي نفوس سبقت «رحمةُ» الله «مغفرَته» لها.

لاحظ وصف النفس أولا بالسوء ومن ثم استثناء تلك التي لا ينطبق عليها ذلك الوصف. ويعود هذا إلى أن أغلبية الأنفس هي أمّارة بالسوء وأن التي يرحمها الله فلا تأمر بالسوء أساسا هي القِلّة.

لاحظ أيضا أن صفة ﴿غَفُورٌ﴾ ترد قبل صفة ﴿رَحِيمٌ﴾، في توافق مع التسلسل الذي ذُكِر فيه صنفا النفس اللذان تتعلّق كل صفة بواحد منهما.

ولكن كيف توصّلت امرأة العزيز إلى هذا العلم؟ إن ما ساعدها على الوصول إلى هذا التحليل لطبيعة النفس هو هداية الله أولا، وتجربتها الشخصية مع يوسف ثانيا. فتقسيم امرأة العزيز للنفس إلى النفوس الأمارة بالسوء وتلك التي لا تأمر بالسوء برحمةٍ من الله هو وصف صادق ودقيق يشمل كل النفوس التي شاهَدَتْها. كما يعكس وصفها للنفس الأمارة بالسوء بأنّها الحالة العامة وأن النفس التي لا تأمر بالسوء برحمة من الله هي الاستثناء لحقيقة أن نفسها ونفوس النسوة اللاتي قطّعن أيديهنّ ونفوس كل من شاركها في كيدها حين وضعت يوسف في السجن كانت كلّها أمّارة بالسوء، بينما كانت نفس يوسف فقط من صنف النفوس الكريمة الثاني.

ويكشف هذا التحليل القرآني الرائع للنفس حقيقة مفهوم العصمة، حيث تمثّل

العصمة حالة الصنف الثاني من النفوس. فالعصمة هي رحمة يغدقها الله على عبده فلا يقع في المعصية. أي إن النفس المعصومة هي النفس التي لا تأمر بالسوء بفضل رحمة من الله. لاحظ اتّفاق الكلام اعلاه مع قول الله في الآية 24: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، حيث يصف الله تدخّله ليصرف عن يوسف ﴿السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾. أي إن الله تدخّل برحمته فعصم نفس يوسف عن الأمر بالسوء ومن ثم عن المعصية. إن العباد الذين يصفهم الله في الآية اعلاه بكلمة ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ هم الذين يرحمهم الله بأن يتولى حِفظَهم، وهم العِباد الذين تشير إليهم امرأة العزيز بقول ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾. لا يعني هذا التفسير للعصمة بأنَّ النفس المعصومة لا تخطئ على الإطلاق ولكن هنالك حدود لخطئها.

فليست العصمة حالة نفسية داخلية خالصة، وإنما حالة تدخل إلهي في النفس البشرية وفي محيطها لكي يصرف عنها السيئات. لاحظ مثلا كيف اعتراف يوسف لربّه بأنّه إذا لا يصرف عنه كيد النسوة فإنّه سيطيعهنّ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف: 33). ويفسّر هذا سبب وصف الله ليوسف باسم المفعول «مُخلَص» في عبارة ﴿مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، حيث إن الله هو الذي أخلَصَ يوسف لذاته عز وجل. لاحظ أيضا قول امرأة العزيز للنسوة ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ (يوسف: 32). يشير الفعل ﴿اسْتَعْصَمَ﴾ إلى طلب العصمة، أي الحماية، من مصدر خارجي، أي طلب يوسف للعصمة من الله. لقد كان يوسف يدري بأنَّ عصمته هي رحمة يغدقها الله عليه وليست شيئا نفسيا خالصا.

من الواضح أن قول ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ليس كلام شخص معصوم ولكن أحد أصحاب النفوس الأمّارة بالسوء. لذلك يجب أن يكون هذا كلام امرأة العزيز لا يوسف، وهو استنتاج يتّفق مع ما توصّلنا إليه سابقا.

7

يوسف في الحكم

شاهدنا في الفصل السابق ما حدث ليوسف في السجن وانكشاف حقيقة الظلم الذي تعرّض له للملك وكيف أصبح على وشك الخروج من السجن. وسنتابع في هذا الفصل قصته من خروجه من السجن إلى نعمة كبيرة من ربّه، ولقائه مع إخوانه العشرة لأول مرة منذ أن وضعوه في غيابة الجب. كما سنرى ما قام به في محاولته جلب بنيامين عنده في مصر.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54)﴾.

حين سمع الملك ما قالته امرأة العزيز وعلِم بتفاصيل قصّة إدخال يوسف إلى السجن تبيّن له مقدار الظلم الذي تعرّض له يوسف، كما أدرك أيضا طهارة وصبر وأمانة يوسف وامتلاكه للكثير من الصفات الحميدة التي تجعله شخصية استثنائية ونادرة المثال بكل معنى الكلمة. لذلك، وكما لاحظ القرطبي، بينما طلب الملك حضور يوسف عنده في المرة الأولى قائلا: ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾ في الآية 50، فإنه في طلبه الثاني ألحق قوله ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾ بعبارة ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾.

لقد أثار تفسير يوسف لرؤيا الملك فضوله، ومن المرجّح أنه صدّق التفسير أيضا، ولذلك فإنه أرسل إلى يوسف في المرة الأولى ربما ليسأله عن المنام ولأن يكرّمه بشكل ما. لكن بعد أن عَلِمَ من قصته ما عَلِمَ أعجب أشد الإعجاب به ولذلك فحين أرسل إليه يطلبه هذه المرة كان قد قرر مسبقا أن يكرّمه بخير كثير بل وأن «يستخلصه لنفسه»، أي يجعله من خاصته وأقرب مقرّبيه. فلاحظ الحكمة في

قرار يوسف بعدم الخروج من السجن حين أرسل إليه الملك أول مرة وطلبه منه التحقيق أولا مع النسوة بشأن ظلمهنّ له. ولاحظ عِظَم صبر يوسف الذي يكشفه قراره بتأجيل خروجه من السجن وهو الذي لبث فيه بضع سنين.

وتشير عبارة ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ﴾ إلى تكليم الملك ليوسف، ومن الواضح أنها تعني ضمنيًا حضور يوسف إلى بلاط الملك هذه المرّة. كما تمثّل هذه العبارة برهانا آخر على ما بيّناه فيما تقدَّمَ من أن الآيتين السابقتين لم تكونا من كلام يوسف مع الملك، كما يشير بعض المفسّرين ضمنيًا أو صراحة.

إن استخدام الملك لعبارة ﴿الْيَوْمَ لَدَيْنَا﴾ في قوله ليوسف ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ هو للتأكيد على أن حال يوسف يومئذ عند الملك يختلف تماما عما كان عليه حاله سابقا في بيت العزيز وفي السجن. أما حال يوسف الجديد هذا فهو تقريب الملك له وجعله ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ لديه.

إن كلمة ﴿مَكِينٌ﴾ مُشتَقّة من «مكان» وتعني «ذو مكانة». أما كلمة ﴿أَمِينٌ﴾ فتظهر بمعنيين مختلفين في القرآن العظيم. حينما تُستعمَل صفة لمكان فإنها تكون مُشتَقّة من كلمة «أمان» وتعني «الآمِن»، أي الذي يتمتّع سكّانه بالأمان، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ (الدخان: 51)، وقوله ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ (التين: 3). أما حين ترد في وصف أشخاص فإن مصدرها هو كلمة «أمانة» وتعني في هذه الحالة «الذي يحافظ على الأمانة». على سبيل المثال، يستَخدِم الله كلمة ﴿أَمِينٌ﴾ عدة مرات في وصف رُسُلِه في إشارة إلى ائتمانه لهم على الرسالة وأنّهم كانوا أهلا لهذه الأمانة فأوصلوها إلى من يريد الله من غير تقصير أو تلاعب أو تحريف، كما في هذه الآيات الكريمة من سورة الشعراء: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107)﴾، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (191) وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194)﴾. إذا فقول الملك ليوسف بأنّه ﴿أَمِينٌ﴾ لديه يعني بأنّه قرّبه منه إلى حد ائتمانه.

يبيّن سلوك الملك بما لا يقبل أي شك بأنّه لم يكن يعرف يوسف قبل حادثة

رؤيته التي فسّرها يوسف وأنه لذلك لا يمكن أن يكون العزيز، كما سبق وأن بيّنّا سابقا.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55)﴾.

إن قول الملك ليوسف ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ لم يكن مجرّد تبليغ ليوسف بأنّه قد منحه مكانة متميّزة عنده وبأنّه يرى فيه شخص جدير بالائتمان. إن المعنى الكامل لقول الملك لا يكشفه بدقّة سوى طلب يوسف في هذه الآية الكريمة: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾. إذ لاحظ أن كلمة ﴿مَكِينٌ﴾ لوحدها هي كلمة غامضة لا يستبين معناها الكامل إلا بتحديد «المكانة» المقصودة وأنّ كلمة ﴿أَمِينٌ﴾ هي الأخرى غير واضحة المعنى تماما حتى تتحدّد «الأمانة» المقصودة.

كان قول الملك في الواقع عَرْضا ليوسف بأن يجعله في موقع رفيع في السلطة وأن يأتمنه على مسؤولية في مملكته. أما عدم تحديد الملك لتلكما «المكانة» و«الامانة» فيعني تركه ليوسف تحديدهما. أي كأنّ الملك قال ليوسف «إننا نريد أن نجعلك مكينا وأمينا في مملكتنا فما هي «المكانة» التي تريد احتلالها وما هي «الأمانة» التي تريد حملها؟». لذلك، فإن طلب يوسف من الملك أن يجعله ﴿عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ لم يكن مبادرة من يوسف، كما يظنّ المفسّرون، وإنما ردّا منه على عرض الملك. بل إن قول يوسف ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ لا يمكن فهمه إلا كجواب على طلب الملك منه تحديد المكانة التي يريدها والأمانة التي يريد أن يكون مسؤولا عنها لأن تقدير الجواب هو: «اجعلني أمينا على خزائِن الأرض»، وسبب استتار كلمة «أمين» في قول يوسف هو أن قوله كان جوابا على عرض الملك.

إن تعبير ﴿خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ يعني «خزين محصول الأراضي الزراعية». من الواضح أن طلب يوسف من الملك أن يجعله أمينا على خزائن الأرض له علاقة بما كان سيجري من أحداث وفقاً لتفسيره لرؤيا الملك. إذ طلب يوسف من الملك أن

يجعله مسؤولا عن خزن الحبوب والتصرّف بها وهو الذي كان قد أشار على ساقي الملك حين زاره في السجن الاجراءات الواجب اتّخاذها لدرء خطر القحط القادم. من الجلي أيضا أن خروج يوسف من السجن كان في وقت بدء تحقّق رؤيا الملك، أي بدء سنين الخير السبع. وبالتالي فإنه كان مسؤولا عن تطبيق مقترحاته بشأن القحط القادم.

ويشير وصف يوسف لنفسه في نهاية خطابه للملك بأنّه ﴿حَفِيظٌ﴾ إلى حفظه للأمانة والذي يعني في هذا السياق الخاص محافظته على الحبوب وضمان عدم نفادها أو سرقتها أو تلفها. أما قوله بأنّه ﴿عَلِيمٌ﴾ فيحمل معنيين، أحدهما أكثر عمقا ولطفا من الآخر. إذ فَهِم الملك من قول يوسف بأنّه يمكنه القيام بالمسؤولية التي اختار خير قيام، أي أنه فهم «العلم» الذي أشار إليه يوسف بأنّه العلم الذي يمكّنه من القيام بمهمّة أمانة خزائن الأرض بكفاءة. أما المعنى الآخر الأعمق والأكثر خفاء للعلم الذي تشير إليه كلمة ﴿عَلِيمٌ﴾ فهو علم يوسف بأنّ موقعه ذلك سيكون السبب الذي يجمعه ثانية بأبيه وإخوته ويعود عليهم جميعا بالخير الكثير، وهذا طبعا معنى لم يدركه الملك. هنالك المزيد من التفاصيل عن موضوع خزائن الأرض في الفصل الحادي عشر.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56)﴾.

تشير كلمة ﴿وَكَذَلِكَ﴾ التي تعني «وهكذا» إلى ما تقدّم من أحداث. تُعلِمُنا هذه الآية الكريمة بشكل غير مُباشر بموافقة الملك على تعيين يوسف في المنصب الذي أراده ردّا على طلب الملك منه أن يتّخذ مكانا في الحكم. تكلّمنا عن قوله ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ عند تفسيرنا للآية 21، حيث إنّه نفس الوصف الذي استخدمه الله لحالة يوسف بعد أن جعله يستقر في بيت الرجل الذي اشتراه من مصر والذي يعني «وكذلك وفّرنا ليوسف مكانا في الأرض». إلا أن هذا القول متبوع في هذه الآية الكريمة بعبارة: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾، لأن «المكان» الذي

يسّره الله ليوسف هذه المرة لم يقتصر على بيت أو منطقة معيّنة وإنما امتد على طول المملكة وعرضها، ولأن يوسف هو الذي كان صاحب القرار هذه المرّة بشأن مكان استقراره. يشير قوله ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ إلى حرية يوسف في اختيار مكان استقراره وإلى أن كل أرض مصر أصبحت تحت تصرّفه ليستقر حيث يشاء فيها.

لاحظ أيضا أن الله أتْبَعَ قوله الكريم ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ بعبارة ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ في الآية 21، إلا انه لم يكرّر هذه العبارة في الآية اعلاه وذلك لأنّ الله كان قد علّم يوسف له تأويل الأحاديث. لقد كانت لله غاية مختلفة تماما في تمكين يوسف في الأرض هذه المرة، وكما ستكشف لنا أحداث القصة.

وكما لاحَظَ الطباطبائي، فإن قوله ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ في الآية اعلاه يقابل قوله في الآية 21 ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾. وبينما يعني القول العام في الآية 21 بأنَّ الله فاعل لما يريد ولا رادّ لأمره، فإن قوله ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ يشير خصوصا إلى رحمة الله لعباده، مؤكّدا بأنَّ الله يرحم من يشاء وأن لا رادّ لرحمته عمّن يشاء. وكما قال الطباطبائي فأحسن القول، لو كان لتظاهر الأسباب القدرة على منع رحمة الله من الوصول إلى عبد من عباده لنجحت الأسباب الكثيرة التي اجتمعت ضد يوسف على منع وصول رحمة الله إليه.

لاحظ أن ذكر الله لجزائه للمحسنين في الآية 22 جاء بعد أن منح الله يوسف نعمة يمكن وصفها بأنّها «روحية»، وهي «الحكم والعلم»: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾. أما ذكره لمكافأته للمحسنين في الآية أعلاه فجاء بعد أن منح الله يوسف نعمة يمكن وصفها بأنّها «دنيوية»، وهي «المكانة الرفيعة في الأرض». إن هنالك ترابط صميمي بين الحياة الدنيوية للإنسان وحياته الروحية. فالعبد الضال الذي لا يستغل الحياة الدنيا لتطوير نفسه روحيا إنما يجعل من حياته الدنيوية سبب موته روحيا. أما العبد الصالح فيجعل مما يناله في الدنيا وسيلة في بناء كيانه الروحي، فتصبح حياته الدنيوية مصدر غذاء روحي مستمر له

وكذلك لغيره. لاحظ كيف كان صبر يوسف على ما أصابه من بلاء كبير وشكره على ما ناله من فضل وسيلتين في رحلته الروحية للتقرّب من الله. وكان قربه من الله وسيلة أيضا في قيادة الكثيرين ممن اتّصلوا به إلى الله.

أما قوله ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فهو بلاغ من الله بأنّه لا يضيع أجر الصالحين في الدنيا والآخرة. وهذه هي المرة الثانية التي يصف فيها الله يوسف بالإحسان حيث سبق وأن قال عنه في الآية الكريمة 22: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (57)﴾.

لقد أخطأ الطباطبائي في قوله بأنّ هذه الآية الكريمة خاصة بالأولياء ولا تنطبق على عامّة المؤمنين حيث ظنّ بأنّ تعبير ﴿كَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يشير إلى فريق خاص من «الذين آمنوا». إنّ الأجر المقصود بأنّ أجر الآخرة خير منه هو أجر الدنيا الذي أشار إليه في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾. وسبب إتباعه لعبارة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بعبارة ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ هو أن الإيمان لوحده من دون عمل صالح لا يكفي، وأن مفهوم «التقوى» يشمل «الإيمان والعمل الصالح» الذي قد بيّن الله في الكثير من الآيات بأنّه طريق الوصول إلى رحمته، وكما في قوله، على سبيل المثال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: 82).

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58)﴾.

تخبرنا هذه الآية الكريمة عن مجيء إخوة يوسف إلى مصر، وهو مجيء قدري خطّطت له ونفّذته يد الله اللطيفة. ربما كان يوسف يشرف بنفسه على توزيع المؤن فالتقى بإخوته حين جاءوا يطلبون المؤن. لكن ليس من المُستبعَد أيضا أنه وهو العالم بتأويل الأحاديث كان على علم باقتراب وقت مجيء إخوته وأنه بدأ يقابل طالبي المؤن بنفسه ترقّبا لوصول إخوته، إذ كان قادرا على أن يخبر رفيقي سجنه عن الطعام الذي سيأكلونه قبل أن يأتي. وأشار عبد الحميد طهماز إلى أن قوله

الكريم ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ يعني بأنَّ يوسف عرف إخوته بعد دخولهم عليه، مما يعني بأنَّه لم يكن يعرف بأنَّ إخوته كانوا بالباب قبل دخولهم عليه[1].

وسنرى في الآية القادمة بأن عدد إخوة يوسف الذين جاءوا إلى مصر كان عشرة حيث لم يكن معهم أخو يوسف من أمه.

بينما عرف يوسف إخوته فإنهم لم يعرفوه: ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾. ويعود سبب عدم معرفتهم له إلى أنه كان يبدو مختلفا تماما عن الطفل الذي ألقوه في غيابة الجب سنين طويلة قبل ذلك الحين. فقد كان مختلفا شكلا وعمرا ومكانة وملابسا وربّما حتى لغة، هذا إذا حدّثهم بلغة المصريين عن طريق مترجم.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59)﴾.

من بعد أن جهّز يوسف إخوته ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾، أي «بتجهيزاتهم» من المواد الغذائية، قال لهم: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾. من الواضح أن يوسف استدرَجَ إخوته خلال لقائه بهم للحديث عن أهلهم بحيث لا يجعل طلبه منهم بأن يأتوا بأخيهم يتساءلون عن مصدر علمه بأنَّ لهم أخا من أم أخرى ويخطر بالتالي على بالهم ما كان يريد أن يبقيه سرا في ذلك الوقت وهو أنه أخوهم يوسف.

لاحِظ استعمال يوسف لصيغة النكرة في إشارته إلى أخيهم حيث قال ﴿بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾ ولم يقل «بأخيكم من أبيكم». يبدو أن إخوته لم يقولوا له بأنَّ لهم أخ واحد فقط، إلا أننا لا ندري طبعا الذي قالوه بالضبط.

ولا يخبرنا القرآن صراحة عن تبرير يوسف لإخوته طلبه منهم جلب أخيهم. إلا أن أحد الاحتمالات الممكنة هو أنه تحجّج بأنَّه أراد ضمان وصول بعض الطعام الذي زوّدهم به إلى أخيهم ذلك وأمّه.

إن كلمة ﴿الْكَيْلَ﴾ تعني «ما يُكال»، سواء وزنا أو بأي أسلوب قياس آخر، من

---

(1) طهماز، الوحي والنبوّة والعلم في سورة يوسف.

المواد. لذلك فإن قوله ﴿أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ يعني «أنّي أعطي الكيل كاملا ولا أُنقص منه شيئا». أما تتمة قوله ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ فتعني «وأنا أحسن من يكرم من ينزل عندَه».

﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ (60)﴾.

كان قول يوسف لإخوته ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ ترغيب لهم للمجيء بأخيه إليه، لكن تتمّة خطابه في هذه الآية الكريمة هو ترهيب. إذ يخبرهم بأنَّهم إذا جاءوا مرة أخرى للكيل من دون أخيهم فلن يكيل لهم، وأنهم لن يُقرَّبوا منه، وهو معنى ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾، كما قُرِّبوا في زيارتهم الأولى.

ربما تظاهر يوسف بأنَّه لن يصدّق ما قاله إخوته عن أهلهم وأصلهم إلا إذا جاءوه بأخيهم.

ولكن لِمَ أخفى يوسف حقيقة شخصيّته عن إخوته ولجأ إلى الحيلة في طلبه منهم المجيء بأخيه إليه وما إلى ذلك من تفاصيل سنراها قبل أن يكشف لهم عن حقيقته؟ لِمَ لَمْ يقل لهم بأنَّه يوسف ويطلب منهم جلب أهلهم إلى مصر للعيش معه كما سيفعل في النهاية؟ سيصبح الجواب على هذا السؤال واضحا حين ندرس الآيات القادمة.

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (61)﴾.

من الجلي من جواب إخوة يوسف على طلبه بأن يحضروا له أخاهم من أبيهم بقولهم ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾، أي سنطلبه من أبيه، بأنَّهم كانوا حدّثوه عن تفضيل أبيهم لأخيهم وأنه لم يكن يتركه في صحبتهم. وحتى إذا كان يوسف غير متأكّدا إذا كان إخوته لايزالون مستمرّين في إساءة معاملة أخيهم من أبيهم فإنّ معرفته منهم بحرص أبيه على عدم ترك بنيامين في معيّتهم أكّد له بأنَّهم كانوا لايزالون يكنّون السوء لأخيهم. وسنجد فعلا في الآيات القادمة ما يكشف بوضوح بأنَّهم كانوا لايزالون يحملون مشاعر سوء تجاه يوسف وأخيه.

هذا هو سبب عدم كشف يوسف هويّته لإخوته وطلبه منهم أن يأتوا بأهلهم إلى

مصر للعيش معه. فلو فعل يوسف هذا في ذلك الوقت، حين كان إخوته لايزالون في حالهم ذاك، فإنهم كانوا سيفضّلون العودة إلى أبيهم من غير أن يخبروه بعثورهم على يوسف وما كانوا سيعودوا إليه ثانية، وبالتالي فإنه كان سيفقد كل أثر لهم مرة أخرى. بالإضافة إلى أنّ إخوة يوسف كانوا لايزالون يكنّون السوء له فإنهم كانوا سيخافون أيضا من أن ينتقم منهم مما فعلوه به وقد أنعم الله عليه بأن جعله صاحب مكانة رفيعة في مصر، وهذه أسباب كافية لإقناعهم بعدم العودة إلى يوسف وإخفاء أمره عن أبيهم.

فأراد يوسف جلب شقيقه إلى مصر ليضمن وجود صلة أخرى بينه وبين أهله غير إخوته العشرة. وما كان يوسف سينجح في الطلب من إخوته جلب أبيهم وعوائلهم للعيش في مصر من غير أن يكشف عن حقيقة شخصيّته، لأن من المرجّح أن يعقوب ما كان سيحبّذ فكرة الهجرة إلى أرض غربة. لذلك كانت خطة جلبه لأخيه إلى مصر هي الأضمن لوصوله إلى هدفه النهائي، وهو جلب جميع أهله إلى مصر.

لاحظ أنّ كلمة ﴿يَرْتَعْ﴾ في قول إخوة يوسف لأبيهم ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ تشير إلى أنّهم كانوا رعاة. كما أنهم كانوا من البدو الرحّل الذين ليس لهم مكان إقامة ثابت، وكما يتّضح لاحقا في قول يوسف لأبيه حين جاء إلى مصر: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِن الْبَدْوِ﴾.

ويفسّر هذا عدم إرسال يوسف لمن يبحث عن أهله بعد أن مكّن الله له في مصر، إذ لا بد وأن يكون أهله قد غيّروا مكان سكنهم مرات عديدة منذ فارقهم. ولذلك فإنه كان يعتمد على إخوته للعثور على أهله.

أما قولهم ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ فهو تأكيد ليوسف على أنّهم سيحاولون إقناع أبيهم بالسماح لهم بجلب أخيهم إلى مصر. وسنرى بأنّهم كانوا صادقين في قولهم هذا لأنّهم كانوا فرحين بل ومتفاجئين بما حصلوا عليه من يوسف وكانوا يطمعون بالمزيد.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62)﴾.

تشير كلمة «رِحال» إلى «حاجيات الراحلين». ومفرد «رِحال» هو «رَحْل» وهي حاجيات الراحل، أي المسافر، الواحد. فليس بمُستغرَب أن نجد كلمة «رَحْل» مُستَخدَمة في الإشارة إلى ما يوضع على الحيوانات التي تُستَخدَم في التنقّل. ومعنى الآية الكريمة هو أن يوسف أمر بعض من يعمل عنده أن يضعوا البضاعة التي جاء بها إخوته ودفعوها إليه ثمنا لشراء الحبوب في رِحالِهم. وسبب قيام يوسف بذلك يفسّره النصف الثاني للآية الكريمة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. أي أراد يوسف جعل إخوته يعودون إليه بعد وصولهم إلى أهلهم «مباشرة».

ولكن كيف يسبّب وضع البضاعة في رِحال إخوته عودتهم إليه مباشرة؟ يبدو أن البضاعة التي جاء بها إخوة يوسف هي كل ما كان لديهم ولذلك فإن إعادتها إليهم كان سيمكنهم من العودة إليه مباشرة من دون الحاجة إلى الانتظار فترة طويلة قبل الحصول على بضاعة جديدة يمكنهم التجارة بها. وفعلا سنرى بأنّه بعد أن يستبدل إخوة يوسف بضاعتهم في زيارتهم الثانية، التي لا يعيدها إليهم يوسف هذه المرة، فإنهم يضطرون في زيارتهم الثالثة إليه جلب ﴿بِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾، أي «بضاعة ذات نوعية رديئة»: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (يوسف: 88). وهذا يؤكّد بأنّه لم يكن قد بقي لديهم المزيد من البضائع لاستبدالها بمؤن، ومما يؤكّد بدوره بأنّهم لم يكونوا يملكون الكثير من البضائع وأن إعادة يوسف لبضائعهم إليهم كان ضروريا لجعلهم يعودوا إليه بشيء يتاجرون به. أما مجيئهم ببضاعة مُزجاة في المرة الثالثة فيعود إلى أنهم لم يأتوا للتجارة فعلا وإنما للبحث عن يوسف وشقيقه، حيث كان جلب تلك البضائع مجرّد ذريعة للمجيء إلى مصر ومقابلة يوسف.

إذا كان معنى الفعل ﴿يَعْرِفُونَهَا﴾ هو «إدراكهم لكونها بضاعتهم»، فيكون معنى الآية الكريمة هو أن معرفة إخوة يوسف للبضاعة كانت ستجعلهم يعرفون أنها أُعيدَت إليهم عمدا فيرون في ذلك إحسانا من قبل يوسف وبالتالي يعودون إليه متأمّلين منه المزيد من الفضل.

إن كلمة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ في عبارة ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ تعنى «عسى»، وهي لا تعود على الفعل ﴿يَعْرِفُونَهَا﴾، إذ من البديهي أن إخوة يوسف كانوا سيعرفون بضاعتهم حين يجدونها، وإنما تعود على عبارة ﴿يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ بأكملها.

أي أن المقصود هو «عسى أن يجدوا البضاعة حين يعودوا إلى أهلهم». وسنبحث في تفسيرنا للآية الكريمة 65 سبب رغبة يوسف بأن لا يجد إخوته بضاعتهم إلا حين يعودوا إلى أهلهم.

أما كلمة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ في عبارة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فمعطوفة على كلمة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ في عبارة ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ السابقة. أي أن رجوع إخوة يوسف مرتبط بمعرفتهم لبضاعتهم حين ينقلبوا إلى أهلهم، ولما كان هذا الأمر الأخير مشروط بكلمة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ فإن عودتهم إليه يجب أن يكون هو الآخر مرتبطا بكلمة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾. لقد شاهدنا نفس حالة الاستخدام المزدوج لكلمة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ في الآية 46 أيضا.

يبدو أن معنى كلمة «انقلب» التي ترد بصيغة الفعل ﴿انقَلَبُوا﴾ هو «الانعكاس» أو «الارتداد عقبا».

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (63)﴾.

عندما عاد إخوة يوسف إلى أبيهم قالوا له ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾، أي «مُنِع عنا كيل المؤن مُستقبلا»، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾، أي «إلا أن تُرسِل معنا أخانا إلى مصر فيُكال لنا». ثم وعدوا أباهم بالمحافظة على أخيهم بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

وهذه هي نفس العبارة التي استخدموها في ادّعائهم حفظ يوسف في الآية الكريمة 12.

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64)﴾.

ليس من المُستَغرَب أن نجد رد يعقوب عتابا لبنيه على ما فعلوا بيوسف مذكّرا إيّاهم بأنَّه كان قد آمنهم على يوسف من قبل إلا أنّهم خانوا الأمانة. أي كأن يعقوب يقول لبنيه: «كيف آمنكم على أخيكم وقد آمنتكم على أخيه يوسف من قبل فخنتم الأمانة رغم ادّعائكم حفظكم له؟». وهذا إقرار ضمني من يعقوب بأنَّ ائتمانه لبنيه على يوسف في الماضي كانت له نتائج سلبية وأن ائتمانه لهم على شقيقه ستكون له نتائج شبيهة.

من المهم ملاحظة تركيز يعقوب في خطابه لبنيه على قراره وفعله هو وليس على فعل أولاده، حيث لم يقل لهم شيئا من قبيل: «هل ستحافظون عليه إلا كما حافظتم على أخيه من قبل»، وإنّما ركّز في كلامه على قراره هو بائتمانه لهم على أخيهم: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾. وسبب ذلك هو أنه حين سمح لبنيه بأخذ يوسف معهم كان على علم تام بما كنّه بنوه ليوسف وبالتالي فإن قوله يعكس اعتقاده بأنَّ السبب في ما حدث ليوسف كان قراره بائتمانهم على يوسف.

أما قول يعقوب ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ فهو استدراك لما قال في لوم نفسه. أي كأنه يقول لبنيه: «رغم أنكم لم تحافظوا على يوسف بل غدرتم به، ورغم أنني لم أحافظ عليه حين تركته يذهب معكم، فإن الله خير حافظ له ولكل شيء». كما يشير قول يعقوب هذا إلى علمه بسلامة يوسف الذي كان في حفظ الله. قال يعقوب ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ في سياق الكلام عما حدث ليوسف، أي أنه كان لايزال حينئذ رافضا لطلب أبنائه أخذ بنيامين معهم.

ويتضمّن رد يعقوب على أبنائه انتقادا خفيا لهم «بعدم الأمانة»، وهي صفة بدت

واضحة عليهم عندما خانوا يوسف وسنراها جليّة مرة أخرى عندما يخونون شقيقه. على الخلاف من هذا، وصف الملك يوسف بأنّه ﴿أَمِينٌ﴾ وجعله أمينا على خزائن الأرض.

أما إتباعه قوله بعبارة ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فتأكيد من يعقوب على أنه بالرغم من كل ما جرى فإن الله هو أرحم بيوسف، مثلما هو أكثر حفظا له، من يعقوب نفسه وبنيه. وفعلا كان يوسف طيلة فترة غيابه في حفظ الله ورحمة منه رفعته إلى مكانة عالية في مصر. ويرى بعض المفسّرين بأنَّ في قول يعقوب هذا إشارة إلى معرفته بأنَّ الله سيرحمه ويجمعه بولده.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65)﴾.

بعد عودتهم إلى أهلهم وأخذهم بفتح أمتعتهم، تفاجأ إخوة يوسف مسرورين بأنَّ بضاعتهم التي استبدلوها بالحبوب في مصر كانت قد وُضِعَت مع أمتعتهم[1].

---

(1) من المُلاحَظ أن يوسف أمر فتيانه في الآية الكريمة 62 بوضع بضاعة إخوته في ﴿رِحَالِهِمْ﴾ بينما نجد الكلام هنا عن عثور إخوة يوسف على بضاعتهم في ﴿مَتَاعَهُمْ﴾. كما ذكرنا سابقا، تشير كلمة «الرَّحل» إلى أمتعة الراحل أي المسافر بشكل عام، أما «المتاع» فتعني حاجيات بشكل عام، وإن كان هنالك من المفسّرين من يرى بأنّها تعني في هذا الموضع ما يتاجِر به التاجر.
لقد مر بنا في الآية الكريمة 62 بأنَّ يوسف طلب من فتيانه وضع بضاعة إخوته في رِحال إخوته كي يعثروا عليها ﴿إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾. أي أراد يوسف للبضاعة أن توضع في مكان «خفي» في رِحال إخوته بحيث لا يعثرون عليها إلا حين يصلوا إلى أهلهم. أما اختيار المكان الأخفى في الرِّحال بحيث لا يلحظ إخوته بضاعتهم إلى أن يعودوا إلى أبيهم فقد كان واجب فتيان يوسف الذين وقع اختيارهم على «المتاع»، التي هي جزء من الرّحال وإن كان من الصعوبة تحديد الجزء الذي تمثّله بالضبط. من الممكن أن يكون فتيان يوسف قد وضعوا =

وكما بيّنّا، كان هدف يوسف من إعادة بضاعة إخوته تشجيعهم على العودة إليه مباشرة حيث كان يمكنهم استخدام البضاعة مرة ثانية لشراء المزيد من الحبوب. كما أكّد لهم الموقف طيبة يوسف وكرمه. إلا أن يوسف لم يرد إعادة بضاعتهم إليهم فحسب وإنما تقصّد إخفاءها بحيث لا يعثرون عليها إلا حين يصلوا إلى البيت، فيا ترى ما سبب ذلك؟

إن الأرجح هو أن تلك الخطة كانت ستخلق في بيت يعقوب وفي حضوره جوّا يشجّعه على إرسال ابنه الآخر مع إخوته. إذ حين أخبر بنو يعقوب أباهم في الآية 63 بمنع الكيل عنهم إلا إذا أخذوا بنيامين معهم إلى مصر رفض يعقوب في الآية 64 أن يرسله معهم. ولما كان جواب يعقوب في الآية 64 آخر ما قيل حول هذا الموضوع في حينه فمن الواضح أن النقاش انتهى حينئذ بهذا القرار. إلا أن عثور إخوة يوسف على بضاعتهم في متاعهم غيّر الأمور تماما.

كان عثورهم على بضاعتهم في متاعهم مفاجأة كبيرة لهم مثلما كانت مفاجأة ليعقوب، مما دفعهم إلى المحاولة ثانية إقناع أبيهم بإرسال أخيهم معهم إلى مصر. لا بد أن إخوة يوسف كانوا قد مدحوا يوسف أمام أبيهم على ما قام به نحوهم وأكّدوا له بأنَّ ذلك الشخص الرفيع المنزلة رجل طيب وأنّه لذلك سيلتزم بكلمته ويموّنهم من جديد إذا أخذوا بنيامين معهم. فكان عثورهم على بضاعتهم في متاعهم بمثابة تصديق لما قالوه عن يوسف وأعطاهم فرصة جديدة للتحدّث إلى أبيهم بشأن ذِهاب أخيهم معهم إلى مصر. فبدأوا خطابهم لأبيهم بالقول: ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾، أي: «يا أبانا ما نريد أكثر من هذا؟». ثم أضافوا: ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾، أي: «إن هذه البضاعة التي دفعناها ثمنا لما جئنا به من جهاز قد أُعيدت إلينا»، مما يعني بأنهم حصلوا على ما حصلوا عليه من يوسف من دون مقابل. ثم أخذوا في

=

بضاعة إخوته في «الجهاز» الذي جهّزهم به لأنهم ما كانوا سيفتحونه إلى أن يصلوا إلى البيت.

ذكر فوائد ذهابهم مرة أخرى للتموين بصحبة أخيهم، مبتدئين بالقول: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾، أي: «نأتي بمُؤَن لأهلنا». ثم أتبعوا ذلك بالقول: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾، أي: «ونحافظ على أخينا ونعيده إليك سالما»، ثم أضافوا: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾، أي: «ونحصل على مقدار حمل جمل إضافي من المؤنة لأخينا».

أما قولهم ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ فالمقصود به التأكيد على سهولة الحصول على كيل أحد عشر بعير بمجرّد ذهابهم مع بنيامين إلى يوسف مرة أخرى، بينما لن يحصلوا على شيء إذا ذهبوا بدونه. ويعني هذا بأنَّ يوسف كان قد وعد بإعطاء إخوته حمل بعير لكل منهم مقابل البضاعة التي يأتونه بها.

ربما لم يكن السبب الوحيد لرغبة إخوة يوسف في أخذ بنيامين معهم إلى مصر رغبتهم بالحصول على المزيد من المُؤَن. إذ إنّهم رأوا في شرط يوسف بجلبهم لأخيهم معهم للحصول على المزيد من المُؤَن ذريعة لجعل أبيهم يعامل بنيامين كما يعاملهم، أي بخلاف معاملته التقليدية الاستثنائية له، فيرسله معهم طلبا للرزق. وسنرى لاحقا حين يُتَّهَم أخوهم بالسرقة كيف يكشفوا عن غلٍّ كانوا لايزالون يكنّوه له.

ويرى بعض المفسِّرين بأنَّ الهدف من وضع يوسف للبضاعة في رِحال إخوته هو جعل يعقوب وأبناءه يشعرون بضرورة إعادتها إلى يوسف لأنها لم تعد بضاعتهم من بعد أن استبدلوها بالمُؤَن وبالتالي فإنهم كانوا سيضطرون إلى العودة إلى يوسف. إلا أن قول إخوة يوسف عن بضاعتهم ﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ تبيّن بأنَّهم لم ينظروا إلى الأمر كما يقترح المفسِّرون أعلاه وإنما اعتبروه بمثابة إحسان وكرم من قبل يوسف تجاههم. كما من الواضح من سياق الآيات الكريمة وما سبق لنا تفسيره بأنَّ خطة يوسف في إعادة إخوته لم يكن لها أية علاقة بجعلهم يشعرون بضرورة إعادة البضاعة لأنها لم تعد ملكا لهم. كان هدفه من إعادة البضاعة حثّهم على العودة إليه، وحثَّه على وجه الخصوص ليعقوب ليسمح لهم بالعودة إليه بصحبة بنيامين.

إن سبب وجود حرف العطف في بداية كلمة ﴿وَنَمِيرُ﴾ هو أنها معطوفة على

عبارة ﴿هَـٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾، أي أن إخوة يوسف اعتبروا «رد بضاعتهم إليهم» مكسبا مثلما هو حال «ميرة أهلهم» و«حفظ أخاهم» و«زيادة كيل بعير».

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (66)﴾.

شاهدنا في الآية 64 جواب يعقوب الأول على طلب بنيه في الآية 63 إرساله لبنيامين معهم إلى مصر لجلب المُؤَن، بينما تمثّل هذه الآية الكريمة جوابه على تكرار بنيه في الآية 65 لنفس الطلب ولكن بعد أن وجدوا بضاعتهم في متاعهم. لاحظ تغيّر جواب يعقوب عن جوابه الأول وموافقته على ذهاب بنيامين مع إخوته إذا وافقوا على شرطه. جاء هذا التغيّر في موقف يعقوب نتيجة لخطة يوسف في جعل بضاعة إخوته في رحالهم وإخفائها بحيث لا يجدوها إلا بعد وصولهم إلى بيت أبيهم.

ويبيّن نجاح خطة يوسف في هدفها بأنّ هذه الخطة كانت من ثمرة علم تأويل الأحاديث الذي أنعم به الله عليه. إذ كان يوسف على علم بأنّ يعقوب ما كان سيترك بنيه يصطحبون بنيامين إلى مصر فوضع تلك الخطة لإقناعه بإرساله مع إخوته. كان واضحا ليعقوب بأنّ عفوية عثور أبنائه على البضاعة في متاعهم كانت أصيلة وأنهم لم يقوموا بتدبير ذلك الموقف، مما طمأنه إلى أن بنيه لم يكونوا يكذبون حين قالوا له بأنّ الشخص ذو السلطة الذي زوّدهم بالمُؤَن في مصر طلب منهم جلب بنيامين في المرة القادمة وأن ذلك الشخص كان فعلا إنسانا طيبا يمكن الاطمئنان له.

ربط يعقوب موافقته على ذِهاب بنيامين مع بنيه العشرة بإعطائهم له موثقا من الله بأن يعيدوه إليه. والموثِق هو «وثيقة» أو «أمر قد تم توثيقه». أما وصف الموثِق بأنّه ﴿مِنَ اللَّـهِ﴾ فيعني جعل الله هو الشاهد والمُصادِق عليه وبالتالي فإن الذي يُعطي مثل هذا الموثِق يُصبح مسؤولا أمام الله بتطبيقه. أي أن المعنى العام لطلب يعقوب ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّـهِ لَتَأْتُونَنِي بِهِ﴾ هو أنه مستعد لإرسال بنيامين معهم ولكن بعد أن يعدوه بشهادة الله أن يعيدونه إليه.

ولـم ينسَ يعقـوب العليم أن يذكّـر بنيه بـأنَّ كـل ما يـستطيع أن يطلبه مـنهم في الموثِق من الله هو أن يبذلوا قصارى جهودهم في إعادة أخيهم إليه وأن الأمر هو في الـنهاية رهـن بـإرادة الله، فأتـبع طلـبه مـستدركا: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَـاطَ بِكُـمْ﴾، أي :«إلا أن يصبح أمر إعـادة بنيامين إليّ خارجا عن قدرتكم». وأصل معنى كلمة ﴿يُحَاطَ﴾ هنا هو أن يُحاصر المرء من كل جانِب فلا يجد وسيلة إلى فعل شيء.

وافق يعقـوب على طلـب بنيه بعد إلحاحٍ منهم مثلما فعـل حين راودوه حـول اصطحاب يوسف معهم، لكنه طلب منهم هذه المرة عهدا يشهده الله بأن يعودوا إليه بأخيهم إلا أن يُحاط بهـم. ويبيّن شرط يعقوب علمه بما كان يكنّه بنوه من مشاعر سوء لأخيهم، وهـو أمر رأينا وسنرى إشارات أخرى إليه، وأنهـم لـذلك ما كانـوا سيحرصـون عليه. لكـن يبيّن هـذا الـشرط أيضا علـم يعقـوب بأنَّ أبناءه كانوا يقيمون وزنا كبيرا لما يُشهِدون الله عليه.

وحين فعل بنو يعقوب ما أراده أبوهم منهم وآتوه موثِقا من الله، أكّد يعقوب بأنَّ الله هـو الـشاهد على تنفيذ هـذا العهـد: ﴿اللَّـهُ عَلَـى مَـا نَقُـولُ وَكِيلٌ﴾. تبيّن كلمـة ﴿نَقُولُ﴾ بأنَّ الموثِق الـذي أخذه يعقـوب مـن بنيه «شـفهي» ولـيس مـدوَّن. إن العهد الذي يقطعه المرء على نفسه أمام الله له نفس الأهمية والوزن سواء كان ذلك الموثِق كلمة منطوقة أو مكتوبة.

> ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِن اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67)﴾.

ثـم أمر يعقـوب بنيه بـأن لا يدخلوا مصر من بابٍ واحد بـل من أبواب متفرّقة. وهـنالك شبه إجماع بين المفسّرين على أن يعقـوب أمر بنيه بـذلك منعا لتعرّضهـم للحسد لكونهم أحد عشر أخا، لكـن ركاكـة هـذا التفسير جليّة للعيان. ويكفي دليلا على خطأ هـذا التفسير وضـوح سياق الآيـة الكـريمة بأنَّ أمر يعقوب هذا كان جديدا ولـم يأمر بـه بنيه حين ذهبوا في المرة الأولى إلى مصر مع أنهم كانوا عشرة أفراد

حينئذ، حيث إن بنيامين فقط لم يكن معهم.

ويدفعنا هذا إلى بحث احتمال أن يكون لأمر يعقوب علاقة بكونها رحلتهم الثانية إلى مصر. ويجب أن نتذكّر أيضا بأنَّ السفرة الثانية جاءت مباشرة بعد عودتهم من زيارتهم الأولى. وتبيّن السجّلات التأريخية المصريّة القديمة عن المكان الذي كان يعيش فيه يوسف وتلك الفترة من التاريخ، والتي سنتطرّق إليها بتفصيل في الفصل الحادي عشر، بأنَّ حرس الحدود المصريّين كانوا يدوّنون في سجلاتهم من يسمحون لهم بالدخول إلى مصر طلبا للمؤنة. فمن المرجَّح أن طلب يعقوب من أبنائه بالدخول من أبواب متفرّقة يعني وجود أكثر من نقطة حدودية للدخول إلى مصر وأنه أرادهم أن يدخلوا إلى مصر من غير أن يلاحظ أحد بأنَّهم نفس المجموعة التي سُمِحَ لها بالدخول قبل فترة قصيرة، الأمر الذي يمكن أن يسبّب لهم مشاكلا أو يتسبّب في منعهم من الدخول.

كما ومن المرجّح أن يعقوب أراد من أمره ذلك أن يجنّب وقوع جميع بنيه في مشكلة ما، فإذا حدث سوء لبعضهم عند دخولهم فيمكن للآخرين أن يتقصّون أمر إخوتهم ويحاولون مساعدتهم، مثلا بإيصال النبأ إلى يوسف الذي عاملهم بإحسان في زيارتهم الأولى والذي يمكن أن يتدخّل حينئذ لإنقاذِهم من مشكلتهم.

إن أمر يعقوب لبنيه كان «بالدخول» إلى مصر من أبواب متفرقة وليس «بالبقاء» فيها متفرّقين، مما يعني بأنَّهم كانوا سيجتمعون ثانية قبل دخولهم على العزيز، وهذا يؤكّد مرة أخرى بأنَّ التفرّق كان لتجنّب أية مشاكل عند الدخول كما أن الاجتماع ثانية يعني بأنَّهم كانوا سيعلمون إن كان قد أصاب بعضهم سوء ما. وهذا دليل آخر على خطأ قول المفسّرين بأنَّ هدف خطّة يعقوب كان تجنّب إصابة بنيه بالحسد، إذ إن تفرّقهم كان عند دخولهم فقط حيث كانوا سيجتمعون لاحقا داخل مصر.

مِثلما استدرك يعقوب قوله لبنيه في الآية السابقة بعبارة: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾، فإنه استدرك أمره لهم في هذه الآية الكريمة بقول ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِن اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ تأكيدا على أن الأخذ بالأسباب لا يمنع أمر الله إذا أراد الله شيئا. فتعني هذه العبارة «وما أستطيع أن أمنع عنكم أمرا ما من الله».

أما قوله ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فتذكير من يعقوب لبنيه بأنَّ الله هو الذي يحكم في مملكته بما يشاء، وكما في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (المائدة: 1).

إي إذا شاء الله فإنه يستطيع أن يحكم بأمر لا يفيد معه الدخول من أبواب متفرّقة. ويُنهي يعقوب قوله بالتأكيد على توكّله على الله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، داعيا أبنائه أيضا إلى التوكّل على الله لأنه هو وحده أهل بالتوكّل عليه: ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (68)﴾.

نفّذ بنو يعقوب ما أمرهم به أبوهم ودخلوا من أبواب متفرّقة: ﴿دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾. من الممكن أن قوله ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ وليس «كما» أو «مثلما» أو غير ذلك من التعابير يعني بأنّه حدّد أيضا لهم الأبواب المتفرّقة التي أمرهم بالدخول منها، أي يمكن أن يشير تعبير ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ إلى تحديده لأماكن الدخول وليس فقط كيفيته. لكن من الممكن أيضا أن أمر الدخول من أبواب متفرّقة عَنى، بشكل غير مباشر، الدخول من أماكن معيّنة ولم يكن يتطلّب تحديدها من قِبل يعقوب.

إن معنى ﴿يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ هو «يمنع عنهم أو يحميهم من أي شيء يريد الله فعله بهم»[1].

(1) هنالك ثلاثة تفاسير محتملة للضمير الذي تقديره «هو» في الفعل ﴿يُغْنِي﴾. **أولا**: يعود الضمير إلى عبارة ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ الواردة في الجملة نفسها، أي كأن الله يقول «ما كان من شيء ليُغني عنهم من الله». إلا أن هذا الاحتمال ضعيف جدا ويتوجّب استبعاده لأنّه يخالف معنى تعبيرات مشابهة في القرآن تتفق مع التفسيرين المحتملين الآخرين أدناه.

ثانيا: قد يعود الضمير على فعل الدخول الذي تبدأ به الآية الكريمة ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾. أي كأن الله يقول في هذه الحالة: «ما كان ذلك الدخول ليُغني عنهم من الله من شيء».

ثم يُتبع الله ذلك بقوله ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾. ويرجّح استعمال كلمة ﴿حَاجَةً﴾ مسبوقة بكلمة ﴿إِلَّا﴾ بأنَّ ضمير الغائب في العبارة السابقة يعود إلى فعل «الدخول» وليس إلى يعقوب. والمعنى هنا هو أن سلامة أبناء يعقوب لم تتحقّق بسبب من خطة الدخول من أبواب متفرّقة ولكن لأنّ الله أراد أن يقضي الحاجة التي كانت في نفس يعقوب التي جعلته يصمّم تلك الخطة، وتلك الحاجة هي سلامة جميع بنيه ووصولهم إلى العزيز. وتجدر الإشارة إلى أن كلمة ﴿إِلَّا﴾ هنا تفيد الاستدراك، أي أنها بمعنى «لكن»، ولا تفيد الاستثناء لأن عبارة ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِن اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ هي عبارة صحيحة بشكل مطلق وليس هنالك استثناء منها.

ويؤكّد الله في قوله الكريم ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ﴾ على أن يعقوب امتلك علما، فيما يبيّن قوله ﴿لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ بأنَّ الله هو مصدر ذلك العلم. ولكن ما علاقة موضوع الحديث في هذا الموقع بالذات بعلم يعقوب؟ من الممكن أن يكون استدراك يعقوب في قوله ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِن اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ هو العلم المقصود. إلا أن الأرجح هو أن سبب الإشارة إلى علم يعقوب هنا هو أن علم تأويل الأحاديث الذي كان قد آتاه الله يعقوب هو الذي جعله يعلم بأنَّ أولاده كانوا سيتعرّضون لسوء إذا لم يدخلوا من أبواب متفرّقة. كما من الممكن أن تكون الإشارة إلى علم يعقوب شاملة لكلي التفسيرين أعلاه، أي أن علم يعقوب المقصود هو علمه بتأويل

=

ثالثا: من الممكن أيضا أن يعود الضمير إلى يعقوب نفسه، حيث تبدو عبارة ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِن اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ تكرارا، ولكن باستخدام ضمير الغائب، لقول يعقوب في الآية السابقة: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِن اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾. أي يعود الضمير في هذه الحالة إلى كلمة ﴿أَبُوهُمْ﴾. ويكون معنى الآية الكريمة وفقا لهذا التفسير: «ما كان ابوهم ليُغني عنهم من الله من شيء».

ولكن أيا كان الصحيح من التفسيرين الأخيرين يبقى معنى قوله ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِن اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ تقريبا نفسه، وهو أن «يعقوب» أو «الدخول وفقا لخطة يعقوب» ما كان مانِعا لله لو أراد فعل شيء بأبناء يعقوب.

الأحاديث الذي يقف وراء أمره لأبنائه بالدخول من أبواب متفرِّقة وعلمه بقدر الله الذي يشير إليه قوله بأنَّ أمره وتدبيره ذلك لهم ما كان ليغني عنهم من شيء من أمر الله.

ويختم الله هذه الآية الكريمة بالتأكيد على أن أكثر الناس، على الخلاف من يعقوب العليم، يفتقرون إلى العلم، أي أنهم جاهلون. والمقصود بوصف الله ليعقوب بالعلم في هذا الموضع معنى محدّد له علاقة بسياق القصة، أما وصف الناس بالجهل فإنه وصف شامل.

8

يوسف يجتمع بأخيه

شاهدنا في الفصل السابق كيف بدأ يوسف تنفيذ خطّته لجلب أخيه عنده في مصر، وهو ما سنتابع حدوثه في هذا الفصل.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69)﴾.

عندما دخل إخوة إلى موضع يوسف وفي صحبتهم بنيامين، فإنه ﴿آوَى﴾ إليه شقيقه. يقول المفسّرون بأنَّ ﴿آوَى﴾ هنا بعنى «ضمَّ»، لكن هذا غير صحيح. لاحظ مثلا قوله عن الرسول الكريم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ (الضحى: 6)، وقوله عن أصحاب الكهف: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ (الكهف: 10)، فمعنى «يأوي» هو «يذهب إلى مأوى، أي مسكن». وبالتالي فإن ﴿آوَى﴾ هو: «أخذه إلى مأوى»، مما يجعل معنى ﴿آوَى إِلَيْهِ﴾ في الآية اعلاه هو: «أدْخَلَه إلى محل إقامته».

ولكن ما الفرق بين «دخول إخوة يوسف عليه» المُشار إليه في قوله تعالى ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ و«إيوائه أخيه إليه»؟ إن «دخولهم عليه» يعني دخولهم إلى مكان استقباله للزوّار الرسميين، اما «إيواءه أخاه إليه» فيعني أخذه لأخيه إلى المأوى، أي الغرفة أو المكان، الذي كان يقيم فيه شخصيا، أي تقريبه إليه أكثر. ففعل «الإيواء» يلي «الدخول على» الشخص، وهو ما سنشاهده أيضا في الآية 99 حين يأتي أهل يوسف إليه حيث يخبرنا الله عن «دخول الجميع عليه» أولا ومن ثم «إيواءه لأبويه إليه»: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ

أَبَوَيْهِ﴾. لاحظ أيضا أن فعل الدخول منسوب في الحالتين إلى الداخل، أي إخوة يوسف في المرة الأولى وجميع أهله في الثانية، بينما فعل الإيواء منسوب إلى صاحب المأوى، أي يوسف. وهذا تأكيد على خصوصيّة المأوى وأنه مكان لا يدخله أحد إلا بإذن مباشر من يوسف نفسه.

أدخل يوسف أخيه إلى غرفته الخاصة لتكليمه بمنأى عن مسامع إخوته حيث كشف له حقيقة كونه شقيقه الذي اختفى قبل العديد من السنين بسبب كيد إخوته. لقد شاهدنا بأنَّ إخوة يوسف كانوا يكنّون الحسد لبنيامين حين كان صغيرا: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (يوسف: 8)، ويتّضح من قول يوسف ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بأنَّ إخوته كانوا لايزالون يسيئون معاملة بنيامين، وهو سبب عدم رغبة يعقوب في تركه في صحبة إخوته. وتربط الفاء في ﴿فَلَا﴾ قول يوسف لأخيه ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ بقوله ﴿لَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وكأن يوسف يخبر أخاه بأن لا يحزن لما كان يفعله إخوته به لأن كل ذلك كان سيتغير الآن بعد أن أصبح معه.

ومن الجدير ملاحظة أنه بينما يذكر الله كشف يوسف لأخيه عن حقيقة هوّيته فإنه لا يخبرنا شيئا عن رد فعل بنيامين على هذه المفاجأة المهولة. إن هذا مثال آخر على ما ذكرناه في القسم 1-3 حول أسلوب القرآن العظيم الخاص في رواية التاريخ وعدم ذكره لتفاصيل لها أهمية خاصة في كتابات البشر. إن القراءة عن مظاهر الدهشة والفرح وغيرها التي لا بد وان ارتسمت على وجه شقيق يوسف وعما قاله حين سمع بخبر أخيه تثير متعة خاصة عند الناس، إلا أن إثارة المتعة ليس هدف الرواية القرآنية لذلك فلا نجد أي ذكر لتلك التفاصيل.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (70)﴾.

بعد أن أعطى يوسف لكلٍّ من إخوته حمل بعير من المَؤنة كما فعل في المرة الأولى، أمر بوضع ﴿السِّقَايَةَ﴾ في ﴿رَحْلِ﴾ أخيه. يتّفق المفسّرون على أن

﴿السِّقَايَةَ﴾ هي ما يشرب به المرء، ومن الواضح أنّها مُشتقّة من الفعل «سَقَى». حين أراد يوسف رد بضاعة إخوته إليهم بعد زيارتهم الأولى أمر بوضعها في رحلِهم بشكل خفي بحيث لا يكتشفونها إلا حين يفتحون متاعهم في بيت أبيهم ويكون من الواضح انه هو الذي أمر بإعادتها إليهم، أما هذه المرة فقد كان الهدف عكس ذلك تماما. إذ أراد يوسف وضع السقاية في مكان يجعل من السهل نسبيا العثور عليها عند البحث عنها، وفي نفس الوقت لا يجعل إخوته يشكون بأنَّه قد لعب دورا ما في الأمر.

من الجلي أن نسبة فعل وضع السقاية في رحل اخي يوسف إلى يوسف لا يعني بأنَّه هو الذي قام شخصيا بتلك الأفعال. إن المقصود هنا هو أن يوسف ذا المكانة العالية أَمَرَ أحد فتيانه بعمل ذلك.

ويتّفق المفسِّرون على أن يوسف أعلم بنيامين بخطّته لوضع السقاية في رحله وما سيلي من اتّهامه له بالسرقة، ومن المرجَّح أيضا انه أخبره بهدفه من فعل ذلك. ويؤيّد سياق الآيات الكريمة هذا التفسير، إذ كما شاهدنا في الآية الكريمة السابقة بأنَّ يوسف آوى إليه بنيامين بمعزل عن باقي إخوته وحدّثه بما لم يخبرهم به. كما أن خبر تنفيذ يوسف للخطة جاء بعد خبر إيوائه لأخيه إليه مباشرة، وفي ذلك إشارة غير مباشرة إلى إخباره له بما كان ينوي فعله.

بعد حصولهم على جهازهم وبعد أن وُضِعت السقاية، من غير علمهم، في رحل بنيامين، انطلق إخوة يوسف عائدين إلى أهلهم. ثم أرسل يوسف وراءهم من يتّهمهم بالسرقة.

ويعتقد القرطبي بأنَّ الفعل ﴿أَذَّنَ﴾ هو للتكثير، أي يعني «نادى مرارا». إلا أننا نرى بأنَّ فعل «الأذان» يشير إلى معنى أكثر عموما وهو الإعلان وإيصال ذلك الإعلان إلى من يستهدفهم والذين يوجدون عادة على مسافات متباينة من مكان الأذان. لذلك يتضمّن الأذان الإعلان بصوت عالٍ بغية إيصال الرسالة إلى مسافة بعيدة نسبيا وبالتالي إلى أكبر عدد ممكن من الناس، ويتضمّن كذلك التكرار. لاحظ مثلا أن أذان الصلاة هو للإعلان عن حضور وقت الصلاة، وهو يتضمّن استخدام

الصوت العالي والتكرار لإيصال الإعلان إلى أكبر عدد ممكن من المُصَلّين. من الواضح أن هنالك علاقة بين كلمة «أذان» وكلمة «أُذُن».

يرد الفعل ﴿أَذَّنَ﴾ في الآية الكريمة التالية حيث يشير الفعل ﴿نَادَى﴾ إلى وجود مسافة فاصلة بين ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ و﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف: 44). كذلك نجد استخدام الفعل ﴿أَذِّنْ﴾ في الآية الكريمة ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج: 27) يعني الإعلان بصوت يصل إلى مسافة بعيدة. لذلك فإن قوله ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ في الآية أعلاه يوحي بأنَّ إخوة يوسف كانوا قد تحرّكوا للمغادرة حين ناداهم منادي من مسافة ما متّهماً إياهم بالسرقة.

إن ترك يوسف لإخوته يذهبون إلى مسافة ما قبل إرساله ورائهم من يتّهمهم بالسرقة هدف إلى جعل المسألة تبدو طبيعية ولا تثير أية شكوك. إذ إن الانطباع الذي يتركه هذا هو أن غياب السِّقاية لوحِظَ بعد فترة من مغادرتهم وليس قبلها أو بينما كانوا على وشك المغادرة.

كما أشرنا في هامشنا على كلمة ﴿سَيَّارَةٌ﴾ في الآية 19، فإن كلمة ﴿عِيرُ﴾ تعني «قافلة بعير». يبدو أن كلمتي «عير» و«بعير» تشتركان في أصلهما اللغوي.

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (71)﴾.

رد إخوة يوسف على المؤذِّن الذي اتّهمهم بالسرقة قائلين: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾، أي مستفسرين منه عن الحاجة أو الحاجيات التي افتقدوها والتي يتّهمهم بسرقتها. لاحظ أن كلمتي ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿تَفْقِدُونَ﴾ تشيران إلى أن المؤذّن كان في جمع من الرجال الذين أرسلهم يوسف.

ويؤكّد قوله ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾، والذي يعني: «وهم يقتربون منهم» تفسيرنا لاستخدام تعبير ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ في الآية السابقة، فقد كانت قافلة إخوة يوسف قد

تحرّكت لمسافة ما مبتعدة عن مكان يوسف حين أرسل يوسف وراءهم بعض فتيانه الذين كان فيهم ذاك الذي صاح بالقافلة عن بعد متّهما إياهم بالسرقة.

ويبيّن تقديم الفعل ﴿قَالُوا﴾ على الفعل ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾ بأنَّ إخوة يوسف بدؤوا بمحاولة التحدّث إلى فتيان يوسف وهم يتحرّكون عائدين نحوهم.

﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72)﴾.

أجاب أصحاب المؤذّن على استفسار إخوة يوسف بأنَّ الحاجة التي يفتقدونها هي ﴿صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾. والصواع هو ما يُشرَب به، وهو نفسه ﴿السِّقَايَةَ﴾ التي ورد ذكرها في الآية الكريمة 70 التي أمر يوسف بوضعِها في رحل بنيامين.

من المُلاحَظ تغيّر ضمير المُخاطِب من صيغة الجماعة في بداية الآية الكريمة في قوله ﴿قَالُوا نَفْقِدُ﴾ إلى صيغة المفرد في نهاية الآية في قوله ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾، ثم عودته إلى صيغة الجماعة في الآيات الكريمة الثلاث التالية قبل تغيّره مرة أخرى إلى صيغة المفرد في الآية 76، التي من الواضح عودة ضمير المفرد فيها إلى يوسف. وهنالك عدد من التفسيرات المختلفة الممكنة لهذا، إلا أن التفسير الذي نُرجّحه هو أن ضمير المفرد في الآية الكريمة أعلاه يشير إلى يوسف. لهذا، فإن الوعد في النصف الثاني من هذه الآية الكريمة، والأحداث التالية، وقعت في مقام يوسف[1].

(1) هنالك احتمال بأن تكون كل الضمائر في الآيات 72-76 تشير إلى يوسف وأن استعمال صيغة الجماعة في الإشارة إليه يعود إلى مكانته الرفيعة. هنالك احتمال آخر بأن الحوار في الآيات 70-75 دار كلّه بين فتيان يوسف وإخوته وأن المُخاطِب المفرد القائل ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ هو المؤذّن أو أحد الذين معه من أصحاب السلطة وأنه كان من أصحاب السلطة أو أنه كان يتحدّث باسم يوسف. إلا أننا نستبعد هذين الاحتمالين.

وفقا للتفسير الذي نرجّحه، لم يكن يوسف حاضرا في بدء الحوار بين فتيانه وإخوته في الآية 70. إذ من المنطقي الظن بأنّه كان قد أرسل فتيانه وراء إخوته ليعودوا بهم إليه للتحقيق بشأن

إن معنى «زعيم بالشيء» هو «ضامِن له» أو «كفيل به»، أي كأن يوسف يذكّر إخوته بأنَّه هو صاحب السلطة مُعطي ذلك الوعد ولذلك فإن وعده حق. ومن الواضح أن هدف يوسف من إعطاء ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ لمن يجد الصواع هو التغطية على خطة أخذه لبنيامين حتى لا يشك إخوته في أنه قد رتَّب الأمر.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73)﴾.

أجاب إخوة يوسف قسما بالله بأنَّ يوسف كان يعلم بأنَّهم ما جاءوا إلى مصر لارتكاب السيئ من الأعمال وإنما طلبا للميرة، وأنهم ليسوا بسارقين. أي استشهد

السرقة وأنه لم يخرج بنفسه معهم لمثل هذه المهمة التي لا تتطلّب خروج من هو في منزلته. كما نستبعد أن يكون الموقف في الآية 76 التي تذكر يوسف صراحة هو أول ظهور له في الحوار بين إخوته وفتيانه، خصوصا وأن تفتيشه لأمتعة إخوانه يعني علمه بالحوار الذي دار بين إخوته وفتيانه. أي، وفقا لتفسيرنا، فإننا نحتاج أن نحدّد الموقف الذي أصبح فيه يوسف حاضرا في الحوار بين فتيانه وإخوته.

إن من المنطقي القول بأنَّ فتيان يوسف جلبوا إخوته عنده، لذلك فإن المطلوب هو تحديد بداية الحوار عند يوسف. إن أحد الاحتمالات الممكنة هو أن يكون انتقال ضمير المُخاطِب من صيغة الجماعة إلى صيغة المفرد في الآية أعلاه إشارة إلى انتقال مكان الحوار إلى حيث كان يوسف موجودا. أي كأن الكلام في نصف الآية الكريمة الأولى، ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾، دار بين إخوة يوسف والرجال الذين أرسلهم يوسف وراءهم، بينما دار نصف الآية الكريمة التالي، ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾، عند يوسف وذلك من بعد أن جلب رجاله إخوته إليه. إلا أن من الممكن أيضا أن تكون هذه الآية الكريمة قد دارت بأكملها في مقام يوسف. في كلتي الحالتين يكون الحوار حول موضوع السرقة الذي تسرده الآيات الكريمة التالية قد دار في مقام يوسف وبحضوره.

وفقا لتفسيرنا هذا فإن حوار إخوة يوسف كان مع يوسف، الذي يشير إليه ضمير المفرد، ورجاله، الذين يمثّلهم ضمير الجمع. ففي الآية الكريمة أعلاه، على سبيل المثال، تشير عبارة ﴿قَالُوا نَفْقِدُ﴾ إلى رجال حاشية يوسف الذين كانوا يتبادلون الخطاب مع إخوة يوسف، بينما يشير ضمير المفرد في قوله ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ إلى يوسف.

إخوة يوسف بما كانوا قد قصّوه عليه من أمرهم حين كانوا في ضيافته.

ويشير قولهم ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ إلى معرفة يوسف بطبيعة عملهم وأن مجيئهم إلى مصر ببضاعة طلبا للمُؤَن يبيّن بأنّهم ليسوا لصوصا.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ (74)﴾.

ردّ يوسف ورجاله على إخوته طالبين منهم بمكرٍ أن يحدّدوا جزاء السرقة إن كانوا كاذبين في نفيهم للسرقة عن أنفسهم، أي إذا كان السارق واحد أو أكثر منهم.

من الممكن أن يُفهَم الضمير المفرد المذكر في كلمة ﴿جَزَاؤُهُ﴾ على أنه يشير إلى «السارق». وفي هذه الحالة، يمكن أن يكون اقتراب أوان تحقّق ما كان قد دبّره يوسف قد جعله يغيّر صيغة لهجة الخِطاب ليتحدّث عن سارق «واحد» وذلك لأنه كان يريد أن يأخذ بنيامين فقط عنده. إلا أن هذا الاحتمال يبدو ركيكاً. فالأرجح هو أن الضمير المفرد في كلمة ﴿جَزَاؤُهُ﴾ يشير إلى «الصواع المسروق».

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ
كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75)﴾.

يمكن تقسيم جواب إخوة يوسف في هذه الآية الكريمة إلى قسمين، أولهما هو قولهم: ﴿جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾. إن كلمة ﴿جَزَاؤُهُ﴾ الأولى تعني نفس ما تعنيه تلك الكلمة في الآية السابقة، أي أن الأرجح هو أنها تعني «جزاء الصواع المسروق»، بينما من الواضح أن كلمة ﴿جَزَاؤُهُ﴾ الثانية تشير إلى «جزاء السارق».

ويشير قول إخوة يوسف ﴿مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ إلى أن العقاب يجب أن يقتصر على السارق ولا يتعدّى إلى غيره ممن لا ذنب له. والمعنى على وجه التحديد في هذه الحالة هو أن العقاب يجب أن يقتصر على من يُعثَر على الصواع في رحله ولا يشمل إخوته العشرة الآخرين. ويتّفق معظم المفسّرين على أن معنى قول إخوة يوسف ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ هو أن «السارق هو نفسه جزاء سرقته»، أي أن المسروق منه يأخذ السارق عبدا جزاءً على السرقة.

أما القسم الثاني من جواب إخوة يوسف، وهو قولهم: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي

الظَّالِمِينَ﴾، فهو تأكيد على القسم الأول بشأن جزاء السارق. ويعتقد بعض المفسّرين بأنَّ إخوة يوسف قصدوا من قولهم هذا بأنَّ استعباد السارق كان حكم السرقة في شريعة دين يعقوب. ولكن لو كان هذا صحيحا لما استخدم إخوة يوسف تعبير ﴿الظَّالِمِينَ﴾ ولقالوا شيئا من قبيل «كذلك نجزي السارقين». إذ إن «ظالم» هو تعبير عام يشمل كل من يرتكب ظلما، أي عملا سيئا، ولا يقتصر على من يسرق ولذلك فمن غير المعقول أن شريعة يعقوب كانت تنص على أن جزاء كل «ظالم» هو أن يُصبِح عبدا لمن وقع عليه الظلم! فمن الواضح أن إخوة يوسف لم يقصدوا من قولهم ذلك بأنَّ اخذ السارق عبدا كان حكما عاما في شريعتهم وإنما كانوا يتحدّثون عن حالة تلك السرقة بالذات.

لقد استدرج يوسف إخوته للحكم على السارق حين سألهم مباشرة أو عن طريق أحد رجاله: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾، إمعانا في إخفاء تدبيره بحيث يبدو الأمر كلّه وكأنه يحدث من غير تدخّل منه. فلو كان حكم إخوته غير ما يريد فإنه ما كان سيكون مضطرا للالتزام به على كل حال، إلا أنه كان يعلم بأنَّ حكم إخوته كان سيكون على الأقل سجنا للسارق، وهو حكم يتّفق مع ما كان يريد لأنه يعني بقاء أخيه معه. إذ كان من الجلي الواضح أن إخوة يوسف ما كانوا سيحكمون بحريّة السارق.

ومن المُلاحَظ أيضا أن كلمة ﴿قَالُوا﴾ تشمل كل إخوة يوسف، أي أن بنيامين كان هو الآخر موافق على الحكم، لأنه علم بأنَّ هذا هو ما يريده يوسف.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76)﴾.

إمعانا في إخفاء خطّته، لم يبدأ يوسف بتفتيش وعاء أخيه وإنما بدأ بأوعية إخوته الآخرين، ثم استخرج ما كان يبحث عنه من وِعاء بنيامين. و«الوعاء» هو «الحاوية»، ويعني هنا حاوية الرَّحل. إن إشارة الآية الكريمة إلى قيام يوسف بتفتيش أوعية أخيه

لا يعني بأنَّ يوسف ذو المكانة الرفيعة قام هو شخصيا بتفتيشها، وإنما لا بد وان يكون أحد فتيانه هو الذي قام بذلك. ويبدو أن سبب إشارة الآية إلى يوسف بالذات بالرغم من أن الآية 74 تستخدم صيغة الجماعة، أي تشير إلى رجال يوسف، هو التأكيد على أن البدء بتفتيش وعاء إخوته الآخرين قبل استخراج الصواع من وعاء بنيامين حدث بتدخّل مُباشر من يوسف، أي انه وجّه أحد فتيانه ليفتّش أوعية إخوته العشرة قبل أن يستخرج الصواع من وعاء بنيامين.

من الملاحَظ إشارة الآية الكريمة إلى الحاجة التي عُثِر عليها بضمير التأنيث فقال ﴿اسْتَخْرَجَهَا﴾ ولم يقل «استخرجه». ويبدو أن سبب ذلك هو أن الآية الكريمة لا تشير إلى الحاجة المفقودة باسم التذكير الذي ورد في الآية 72، أي ﴿صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾، ولكن باسمها الآخر المؤنّث الذي ذُكِر في الآية الكريمة 70، أي ﴿السِّقَايَةَ﴾. لاحظ أن تسمية ﴿صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ جاءت على لسان فتيان يوسف، بينما اقترنت تسمية ﴿السِّقَايَةَ﴾ في المرّتين التي وردت فيها بفعل ليوسف، وذلك في قوله الكريم ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ﴾ وفي هذه الآية الكريمة أيضا، ولكن بشكل مُستتر، في قوله ﴿اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾.

ثم يقول الله: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، أي: «كذلك دبّرنا ليوسف الأمر خفية». ثم يُفصّل الله أكثر المعنى المقصود بهذا الكيد: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. يرى المفسّرون أن هذا يعني بأنه وفقا لدين الملك، أي للسنّة التي كان يسير عليها، فإن جزاء السارق لم يكن استعباده من قبل المسروق منه لكن الله دبّر الأمور بشكل ما بحيث يأخذ يوسف بنيامين رغم ذلك. إلا أننا نعتقد بخطأ هذا التفسير، ونرى بأنَّ المقصود حدوثه بمشيئة الله هو «أخذ يوسف لأخاه في دين الملك»، وكما موضّح أدناه.

ويعني رأي المفسّرين بأنَّ يوسف ما كان سيستطيع أن يأخذ أخاه لو لم يجبه إخوته ردّا على سؤاله بأنَّ جزاء السارق أن يصبح عبدا للمسروق منه حين قالوا: ﴿جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾، باعتبار أن «دين الملك» ما كان يسمح له بأخذ أخيه. إلا أن الحقيقة هي أن يوسف تمكّن من أخذ أخيه لا بسبب اقتراح

إخوته لذلك العقاب ولكن لأنه كان في موقع سلطة تسمح له بأن يفعل ذلك. أي لو كان هنالك قانون ما في المملكة يحدّد عقوبة السارق ولم يكن يوسف في مكانة رفيعة تجعله يتجاوز ذلك القانون ويفعل ما يريد فإنه ما كان اساسا سيطلب من إخوته أن يحددوا عقوبة السارق في قوله لهم: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ لأنه كان سيضطر إلى اتّباع القانون الساري.

إن مجرّد طلب يوسف من إخوته تحديد الحكم يعني بأنّه كان قادرا على الحكم بما يشاء ولم يكن مضطرا إلى اتّباع قانون ما. لذلك يجب أن نستنتج بأنَّ طلب يوسف من إخوته تحديد عقوبة السارق لم يكن لحاجته لعذر يمكّنه من أخذ بنيامين، إذ كان يستطيع استغلال سلطته لإبقاء أخيه عنده دون سبب يفسّر به فعله أمام إخوته. ولكن طلبه من إخوته أن يبدوا رأيهم بشأن عقوبة السارق كان مكرا منه ليمعن في إخفاء حقيقة الأمر عنهم، كما سبق وأن أشرنا.

أما تفسيرنا لقوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فهو أن يوسف «ما كان سيأخذ أخاه عنده وهو يحكم في مملكة الملك لولا مشيئة الله». أي أن الله يقول هنا بأنَّ يوسف ما كان سيصبح يوما ذا سلطة تمكّنه من الحكم في مملكة الملك وبالتالي في موقع يمكّنه من أخذ أخيه عنده لولا أن شاء الله ذلك.

لا يشير كيد الله في قوله الكريم ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ إلى حيلة يوسف بجعله لإخوته يقترحون أخذه للسارق عبدا، إذ إن الآية واضحة في أن الكيد المذكور هو ما يسّر ليوسف جلب بنيامين عنده وهو وصف لا ينطبق على تلك الحيلة لاقتصار دورها على توفير غطاء مناسب لخطّته بحيث لا يشك إخوته بأنَّ الأمر مُدبَّر. فالكيد المذكور يشمل كل ما دبّره الله ليوسف بما في ذلك جعله ساقي الملك يدخل السجن معه، ثم جعله يرى تلك الرؤيا التي فسّرها يوسف، ثم إعادته للساقي في خدمة الملك، ثم رؤية الملك لتلك الرؤيا وتفسير يوسف لها، ثم طلبه من الملك أن يصبح أمينا على خزائن الأرض، ثم مجيء إخوته إليه في سنين الشدّة طلبا للمُؤَن، وكل التفاصيل التي أدّت بشكل مباشر أو غير مباشر إلى ارتقاء يوسف إلى تلك المكانة الرفيعة في المملكة وإلى انتهاء أخيه عنده.

أي أن معنى قوله: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ هو: «هكذا دبّرنا الأمور بخفية ولطف ليوسف بحيث ينتهي به الأمر إلى أخذه لأخيه عنده وهو يحكم في مملكة الملك، وما كان ليحدث ذلك لولا مشيئتنا».

لقد أساء الكثيرون فهم معنى كلمة ﴿دَرَجَاتٍ﴾ في هذه الآية الكريمة. وأحد المفاتيح إلى فهم معنى هذه الكلمة هو ملاحظة الترابط الموجود بين الفعل ﴿نَرْفَعُ﴾ في قوله الكريم ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ وظرف المكان ﴿فَوْقَ﴾ في عبارة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. فبعد أن يذكر الله أنه «يرفع عاليا درجات» من يشاء فإنه يضيف قائلا بأنّ «فوق» كل صاحب علم من هو أعلم منه، مما لا يترك مجالا للشك في أن «الدرجات» المقصودة هنا هي «درجات العلم».

وهنالك ارتباط جوهري بين عبارتي ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ و﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ المتتاليتين اللتين تذكران «مشيئة» الله. فقوله الكريم ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ينص على أن أخذ يوسف لأخيه حدث لأن الله شاء له أن يحدث، أما قوله ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ فيفسّر الكيفية التي شاء بها الله حدوث ذلك، وهي رفعه ليوسف درجات. ويتّفق هذا مع تفسيرنا لكلمة ﴿دَرَجَاتٍ﴾ على أنها «درجات من العلم»، إذ كان لعلم يوسف بتأويل الأحاديث دور أساسي في ما آلت إليه الأمور من وصوله إلى مكانته الرفيعة في مملكة الملك وإلى أخذه لبنيامين عنده، كما كان لعلمه بخزن الحبوب وتنظيم توزيعها أيضا دور في ذلك.

ولكن إذا كان المقصود بقوله ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ هو الإشارة إلى رفعه ليوسف لدرجات من العلم فما المقصود من إتباع ذلك بقوله الكريم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾؟ لاحظ أن عبارة ﴿ذِي عِلْمٍ﴾ في هذه الآية الكريمة هي نفس العبارة التي وَصَفَ بها يعقوب في الآية الكريمة: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. إذ وصف الله يعقوب بأنّه «ذي علم» في سياق ذكره ما آتاه ليعقوب من علم بما يمكن أن يحدق بأبنائه من خطر

حين يدخلون مصر وبكيفية تجنّبه، حيث استطاع يعقوب بعلمه ذاك الحِفاظ على أبنائه وتجنيبهم الوقوع في أيّ سوء حين دخلوا مصر بجعلهم يدخلون من أبواب متفرّقة. أما عبارة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فقد وردت بعد نجاح يوسف في جعل إخوته يأتوا ببنيامين إليه وفي إبقائه عنده. أي يمكن رؤية ما حدث على أنه نتيجة تفوّق علم يوسف على علم أبيه، حيث حاول يعقوب بعلمه الحفاظ على بنيه وجعلهم يعودون إليه جميعا، إلا أن يوسف نجح بعلمه في جعل أبيه يوافق على إرسال بنيامين إلى مصر مع إخوته حيث احتفظ به هناك. ويجب أن نتذكّر أيضا بأنَّ موافقة يعقوب على ذلك حدثت نتيجة تأثّره بعثور أبنائه على بضاعتهم في متاعهم حين عادوا إليه من بعد زيارتهم الأولى ليوسف، وهي الحادثة التي كان يوسف قد خطّط لحدوثها بعلمه الربّاني بنجاحها في التأثير على أبيه.

من بعد أن بيّنّا المعنى الخاص لعبارة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ في هذا السياق القرآني بالذات، يجب أن نلاحظ بأنَّ هذه العبارة شاملة لا تستثني أحد. إذ ينطبق وصف ﴿ذِي عِلْمٍ﴾ على كل من آتاه الله علما من خلقه، وفي هذه الحالة يكون معنى العبارة بأنّه حتى إذا وُجِدَ ﴿ذِي عِلْمٍ﴾ ليس بين خلق الله من يبزّه علما فإن الله «العليم» يفوقه في العلم. ومن الجميل تمييز الله بين كلمة ﴿عَلِيمٌ﴾، التي يمكن أن تشير إلى الله أيضا حيث يستخدمها في وصف نفسه في كثير من المواضع في كتابه العزيز، وبين عبارة ﴿ذِي عِلْمٍ﴾ التي تشير إلى محدودية علم من تشير إليه وبالتالي لا تُستخدَم للإشارة إليه عز وجل.

إن كون ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ هو أحد الدروس العظيمة في قصّة يوسف الذي يرينا بأنّه مهما ارتفع المرء علما، حتى لو أصبح بعلم يعقوب النبي العليم، فإن هنالك من هو أعلم منه. وتذكّرنا حادثة تفوّق علم النبي الابن على علم النبي الأب بحادثة كان النبي داؤد وابنه النبي سليمان بَطَلَيْها: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: 78، 79). وتشير هاتان الآيتان الكريمتان إلى أن كل من داؤد وسليمان حكما في

مسألة نفش غنم القوم في الحرث وأن حكم سُليمان كان هو الأصوب: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾، بالرغم من أن كليهما كانا من أصحاب الحكم والعلم: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (77)﴾.

لما تبيّن بأنَّ الصواع كان في متاع بنيامين تبرّأ إخوته منه وفصلوا بينهم وبينه وذلك بأن اتّهموا يوسف أيضا بالسرقة، قاصدين الربط بين اتّهامهم ليوسف وأخيه بالسرقة وبين كونهما شقيقين من أم غير أمهم. لاحظ وصفهم ليوسف بأنَّه ﴿أَخٌ﴾ لشقيقهم المُتَّهَم بالسرقة ولم يصفوه بأنّه «أخوهم». أي كأن لسان حال الأشقاء العشرة يقول: «إن هذين السارقين هما شقيقان من جهة الأب والأم، أما نحن فمن أم أخرى ولذلك فإننا نختلف عنهما ولسنا سارقين».

ربما أراد إخوة يوسف بهذا القول ضمان عدم أخذ يوسف لهم بذنب بنيامين، إلا أن ذكرهم ليوسف واتهامهم له بالسرقة يبيّن بأنَّهم كانوا لايزالون يكنّون الحسد له ولبنيامين، ذلك الحسد الذي عبّر عنه قولهم سنيناً قبل ذلك: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾. كما يبيّن اتّهام إخوة يوسف له بالسرقة بأنه لم يخطر لهم احتمال أن يكون العزيز هو يوسف نفسه.

بالرغم من عدم وجود أي ذكر في القرآن العظيم لسرقة يوسف المزعومة التي ذكرها إخوة يوسف فقد جاء المفسّرون بأكثر من رواية عن تلك السرقة ليس لها أصل معلوم أو موثوق. والقصة التي تداولها المفسّرون أكثر من غيرها هي أن عمّة يوسف اتهمته حيلةً في صغره بسرقة حزام كانت في الواقع هي التي أعطته له كي تطلب من أبيه أن يبقيه عندها جزاء السرقة لأنها كانت تحبّه ولا تريد إعادته إلى أبيه. من الواضح أن لهذه القصة علاقة بالاعتقاد السائد بين المفسّرين بأنَّ عقوبة اللص هي جعله عبدا وأنها متأثرة بحيلة يوسف لإبقاء بنيامين عنده. وتنص قصة أخرى على أن يوسف سرق في صغره صنما كان لجدّه من جهة أمّه، وهنالك

قصصا أخرى غيرها. إلا أنّه ليس هنالك أساس لافتراض صحة أية من هذه القصص لانتفاء أية إشارة إليها في القرآن العظيم.

أما التفسير الواضح والمُباشر لاتّهام إخوة يوسف له بالسرقة فهو أنهم كذبوا في قولهم ذلك، وهو أمر سبق وأن صدر عنهم، إذ كذبوا حين أخبروا أباهم بأنّهم سيحافظون على يوسف إذا تركه يذهب معهم ليرتع ويلعب وحين ادّعوا بأنَّ الذئب أكله وجاءوا على قميصه ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾.

يقول الله عن يوسف بعد سماعه لقول إخوته ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾. اختلف المفسّرون حول ما يشير إليه ضمير التأنيث الذي تقديره «هي»، أي التي أخفاها يوسف في نفسه. ويرى الطباطبائي بأنّها تشير إلى تهمة السرقة التي وجّهوها له فلم ينفها ولم يبيّن حقيقة الأمر، فيما قال البعض، ومنهم الجلالين، إنها قول إخوته: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، وقال آخرون، ومنهم ابن كثير نقلا عن ابن عبّاس، إنها قوله: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾، ونقل القرطبي عن آخرين قولهم أن المقصود هو قوله ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾ حيث كتم هذه في نفسه وجهر بعبارة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾. إلا أن بدء عبارة ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ بكلمة ﴿قَالَ﴾ تعني بأنَّ يوسف قال لإخوته فعلا ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وأن هذه ليست ما أخفاه في نفسه. إننا نرى بأنَّ التي أسرّها يوسف في نفسه هي «الحقيقة» التي كان يمكن أن يفنّد بها وصفهم له ولأخيه بالسرقة في قولهم: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، وهي حقيقة السرقة التي أُتُّهِمَ بها بنيامين، والسرقة التي اتّهموه بها ظلما، وكونه يوسف.

إن قول يوسف لإخوته ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ يمكن أن يكون اتّهاما مباشرا بأنّهم قالوا ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ عن أخويهما لأنّهما كانا من أمّ غير أمّهم. ورغم تفضيل يوسف عدم كشف حقيقة الأمر لإخوته في ذلك الوقت فإنه رد مع ذلك على تهمتهم قائلا: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾. ومعنى قوله ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾ هو: «إنكم أسوأ حالا من أخويكما من أبيكم اللذين نسبتم إليهما السرقة وعزلتم أنفسكم عنهما».

أما عبارة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ فتتضمّن التشكيك في ما يدّعي الطرف الآخر، كقوله تعالى في تفنيد قول الكافرين: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: 96). تقارب هذه العبارة في معناها قول يعقوب لبنيه يوم أتوه بالخبر الكاذب عن أكل الذئب ليوسف: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾. لذلك، فإن قول يوسف ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ يعني تشكيكه في ادّعاء إخوته: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78)﴾.

بعد أن ذهبت عن إخوة يوسف مفاجأة الموقف وأخذوا بالتفكير مليّا فيما حدث توقّفوا عن التصرّف حصرا بدافع الحسد الذي يحملونه لأخويهما وتذكّروا والدهم والموثِق من الله الذي أعطوه له بأن يعودوا ببنيامين، فأخذوا يناشدون يوسف أن يتركه يعود معهم وأن يأخذ أحدهم بدلا عنه. من الممكن أن يكون هذا الحوار استمرارا للحوار في الآيات السابقة، إلا أن من الممكن أيضا، أو ربما من المرجَّح، أن إخوة يوسف أعادوا النظر فيما حدث وغيّروا موقفهم بعد مغادرتهم له وأنهم عادوا إليه لاحقا بالاقتراح أعلاه.

كان عذر إخوة يوسف في طلبهم منه ترك بنيامين هو كبر سن أبيه، ذلك أن كبار السن قليلي التحمّل للألم ويحتاجون للمساعدة. أي حاولوا استدرار عطف يوسف على أبيهم عسى أن يترك بنيامين يعود إليه. لاحظ أنهم لم يقولوا «إن أبينا» أو «إن لنا أباً»، ولكن قالوا ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا﴾، وذلك تركيزا منهم على تعلّق أبيهم بأخيهم هذا وكأنه هو وحده ابنه. من الجلي أنهم ربطوا قولهم هذا بما كانوا قد أخبروا يوسف من قبل من تعلّق أبيهم ببنيامين: ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾.

وهذه المرة الأولى التي نجد فيها إخوة يوسف يخاطبوه بلقب «العزيز» الذي هو اللقب الذي كان يحمله زوج التي راودته عن نفسه في بيتها، الذي من الواضح أنه حمل قدرا كبيرا من النفوذ والسلطة، بل إنه تلى الملك مباشرة.

وحدث هذا الموقف الذي نجد فيه إخوة يوسف يخاطبوه بلقب «العزيز» بعد ما لا يقل عن سبع سنين من خروجه من السجن وتعيين الملك له أمينا على خزائن الأرض، لأنه وقع بعد انتهاء سنوات الرخاء وخلال سنوات الجفاف. لم يطلب يوسف من الملك حين أخرجه من السجن أن يجعله «العزيز» وإنما طلب منه أن يجعله أمينا على خزائن الأرض، مما قد يعني بأنَّ مركز العزيز يختلف عن مركز الأمين على خزائن الأرض. من الواضح أن هذا الأخير كان هو الآخر مركزاً مرموقاً، إلا أن من الواضح أيضا أن لقب «العزيز» الذي حمله يوسف شمل مسؤولية المخازن أيضا. فمن الممكن أن يكون مسؤول المخازن هو المنصب الذي استلمه يوسف فور خروجه من السجن، وأن العزيز هو منصب أعلى رُقِّي إليه بعد ذلك وأُلحِقَ به مسؤولية المخازن فجمع بين المركزين.

وقد يرجّح البعض احتمال أن يكون «العزيز» لقبا يحمله كل من يصل إلى مكانة معيّنة، مما يعني إمكانية وجود أكثر من عزيز في نفس الوقت، مثلما هنالك أكثر من وزير مثلا. إلا أننا نعتقد بأنَّ السياق القصصي ينفي هذا الاحتمال. كما أن الاستخدام اللغوي لكلمة ﴿الْعَزِيزِ﴾ في السورة الكريمة يلغي هذا الاحتمال. لننظر مثلا إلى قول النسوة ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾. إن أداة التعريف في كلمة ﴿الْعَزِيزِ﴾ ليست بدليل على وجود عزيز واحد، إذ إن وجودها هو ضرورة لغوية لنسبة المرأة إلى زوجها العزيز. إلا أنّ الدليل على عدم وجود أكثر من عزيز هو عدم إتباع النسوة لعبارة ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ باسم العزيز المقصود أو بما يحدّد هويّته، من قبيل «امرأة العزيز فلان»، ولا ذكر اسم امرأته، مثل « فلانة امرأة العزيز».

بعد أن ذكر إخوة يوسف كبر سن أبيهم سببا لإقناع يوسف بترك بنيامين يعود معهم أتبعوا ذلك بالقول بأنَّهم لم يكونوا يريدون مجرّد إطلاق سراح أخيهم من دون مقابل وإنما أرادوا استبداله كعبد بأحدهم، أي ما كان يوسف سيخسر شيئا. ربما كان هدف إخوة يوسف من عرضهم مجرد إقناعه بترك بنيامين ولم يكونوا جدّيين في عرض بديل عنه. إلا أن المرجّح هو أنهم كانوا مستعدّين فعلا للقيام بذلك بسبب عهدهم لأبيهم، لأن رد فعلهم على ما حدث من بعد تفكيرهم به هو

غير رد فعلهم الأول وقت العثور على السقاية في رحل أخيهم. وسنرى لاحقا في الآية 80 بأنّه من بعد رفض يوسف عرض إخوته هذا قرر كبيرهم البقاء في مصر إلا أن يأذن له أبيه بالعودة أو يحصل أمر يبرّر عودته، فمن الممكن أن يكون هو الذي اقترح بأن يفدي أخاه بنفسه.

ثم أنهى إخوة يوسف مناشدتهم ليوسف بمدحه قائلين: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، مشيرين إلى كونه رجلا صالحا وطيّبا عسى أن يوافق على طلبهم ويعطف على أبيهم. إن عبارة المديح هذه هي نفس العبارة التي خاطب بها يوسفَ صاحبا سجنه، وفي هذا إشارة قرآنية لطيفة إلى ما تفضّل به الله عليه وكيف غيّر حاله من حال السجين الذي لا حول ولا قوة له إلى منصب الحكم والسلطة والقدرة على وضع من يريد في السجن. لاحظ أيضا أن الله وصف يوسف في الآية 22 بأنّه «من المحسنين»، ثم جعل صاحبي سجنه يصفانه بذلك في الآية الكريمة 36، وها هو يجعل إخوته أيضا يصفونه بأنَّه ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ويبيّن اتّهام إخوة يوسف له ولبنيامين بالسرقة بأنّهم كانوا لايزالون يكنّون حسدا لأخويهم وغير راضين عن تفضيل أبيهم لهما عليهم، إلا أن من الواضح أيضا أن سلوكهم أصبح الآن مختلفا عنه وقت ألقوا يوسف في غيابة الجب سنين طويلة قبل ذلك. ففي حينه لم يعطوا أية أهمّية للأذى الذي كانوا سيسبّبونه لأبيهم وكان كل همّهم إبعاد يوسف عنه، أما الآن فنجدهم يحاولون جهدهم أن لا ينتهي الأمر ببنيامين بعيدا عن أبيهم، وهذا سلوك يعاكس تماما سلوكهم في حادثة يوسف. أي أن هنالك تحسّنا ملحوظا في سلوك الأشقاء العشرة الآن.

كما شاهدنا قبل غدرهم بيوسف أنّهم بقوا أياما ينتظرون تنفيذ خطّتهم إلى أن نجحوا في إقناع أبيهم بإرسال يوسف معهم، أي كانوا مصرّين على فعلهم ذاك. أما هنا فنجد بأنَّ رد فعلهم الذي كشف عن حسدهم كان رد فعلهم «الفوري» وأنهم حين فكّروا في الأمر أخذوا بمناشدة يوسف تغيير قراره وترك بنيامين يعود معهم، بل وذهبوا إلى حد عرضهم أخذ أحدهم بدلا عن بنيامين.

ويجب أن نتذكّر أيضا بأنَّ إخوة يوسف قاموا بكل هذا على الرغم من اعتقادهم

بأنَّ بنيامين كان قد سرق فعلا، لأنهم كانوا على جهل بحقيقة تلك التهمة، فيما تصرّفوا بإصرار وعدوانية تجاه يوسف يوم ألقوه في البئر رغم علمهم بأنّه لم يرتكب ذنبا. إن تحسّنا كبيرا كان قد طرأ على تفكير وسلوك إخوة يوسف تجاه أخويهم.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (79)﴾.

تُستَخدَم عبارة ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ للتعوّذ وطلب بُعد الشيء، وقد تعوّذ يوسف هنا من عرضهم متحجّجا بأنَّ من الظلم أن يأخذ غير الذي وُجِد صواع الملك في رحله. وتغافل يوسف في جوابه الرافض عما قالوه بشأن تعلّق أبيهم بأخيهم، لأنه كان يريد رفض طلب إخوته ليبقي على أخيه عنده.

من الملاحظات الجميلة التي أشار إليها بعض المفسّرين، كالجلالين، هي أن يوسف لم يصف بنيامين بالسرقة حيث لم يقل، على سبيل المثال، «من سرق متاعنا» وإنما قال ﴿مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾، إذ إن يوسف أدرى من غيره بأنَّ بنيامين لم يسرق فعلا صواع الملك وإنما وُضِع هذا في رحله بخطّة منه.

9

يوسف يجتمع بأبيه يعقوب

كان جلب يوسف لبنيامين إلى مصر وإبقائه له معه خطوة في سبيل تحقيق هدف أكبر وهو جلبه لأبيه ولجميع أهله إلى مصر للعيش هناك، وهو ما سنتابع تحقّقه في هذا الفصل.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (80)﴾.

بالرغم من مناشدة إخوة يوسف له ترك أخيهم يعود معهم فإنهم فشلوا في إقناعه بذلك. ويبدو من قوله ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ﴾ والذي يعني «فلما يئِس إخوة يوسف من إقناعه» بأنّهم حاولوا جهدهم أن يجعلوه يوافق على ما كانوا يريدون ولكن من غير نجاح. وبعد أن يئِس إخوة يوسف من نجاح محاولاتهم لإقناعه ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾.

ومعنى الفعل ﴿خَلَصُوا﴾ هو «انعزلوا عن الناس»، ويشترك في جذره اللغوي مع صفة «خالص» التي تعني «نقي لا تشوبه شائبة» أو «غير مختلط بشيء»، كما في وصف الذهب بأنّه «خالص»، على سبيل المثال. أي أن المقصود في الآية الكريمة هو أن إخوة يوسف «انعزلوا عن الناس من دون أن يكون معهم أحد». أما ﴿نَجِيًّا﴾، التي وردت كذلك في قوله تعالى عن نبيه موسى ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ (مريم: 52)، فتعني «مناجين بعضهم». والتناجي هو التحدّث بسرّية ومن مسافة قريبة. أي بعد يأس إخوة يوسف من إقناعه بترك بنيامين انعزلوا لوحدهم يتشاورون بشأن ما حدث

ليروا ما سيفعلوا، لأنهم كانوا قد وعدوا والدهم بأن يعودوا إليه بأخيهم.

أثناء مناقشة إخوة يوسف للأمر ذكّرهم أكبرهم سنّا بأنَّ أباهم أخذ منهم موثِقا من الله بأن يعيدوا إليه بنيامين إلا إذا كان الأمر خارج سيطرتهم. كما ذكّرهم بخيانتهم لأبيهم يوم استهانوا بيوسف وألقوه في غيابة الجب، وكأنه يقول لهم بأنَّ فشلهم في الحفاظ على بنيامين يشابه خيانتهم في قضية يوسف من قبل. وبعد أن ذكّرهم بكل هذا، خلص إلى القول بأنَّه لن يغادر أرض مصر ما دام لا يستطيع إعادة بنيامين معه إلا أن يأذن له أبوه بالعودة أو أن «يحكم الله له». ويرى بعض المفسّرين بأنَّ قصده بهذه العبارة الأخيرة هو «أن يمكّنه الله من العودة ببنيامين»، إلا أن من الممكن أيضا أن يكون المقصود بها معنى أكثر عموما هو «أن ييسّره الله إلى أمر ما» من غير تحديد ماهية ذلك الأمر. وأنهى شقيقهم الكبير قوله بالإشارة إلى أن الله هو خير الحاكمين.

تقدّم هذه الآية الكريمة دليلا واضحا آخر على تغيّر إخوة يوسف بشكل كبير. إذ ها هو كبيرهم لا يستنكر فشلهم في الحفاظ على عهدهم مع أبيهم إعادة بنيامين إليه فحسب وإنما يعترف بشكل واضح بخطأهم جميعا في ما فعلوا بيوسف.

﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ (81)﴾.

قال بعض المفسّرين بأنَّ هذا كلام إخوة يوسف لبعضهم، أي كأنهم يقولون لنعد إلى أبينا ونقول له كذا وكذا. إلا أن الأرجح هو أن هذا القول هو تكملة لكلام أخيهم الكبير، فمن الواضح أن سبب قوله لإخوته ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ﴾ هو أنه سيبقى في مصر.

وطلب أخوهم الكبير منهم أن يقولوا لأبيهم: ﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ﴾، حيث فسّر البعض هذا بأنّه يعني: «إن ابنك سرق، وإننا حين أعطيناك العهد بأن نعود به إليك لم نكن نعلم بما في الغيب مما كان سيقوم به من سرقة وأخذ العزيز له»، أي أن «الشهادة» هي «العهد». إلا أن المشكلة

هنا هي أن قولهم ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ يشير إلى «شهادة مبنية على علم»، وهو وصف لا ينطبق على فعل إعطاء العهد لأبيهم.

لكن تبنّت الغالبية العظمى من المفسّرين أحد تفسيرين رئيسين، أولهما هو أن قول إخوة يوسف ﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ يعني «إنّ أخانا قد سرق وإننا إذ نقول هذا إنما نشهد بما علمنا»، لأنهم رأوا استخراج صواع الملك من متاع بنيامين. أي تشير «الشهادة» هنا إلى «إخبار» إخوة يوسف لأبيهم بأنباء ما حصل. وفي هذه الحالة فإن معنى ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ﴾ هو: «إلا أننا لا نعلم ما إذا كان قد سرق فعلا إذ لسنا نعلم الغيب». إلا أن كون الفعل ﴿شَهِدْنَا﴾ بصيغة الماضي يستبعد هذا التفسير الذي كان سيكون مُرجَّحا لو كان ذلك الفعل بصيغة المضارع، أي بصيغة «نشهد».

أما التفسير الشائع الثاني فيرى معنى قول إخوة يوسف في هذه الآية الكريمة هو: «إننا حين شهدنا بأنَّ جزاء السارق أن يُستعبَد فإننا لم نكن نعلم الغيب بأنَّ أخانا كان قد سرق وأن الأمر سينتهي به بأن يصبح عبدا هناك». إننا نتّفق مع أصحاب هذا الرأي في تفسيرهم للآية الكريمة، ولكن مع تحديد أن كلمة ﴿عَلِمْنَا﴾ تشير إلى علم إخوة يوسف بأن «ليس بينهم من يسرق»، أي كأنهم قالوا لأبيهم: «إننا حين قلنا للعزيز بأن يأخذ السارق عِقابا على سرقته فإننا بنينا ذلك على علمنا بعدم وجود سارق بيننا». إن مما يؤكّد أنَّ هذا هو معنى «الشهادة» في هذه الآية الكريمة هو أنه نفس المعنى الذي جاءت به في قوله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾، حيث إن «الشهادة» في كلتي الحالتين هي «حكم» أدلى به الشاهد بناءً على الطلب منه بأن يشهد. لاحظ أن كل من الشهادتين جاءت بناءً على طلب العزيز، وإن كانت هويّة العزيز مختلفة في الحالتين.

يجب أن يكون فعل «الشهادة» مبنيّا على «علم»، وكما في قول إخوة يوسف: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾. أما تعبير «الغيب» فيشير إلى «غير المعلوم»، ولذلك فإن قول إخوة يوسف لأبيهم ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ﴾ هو بمثابة استدراك لقولهم ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾.

﴿وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82)﴾.

سواء كان هذا الكلام تتمّة لتوجيهات كبير إخوة يوسف أم لا، فإن رد يعقوب في الآية القادمة تبيّن بأنَّهم خاطبوا أباهم بهذا الكلام وبما جاء في الآية السابقة على لسان كبيرهم.

بسبب ما فعلوه بيوسف ومعرفة أبيهم بما يكنّوه لبنيامين من سوء، توقَّعَ الأبناء التسعة أن يشك أبوهم في صدق ما قالوه بشأن ما حدث لبنيامين. لذلك وبغية إقناعه بصدق ما قالوا عرضوا عليه أن يسأل القرية التي كانوا فيها، أي المنطقة التي كانوا فيها التي بقي فيها بنيامين، وأن يسأل القافلة التي جاءوا معها عما حدث، مؤكّدين له بأنَّ الجواب الذي سيتلقّاه سيبيّن له صدقهم. من الواضح أن قولهم لأبيهم ﴿وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ هو قول رمزي وليس المقصود به ذهابه إلى مصر للسؤال عمّا حدث. أي كأنهم يقولون لأبيهم بأنَّه لو تيسّر له أن يذهب إلى القرية التي وقعت فيها الحادثة فإنه سيرى صدق قولهم بشأن ما حدث.

أما العير، فمن الممكن بأنَّه حين عاد أبناء يعقوب إلى أبيهم كانوا لايزالون في صحبة قافلة فيها من كان معهم في مصر وله علم بما حدث لأخيهم. كما من الممكن أن يكون المعنى الرمزي هنا هو لحاق يعقوب بالقافلة ليسألهم عن الذي حدث.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83)﴾.

من الواضح تشابه تعليق يعقوب على قول بنيه في هذه الآية الكريمة مع ما قاله حين أخبروه بأكل الذئب ليوسف: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف: 18). ففي كلتي الحالتين رد يعقوب متّهما أبناءه بتزيين أنفسهم لهم أمرا سيئا وأنه سيصبر من غير شكوى على ما حلّ من بلاء.

إنّ اتّهام أبناء يعقوب ليوسف ظلما بالسرقة وإيحائهم الكاذب بأنَّ أخويهم

سارقين لكونهما من أم معيّنة بدل أن يتصدّوا للدفاع عن أخيهم المُتَّهَم، إنّ كل هذا هو تصديق اتّهام يعقوب لهم بعمل السوء في قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾. ولكن حتى لو لم يذكر أبناء يعقوب تلك الاتهامات وحاولوا الدفاع عن أخيهم المُتَّهَم بالسرقة فما كان سيؤثّر على قرار يوسف بأخذ بنيامين، لأنه كان قد نوى على فعل ذلك في كل الأحوال. أي أن أمر السوء الذي سوّلته أنفس أبناء يعقوب لهم لم يكن على الإطلاق سببا في إبقاء يوسف لبنيامين عنده.

بالرغم من وجود تشابهات مهمة بين رد يعقوب على بنيه عندما أخبروه بما حدث ليوسف وبين رده عليهم حين أخبروه بما حدث لبنيامين، فإن هنالك أيضا اختلافات مهمة بين الرّدين. ففي حادثة إلقاء يوسف في غيابة الجب شكّك يعقوب في وصف أبنائه لما حدث من ذهابهم للتسابق وتركهم ليوسف عند متاعهم ومن ثم أكل الذئب له حيث قال: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾، سائلا من الله العون على كشف حقيقة ما حدث. وفعلا كان وصف أبنائه لما حدث وصفا كاذبا جملة وتفصيلا. أما في الحالة الثانية التي كان وصفهم فيها لما حدث وصفا صادقا فعلا، إذ ظنّوا فعلا بأنَّ بنيامين سرق وأنّه استُعبِدَ بسبب تلك السرقة، فلم يشكّك يعقوب بصحة ما وصفوا من أحداث ولم يرد بشيء يناظر قوله ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ في حالة فقدان يوسف. فمثلما كان يعقوب محقّا في اتّهام أبناءه بتسويل أنفسهم لهم أمر سوء، فإنه كان محقّا كل الحق في عدم اتهامهم بالوصف الكاذب للأحداث.

إن كون كلام يعقوب ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ بصيغة الجمع لا المثنى يعني بأنّه كان يتحدّث عن يوسف أيضا وليس عن بنيامين وأكبر أبنائه فقط. وهذا بدوره يؤكّد دون أي شك بأنّه كان على علم بأنَّ يوسف كان حيّا يُرزَق وأنه كان مكتوبا له أن يجتمع به في وقت ما. ويتّفق هذا مع ما أشرنا إليه من علم يعقوب بتأويل الأحاديث وعلمه بما كان الله قد كتب له وليوسف ولأبنائه في تفسيره العام لرؤيا يوسف.

كما من المرجَّح أن يكون التحسّن الملحوظ الذي طرأ على سلوك إخوة يوسف

قد دفعهم إلى الاعتراف لأبيهم في وقت ما بحقيقة إلقائهم له في البئر وعدم أكل الذئب له، خصوصا وأنّهم كانوا على علم بأنَّ أبيهم لم يصدّق لحظة قصّتهم المختلقة، وكما بيّنّا في تفسيرنا للآية الكريمة 18. إلا أن هذا طبعا لا يعني بأنَّ إخوة يوسف كانوا يشاركون بالضرورة أبيهم اعتقاده بعد كل تلك السنين الطويلة على غياب يوسف بأنَّه كان لايزال حيا.

ومن الواضح من قول يعقوب ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ بأنَّه لم يكن يعلم، في ذلك الحين على الأقل، بكيفية لقائه بأبنائه. حيث نجده يطلب من الله أن «يأتي» بأبنائه إليه بينما الذي كان مقدّرا له أن يحدث هو أنه هو الذي كان «سيذهب» الله به إلى حيث كان أبناؤه الثلاثة، أي إلى مصر.

بعد دعائه الله بأن ييسّر له الاجتماع ببنيه يقول يعقوب: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، في إشارة إلى تسليمه بأنَّ ما حدث من فقدانه لبنيه وما سيحدث من اجتماعه بهم ووقت ذلك وكيفية حدوثه هي كلها أمور مرهونة بعلم وحكمة الله الذي يسيّر الأمور كيفما يريد. فكما بيّنّا، لم يكن يعقوب مدركا بأنَّ اجتماعه ببنيه ما كان سيتم عن طريق «مجيئهم إليه» ولكن عن طريق «ذهابه هو إليهم». لذلك فما أجمل قوله ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ بعد دعائه ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ الذي هو اعتراف منه بأنَّ الله العليم الحكيم هو صاحب الاختيار الحق وتسليم وقبول منه لإرادة الله. وما أحسن ما اختار الله ليعقوب وبنيه، إذ أراد يعقوب من الله أن يجمعه مع أبنائه بأن يعيدهم إليه حيث كان يعيش فإذا الله يحقق له دعاءه بشكل أفضل مما طلب حيث ذهب به هو وأبناؤه إلى حيث كان يعيش يوسف وجمعهم في مكان أفضل بكثير من المكان الذي كان يعقوب يعيش فيه ووفّر لهم عيشا أيسر وأفضل.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84)﴾.

بعد أن قال لبنيه ما قال في الآية الكريمة السابقة ردّا على خبر بقاء ولديه في

مصر، أعرض يعقوب عن التحدّث إليهم بشأن ما حدث، حيث إن معنى ﴿تَوَلَّى﴾ هو «انصرف» أو «أعرَضَ عن». أما قول ﴿يَا أَسَفَى﴾ فهو تعبير عن الحزن على أحد أو شيء ما، وحزن يعقوب هنا هو على ابنه يوسف.

ومن المثير للاهتمام أن نجد بأنَّه بينما حزن يعقوب على فراق ابنيه الآخرين فإن حزنه المقيم كان على يوسف بالذات، حيث خصه بالذكر: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾. فبالرغم من اهتمامه الخاص ببنيامين أيضا، فإن اهتمامه بيوسف كان استثنائيا لأنه كان يعرف مكانة ابنه النبي هذا عند الله وقربه منه. كما لا بد أن يكون فقدان يعقوب ليوسف وهو طفل صغير وطول سنين الفراق قد لعبا دورا في توطين هذا الحزن في قلبه.

كان حزن يعقوب عميقا إلى الحد الذي جعله يفقد بصره: ﴿ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾. وإذا كان هنالك من يشك في أن «ابيضاض العين» يعني الإصابة بالعمى فإن قول يوسف لإخوته في الآية 93 ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ لا يترك مجالا للشك في أن يعقوب فقد بصره فعلا. ومما يثير الاهتمام هنا فهم كيفية اكتساب تعبير «ابيضاض العين» لمعنى «العمى». تتكون العين البشرية من جزئين رئيسيين الأبيض والملوّن، فالجزء الأبيض المعروف بتعبير «الصُّلبة sclera» لا علاقة له بالرؤية التي هي وظيفة الجزء المركزي الملوّن أو «القرنيّة cornia». لذلك، فإن تعبير «ابيضاض العين» يعني كأن العين فقدت جزءها الملوّن الذي تبصر به ولم يعد فيها سوى الجزء الأبيض الذي لا علاقة مباشرة له بالرؤية، مما يعني الإصابة بالعمى.

وورود خبر فقدان يعقوب لبصره بعد قوله ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ هو إشارة واضحة إلى أن حزنه على يوسف بالذات دون أخويه الآخرين الموجودين في مصر كان هو سبب إصابته بالعمى. أي أن خطة يوسف بالإبقاء على بنيامين عنده لم يكن لها أي دور في ما أصاب أباه. كان حزن يعقوب على يوسف من العِظَم بحيث إن حزنه على بنيامين كان لا يكاد يذكر.

من بعد ذكره لحزن يعقوب على يوسف وفقدانه لبصره نتيجة لذلك يصف الله

نبيه يعقوب بقوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾. وفعل كلمة ﴿كَظِيمٌ﴾ هو «كَظَمَ» ويعني «خبّأ»، أو «كَتَمَ»، أو «أخفى»، أو «حصر» داخله. واسم الفاعل هو «كاظِم»، كما في قوله العزيز ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ (آل عمران: 134) الذي يعني «والذين يكتمون الغيظ». أما كلمة ﴿كَظِيمٌ﴾ فهي صيغة مبالغة لاسم الفاعل «كاظِم» تفيد للتأكيد على كتم الموصوف لما يكتمه. وتجدر الإشارة إلى أن اسم المفعول للفعل «كَظَمَ» هو «مكظوم» والذي يعني «ما يُكظَم»، أو «المكتوم»، أو «المخفي»، وكما نجد في وصف الله لنبيه يونس بهذه الكلمة في قوله الكريم ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ (القلم: 48) حيث كان يونس «محصورا داخل الحوت» حين نادى ربّه. فتشير عبارة ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ إلى كتم يعقوب لحزنه على يوسف داخله.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85)﴾.

تذكر هذه الآية الكريمة خطابا موجَّها إلى يعقوب من غير أن تذكر المُخاطِبين صراحة وتكتفي بأن تشير إليهم بالفعل ﴿قَالُوا﴾. من الممكن أن يعود الفعل ﴿قَالُوا﴾ على آخرين من أهل يعقوب غير أبنائه، بما فيهم عوائل أبنائه، إلا أن من المرجَّح أن يكون ضمير الجماعة المستتر هنا الذي تقديره «هم» هو نفسه في كلمة ﴿عَنْهُمْ﴾ في الآية الكريمة السابقة، أي يعود على أبناء يعقوب.

إن ورود هذه الآية الكريمة بعد قوله ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ في الآية السابقة يعني بأنَّ الآية مدار البحث لا تصف حادثة معينة وإنما تلخّص موقف المُخاطِبين من اهتمام يعقوب غير المنقطِع بيوسف. ومعنى كلمة ﴿تَفْتَأُ﴾ هو «تبقى» أو «تستمر». أما كلمة ﴿حَرَضًا﴾ فقد اقترح المفسّرون عدة معانٍ لها تجتمع كلها في إشارتها إلى «الضعف» و«تدهور الصحة». ومعنى كلمة «حَرَض» الذي يبدو لنا أدق من غيره هو «المشرف على الهلاك» وذلك لتوافقه مع سياق الآية الكريمة، وعلى وجه التحديد عبارة ﴿مِنَ الْهَالِكِينَ﴾. وبذلك يكون معنى الخطاب في الآية الكريمة: «والله إنك لمُستمرّ في ذكر يوسف حتى تشارف على الهلاك أو تهلك فعلا». ويعكس هذا القول قلق المتكلِّمين وحرصهم على يعقوب وعلى صحّته التي كانوا يرون أن

استمرار التفكير في يوسف والحزن عليه يدهورها خصوصا وأنه كان قد فقد البصر. كما يفسّر انتقادهم لحزنه كظمه له المذكور في الآية السابقة.

إن ادّعاء أبناء يعقوب بأنَّ استمرار أبيهم في ذكر يوسف سيجعله ﴿حَرَضًا﴾ أو ﴿مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يعني بأنَّهم كانوا يعتقدون بأنَّ يعقوب لن يلتقي يوسف ثانية، حتى في حالة الاحتمال المُستَبعد بأنَّ يوسف كان لايزال على قيد الحياة.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (86)﴾.

تضمّن رد يعقوب على انتقاد بنيه تفنيدا لاستنكارهم ذكره ليوسف وتبيانا لخطأهم في حكمهم. ففي النصف الأول من ردّه قال يعقوب ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ منبّهاً بنيه إلى أنه لا يشكي حزنه وهمّه إلى أحد من الخلق وإنما إلى الله. إن «الصبر الجميل» يعني عدم الشكوى من الله، سواء في النفس أو إلى الخلق، ولكن لا يعني عدم الشكوى إلى الله. فالشكوى إلى الله هي وجه من أوجه العبادة، لأنها دعاء، وبالتالي فإنها لا يمكن أن تكون سوى مصدر خير لا شر. أي كأن يعقوب يقول لمنتقديه: «كيف تنتقدون شكواي لبثي وحزني وأنا أشكو ما أشكو إلى الله؟». هنالك بعض الاختلاف بين المفسّرين حول معنى كلمة ﴿بَثِّي﴾ في هذه الآية الكريمة. ففي رأي البعض أنها تعني «حاجتي»، ولكن يبدو أن الرأي الأرجح هو أن الكلمة تشير إلى الحزن الذي هو من الكبر بحيث لا يصبر عليه المرء حتى «يبثّه»، أي حتى يتحدّث به إلى أحد.

وكان يعقوب على علم بأنَّ يوسف كان حيّا وأنه سيراه ثانية، وهو العلم الذي يشير إليه قوله في النصف الثاني: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. إذ بيّنت لنا السورة في بدايتها بأنَّ الله كان قد أنعم على يعقوب بعلم تأويل الأحاديث الذي فسّر به لابنه يوسف رؤياه عن مستقبله ومستقبل آل يعقوب وهو مستقبل لم يكن قد تحقّق بالكامل بعد. إلا أن من المرجح أيضا أن الله آتى يعقوب لاحقا مزيدا من العلم عن ابنه يوسف. ولم يكشف يعقوب لأبنائه ماهية ذلك العلم من الله الذي لم يكونوا على معرفة به لأنه لم يرد لمشاعر السوء التي يكنّونها ليوسف أن تمنعهم من

أن يقوموا بما سيطلبه منهم لاحقا وهو الذهاب للبحث عن يوسف وبنيامين. فلو قال يعقوب لأبنائه بأنّه يعلم بأنَّ الله قد أنعم على يوسف ومكّن له في الأرض فإن من المرجَّح أنهم ما كانوا سيذهبوا للبحث عنه، حسدا له وخوفا من انتقامه منهم.

إن طبيعة شكوى يعقوب إلى الله كانت تختلف عما اعتقده بنوه. فلم يشكو يعقوب إلى الله خوفه على يوسف، لأنه كان يعلم بأنَّ الله كان قد كتب لابنه فضلا كبيرا، إلا أنه كان يشكو حزنه على فراقه وشوقه إلى رؤيته.

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87)﴾.

يعني الفعل «تحسّس» الوصول إلى الشيء بالحواس، أي العثور عليه. وفي عبارة ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ﴾ إشارة ضمنيّة إلى كلمة مثل «أثر» أو «خبر» ، وكأن يعقوب يقول «اذهبوا وحاولوا أن تعثروا على خبر أو أثر ليوسف وأخيه»[1].

تعلمنا الآية الكريمة بقرار يعقوب في وقت ما بإرسال بنيه للبحث عن يوسف وبنيامين. ولما كان الأخير في مصر فمن الواضح أن يعقوب أرسل بنيه إلى مصر، وهو ما سنرى إشارة واضحة إليه في الآية الكريمة القادمة. إن أمر يعقوب لبنيه بالذهاب للبحث عن ﴿يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ يعني علمه بأنَّ يوسف كان هو الآخر في مصر. كما أنّ تقديم يعقوب لذكر يوسف على أخيه يؤكّد بأنَّ أمره لأبنائه بالذهاب إلى مصر كان للبحث عن يوسف بقدر ما كان للبحث عن بنيامين. بل من المرجَّح

---

(1) يرى بعض المفسّرين بأنَّ الفعل «تحسّس» يشترك في معناه مع الفعل «تجسّس»، لكن هنالك في الواقع اختلاف مهم. إن «التجسّس» هو محاولة المعرفة بشكل سرّي لمعلومات عن أمر أو شخص ليس للمتجَسّس حق في معرفتها، أي أنها سرقة لمعلومات شخصيّة، ولذلك حرّم الله على الذين آمنوا التجسّس على بعضهم البعض، مثلما حرّم عليهم الغيبة والظن الآثم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات: 12). أما التحسّس فلا يشير الى عملية تعرّف مُحرَّمة.

أن يكون يعقوب على علم بأنَّ ابنيه كانا في مكان واحد أو على الأقل في مكانين قريبين جدا من بعض في مصر. فمن الممكن فهم تعبير ﴿تَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ على أنه يعني بأنَّ التحسّس من أحد الأخوين هو تحسّس من الآخر أيضا ويوحي بالتالي بأنَّ الأخوين كانا قريبين من بعض.

بيّنا بأنَّ السبب الرئيسي لأمر يعقوب لبنيه في الآية 67 بدخول مصر من أبواب متفرِّقة هو تجنّب ملاحظة حرس الحدود لتكرار دخولهم إلى مصر خلال فترة قصيرة، وكذلك لكي لا يصابون جميعا إذا ما وقع عارض سوء. من الواضح أن هذين الاحتمالين كانا قائمين في زيارة أبناء يعقوب الثالثة أيضا، فلِمَ لا تشير الآية الكريمة إلى أمر يعقوب لأبنائه التسعة بالدخول من أبواب متفرّقة هذه المرة أيضا؟ إن غياب أية إشارة في الآية إلى ذلك لا يعني بأنَّ يعقوب لم يأمر بنيه بالدخول من أبواب متفرّقة، إذ بناءً على تفسيرنا أعلاه فإن من المؤكّد بأنّه فعل. وسبب عدم ذكر هذه الآية الكريمة لذلك هو ما سبق ذكره حول أسلوب القرآن العظيم في اختيار التعبير الأقصر والأبلغ، وبالتالي التجاوز عن ذكر ما يمكن إدراكه من السياق.

وبعد أن أمر يعقوب بنيه بالذهاب إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه ذكّرهم بأن لا ييأسوا من ﴿رَوْحِ﴾ الله، أي من رحمته ومن فرجه بعد الشدة. ثم أنهى خطابه بتذكيرهم بأنَّ اليأس من روح الله هو عمل الكافرين، لأن اليأس من تغيير الله للأمور من شدة إلى رخاء هو تحديد لقدرته. وقول يعقوب لبنيه ﴿وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ يناظر قول جدّه إبراهيم من قبل: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (الحجر: 56).

إن من جمال خطاب يعقوب أن نراه وهو الذي أفقده حزنه على يوسف بصره يأمر بنيه المبصرين بأن لا يقعوا في كفر اليأس من رحمة الله. إن اجتماع الحزن على يوسف وضعف الشيخوخة وفقدان البصر على يعقوب الشيخ الكبير لم يفلح في جعله يقع في فخ اليأس من رحمة الله، بينما كان بنوه الذين لم يكن قد أصابهم بعض ما أصاب أباهم يشعرون باليأس من إعادة أخيهم إلى أبيهم.

يحتوي كل فصل من فصول قصة يوسف على دروس وعِبَر لكل شخص من

شخوصـها، وهـي دروس حية تبقى تحمـل المـواعظ الحكـيمة لكـل مـن يقـرأ هـذه القصة الرائعة.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88)﴾.

استجابة لأمر أبيهم ذهب بنو يعقوب إلى مصر مرة أخرى ودخلوا على العزيز يوسف للمرة الثالثة. أشار عدد كبير من المفسّرين إلى أنهم ذهبوا إلى يوسف برسالة من أبيهم يناشده فيها إعادة ابنه مع إخوته، إلا انه ليست هنالك أية إشارة في القرآن إلى الرسالة المزعومة. لو كان ذلك قد حدث فعلا فإنه كان سيُذكَر في خطاب أبناء يعقوب ليوسف في الآية الكريمة أعلاه، حيث نجدهم يخبرون يوسف بما جاءوا به وهو ﴿بِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾، ولا يشيرون إلى جلبهم غير ذلك. ولم يكتفِ المفسِّرون بذكر قصة الرسالة التي لا يوجد أي دليل عليها في كتاب الله، بل إنهم ادّعوا بأنَّ الله أنّب يعقوب على كتابته تلك الرسالة التي يشتكي فيها إلى عزيز مصر! لاحظ كم يخالف هذا الادعاء ما ذكر الله على لسان نبيه الكريم يعقوب مما يبيّن صبره العظيم على ما حلّ به وامتناعه عن الشكوى إلى غير الله. ويشابه ادّعاء المفسِّرين هذا الذي لا اساس له زعمهم غير العادل الآخر بأنَّ يوسف أخطأ حين طلب من رفيق سجنه ذكر قصة الظلم الذي تعرّض له إلى سيّده الملك واعتبارهم ذلك الطلب شكوى إلى غير الله!

ومن الواضح أنّ أبناء يعقوب لم يكونوا يعرفون أين وكيف يبدأون بالبحث عن يوسف تنفيذا لأمر أبيهم، لذلك ذهبوا للبحث عن بنيامين الذي كانوا يعرفون المكان الذي تركوه فيه، أي عند العزيز. ويبدو أن طلب شراء مؤنة كان حجة تذرّعوا بها للتقرّب من العزيز مرة أخرى ليتحسسوا خبر أخيهم ويستكشفوا إمكانية عودته معهم. إن تكتّم إخوة يوسف على هدف زيارتهم هو دليل آخر على عدم إيصالهم لرسالة من أبيهم إلى يوسف لأنهم ما كانوا سيقدّمون ليوسف مثل هذه الرسالة إلا إذا كانوا سيكلّمونه صراحة عن أخيهم.

حين دخل إخوة يوسف عليه بادروه بالقول بأنَّ ضُرّا قد أصابهم وأهلهم، قاصدين جوعا لقلة المُؤَن، حيث نجدهم يُتبِعون خطابهم ذلك بالقول بأنَّهم قد جاءوا ببضاعة مُزجاة وبالطلب من يوسف بأن يوفي لهم الكيل وأن يتصدّق عليهم. واختلف المفسِّرون حول المعنى الدقيق لكلمة ﴿مُزْجَاةٍ﴾ إلا أن هنالك اتّفاق على أن الكلمة تشير إلى بضاعة غير جيدة.

ويرى بعض المفسِّرين بأنَّ إخوة يوسف قصدوا بالصدقة التي طلبوها من يوسف تركه لبنيامين يعود معهم. لكن هذا التفسير مُستبعَد حيث ليس في سياق الآية ما يشير صراحة إلى طلبهم ذلك من يوسف، بل إنّهم تقصّدوا أن لا يذكروا في البدء أمر أخيهم وأن يشيروا إلى قلة مُؤَنهم فقط. ومن المرجَّح أن يكون إخوة يوسف قد هدفوا من لغة التذلّل التي استعملوها التأثير على يوسف علّه يبادر بإعادة أخيهم إليهم دون أن يطلبوا هم ذلك منه.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (89)﴾.

هنا قرّر يوسف بأنَّه قد حان وقت كشفه عن هويّته لإخوته.

بالرغم من سوء وشناعة ما فعله إخوته به وبشقيقه، ذكّر يوسف إخوته بما فعلوه بأسلوب طيّب سَمِح يعكس طبعه الرحيم الذي هو طبع أبيه يعقوب وأجداده إسحق وإبراهيم. فصيغة الاستفسار، كقوله ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ﴾، هي ألين صيغ التذكير بالذنب. لاحظ أيضا الربط في تذكير يوسف لإخوته بين الفعل ﴿عَلِمْتُم﴾ وصفة ﴿جَاهِلُونَ﴾ المتعاكسين تماما في المعنى وكيف أنهما يشيران إلى زمنين مختلفين، وكأنه يقول لهم: «لقد فعلتم ما فعلتم في الماضي حين كنتم جاهلون، فهل أصبحتم اليوم تعلمون سوء ما فعلتم؟». أي ميّز يوسف في لومه الرقيق لإخوته بين ماضيهم وحاضرهم، ناسبا سوء ما فعلوه إلى الماضي ومضمّنا سؤاله لهم القول بأنَّ حاضرهم هو غير ماضيهم وأنهم لم يعودوا أولئك الجاهلين الذين فعلوا به وبأخيه ما فعلوا.

لقد شاهدنا بأنَّ إخوة يوسف وإن كانوا لايزالون يكنّون سوءاً ليوسف وبنيامين

حين وقعت حادثة أخذ يوسف لبنيامين فإنهم كانوا قد تغيّروا بشكل ملحوظ. ثم جعل الله من مفاجأة العزيز لهم بأنَّه أخوهم يوسف تغيّرهم هذه المرة بشكل نهائي لا رجعة فيه. لقد أصلح الله إخوة يوسف بشكل تدريجي وهيأهم للحظة التي كشف لهم فيها يوسف عن حقيقته حيث أكمل فيها تغييره وإصلاحه لهم ليلحقهم حين يشاء بيوسف وآبائهم ويجعلهم أنبياء. إذ كما بيّنا في تفسيرنا للآية الكريمة 6 في الفصل الثالث، إن تعبير ﴿الأَسْبَاطِ﴾ القرآني يشير إلى يوسف وإخوته الأحد عشر الأنبياء.

إن الموقف الذي تصفه هذه الآية الكريمة هو تحقيق لوعد الله تعالى ليوسف الذي أوحاه إليه حين ألقاه إخوته في غيابة الجب: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. إذ ها هو يوسف يذكّر إخوته، الذين بقوا جاهلين بهويّته خلال زياراتهم الثلاثة ولغاية كشفه لحقيقته لهم، بما فعلوه به. أما ذكره لبنيامين فهو إشارة إلى سوء معاملة إخوته له كذلك.

﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90)﴾.

حين سمع إخوة يوسف خطاب العزيز أدركوا بأنّه هو يوسف، إلا أن هول المفاجأة جعلهم يردّون عليه بصيغة سؤال: ﴿أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾، وكأنهم يقولون: «هل من المعقول أن تكون يوسف؟». والسبب الرئيس في أن ذلك الموقف كان مفاجأة لها وقع الصاعقة عليهم هو أنهم ما كانوا يستطيعون أن يفهموا أو حتى يتخيّلوا كيف يمكن ليوسف الغلام الذي ألقوه في غيابة الجب في منطقة ما على بعد مسافة هائلة من مصر أن يكون قد وصل إلى منصب العزيز المرموق في مصر، ولا كيف يمكن للعزيز الذي زاروه وتبادلوا معه الحوار في ثلاث مناسبات مختلفة أن يكون يوسف من غير أن يدركوا ذلك.

أجاب يوسف بالإيجاب، ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾، ردا على سؤال إخوته المذهولين، وكأنه يقول لهم: «نعم، إنني أنا، العزيز، يوسف بعينه».

لكن في جواب يوسف أمر غريب فات على المفسّرين ملاحظته يكشف تفاصيلا مثيرة للاهتمام. ووجه الغرابة هو أنه بالرغم من أن سؤال إخوته كان عن هويّته هو فإنه أشرك بنيامين في الجواب. إذ لم يقل ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾ ويتبع ذلك بشيء من قبيل «قد منّ الله علي»، وإنما أشار في إجابته إلى بنيامين أيضا فقال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، فلِمَ ذلك؟

إن قول يوسف ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾ كان كشفا لهوّيته لإخوته، مما يعني بأنَّ استطراده بالقول ﴿وَهذَا أَخِي﴾ كان كشفا لهوّية بنيامين أيضا، وهذا بدوره يعني بأنَّه مثلما فشل إخوة يوسف في التعرّف على يوسف فإنّهم فشلوا في التعرّف على بنيامين، أي أنّهم رأوه ولكن لم يعرفوه. واستخدام يوسف لأداة الإشارة للقريب ﴿هذَا﴾ في قوله ﴿وَهذَا أَخِي﴾ يعني بأنَّ أخوه كان حاضرا حواره مع إخوته. ولكن كيف فشل إخوة يوسف في معرفة بنيامين؟

ويبدو أن سبب ذلك هو أن يوسف جعل أخاه يرتدي ملابسا مصرية غيّرت هيئته تماما، كما جعله من اصحاب السلطة عنده مما زاد في إخفاء هويّته عن إخوته. إن يوسف الذي قابل إخوته في ثلاث مناسبات مختلفة من غير أن يسمح لهم بأن يعرفوه، ووضع ونفّذ بدقّة تفاصيل خطة أخذه لبنيامين من غير أن يثير أي شك في أذهان إخوته عن دوره في ما حدث، كان قادرا بالتأكيد على أن يجعل بنيامين يبدو بمظهر لا يدركه فيه إخوته. ومثلما فشل إخوة يوسف في رؤيته في شخص العزيز فإنهم فشلوا في أن يدركوا بأنَّ الشخص الرفيع المنزلة المصري الهيئة الذي كان في حضرة العزيز لم يكن سوى أخوهم الآخر.

فقول يوسف ﴿وَهذَا أَخِي﴾ كان جذبا لانتباه إخوته إلى حقيقة هوية الشخص الآخر ذي السلطة الذي كان في حضرته مثلما كان قوله ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾ كشفا لحقيقة هويّته هو. ويوضّح هذا التفسير أيضا إشارة يوسف إلى نعمة الله على بنيامين أيضا لا عليه فقط: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾. فمثلما كان يوسف قد حصل على منزلة العزيز أصبح بنيامين أيضا في منصب عالي. فكأن يوسف يقول لإخوته: «لقد أسأتم معاملتي وأخي وأردتم بنا شرّا إلا أن الله أراد بنا خيرا، وهو الفعّال لما يريد».

ثم أكمل يوسف قوله بالتأكيد على أن طريق التقوى والصبر هو وسيلة الوصول إلى نعمة الله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، إذ جعل الله للمحسن المتّقي الصابر أجرا في هذه الدنيا وفي الآخرة. وشاهدنا كيف أن يوسف لم يفارق التقوى والصبر في أية مرحلة من مراحل حياته، بما في ذلك فترات الشدة والعسر. ويبيّن سياق القصة بأنَّ بنيامين كان هو الآخر متحلّيا بصفات الصالحين. فبعد أن كشف يوسف لإخوته هويّته وهويّة أخيه والنعمة التي أغدقها الله عليهما ذكّرهم بأنَّ التقوى والصبر، لا الحيلة والغدر، هما طريق الوصول إلى نعمة الله وبركته.

وفي هذا الموقف مفارقة تبيّن بأنَّ الله يرفع ويضع من يشاء من غير أن يستطيع أحد أن يغيّر حكمه. إذ بينما كان يوسف في موقع عز، وبنيامين عنده معزّز مكرّم وذو جاه، كان إخوته في حضرته في موقف حاجة وتذلّل وكما شاهدنا في صيغة الانكسار التي خاطبوه بها حين قالوا له بأنّهم قد أصابهم وأهلهم الضر وأنهم جاءوا ببضاعة مزجاة وسألوه أن يوفي لهم الكيل ويتصدّق عليهم: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91)﴾.

كان رد إخوة يوسف اعترافا مصحوبا بالقسم بأنَّ الله قد فضّل يوسف عليهم وأنهم كانوا خاطئين في ما قاموا به. والأخطاء المقصودة هنا هي أخطائهم بحق أبيهم ويوسف. إن أخطاءهم بحق يوسف هي ما قاموا به من سوء تجاهه، أما أخطاؤهم بحق أبيهم فتشمل المعاناة التي عرّضوه لها بسبب ما فعلوه بيوسف وظنّهم بأنّه كان يفضّل يوسف عليهم بغير وجه حق، كما في قولهم: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. لقد أدركوا الآن بأنَّ الله وليس أبوهم يعقوب هو الذي كان قد فضّل يوسف عليهم، فاستسلموا لأمر الله.

إن موقف الاعتراف بالذنب هذا يماثل اعتراف امرأة العزيز بذنبها، مما يدعم ما أشرنا إليه في حينه من أنها تابت وأصلحت.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92)﴾.

لا بد أن إخوة يوسف كانوا يتوقعون أذىً ما من يوسف ردّا على إساءاتهم له، خصوصا وأنه كان في موقع عز يمكّنه من الانتقام منهم كيف يشاء. إلا أن رد يوسف الرحيم الحليم على اعتراف إخوته بخطأهم كان تطمينا لهم بأنّه لم يكن يبغي لوما أو عتابا لهم يومئذ على ما قد مضى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، حيث تعني كلمة ﴿تَثْرِيبَ﴾ «لوم» أو «عتاب» وما شابه.

وأتبع يوسف قوله ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ﴾ بكلمة ﴿الْيَوْمَ﴾ للتأكيد على أن إخوته اليوم هم غير ما كانوا عليه في الماضي وأنّه ما كان ليلومهم على ما تقدّم منهم من أفعال سوء. إن فصله بين ماضي إخوته وحاضرهم هو تكرار لما تضمّنه قوله الذي بدأ به كشف هويّته: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾، وكما بيّنا في تفسيرنا لتلك الآية الكريمة. فيؤكّد هذا التركيز على الفصل بين ماضي إخوة يوسف وحاضرهم ما ذكرناه في غير موضع بأنَّ إخوة يوسف تغيّروا بشكل جوهري، وهذا بدوره يتّفق مع استنتاجنا بأنّهم اصبحوا لاحقا أنبياء وهو ما أشرنا إليه حين بيّنّا بأنَّ تعبير «الأسباط» القرآني يشمل أبناء يعقوب الاثني عشر.

وربطت الروايات التأريخية بين مغفرة النبي محمد لأهل مكة بعد فتحها سلميّا ومعاملة يوسف النبيلة لإخوته. ففي سيرة ابن هشام سأل الرسول قريشا بعد الفتح عما كانوا يظنّونه فاعلا بهم، كونهم قومه الذين عانى على أيديهم هو وأهله والمسلمين ما عانوا من تعذيب وتقتيل وحصار اجتماعي واقتصادي. فكان جواب قريش: «خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت»، فأجابهم النبي: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1]. إلا أن هنالك حديث يستبدل رد الرسول بما يلي: «وأنا أقول كما قال

(1) ابن هشام، سيرة النبي، ج 4، ص 34.

أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾». وبغض النظر أي الردّين أصح، يبيّن موقف النبي محمد رحمته في عفوه وهو في موقع العز والقدرة عن الذين كالوا له ولأهله وأصحابه حين كانوا في موقع الضعف كل صنوف التعذيب والتقتيل. وروى القرطبي وآخرون بأنَّ عمر بن الخطّاب كان قد قال لأهل مكة يوم فتحها المسلمون: «اليوم ننتقم منكم ونفعل»، لذلك فإنه قال لاحقا: «ففضت عرقا من الحياء من قول رسول الله». لقد صرّح الله بأنَّه جعل في سيدنا محمد رحمة منه، فقال في محكم كتابه العزيز: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: 159). وكيف لا يكون خاتِم الرسل رحيما وهو الموصوف بأنَّه رحمة للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: 107)؟

ولم يعرض يوسف عن لوم إخوته فحسب وإنما أيضا دعا لهم بالمغفرة من الله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾[1]. فبيّن يوسف لإخوته بذلك بأنَّه لا يحمل أية ضغينة لهم وأنه لا يطلب منهم حتى الاعتذار لما حدث معه وإن الله هو من يجب أن يعتذروا إليه ويستغفروه. وختم يوسف خطابه بتذكيرهم بأنَّ الله جدير بمغفرة ذنوبهم: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وأشار بعض المفسّرين إلى قراءة بديلة لهذه الآية الكريمة وهي اعتبار كلمة ﴿الْيَوْمَ﴾ بداية لعبارة ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ لا نهاية لقوله ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾. إلا أن قراءة العبارة بصيغة ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ هي قراءة مُستبعدة لأنها تعني بأنَّ يوسف قد حدّد «ذلك اليوم» موعدا لمغفرة الله لإخوته. رغم إشارة البعض إلى أن هذا التفسير يعني بأنَّ يوسف عَلِمَ وَحْياً بأنَّ الله قد غفر «في ذلك اليوم» لإخوته، فإن كون الفعل ﴿يَغْفِرُ﴾ بصيغة المضارع يخالف هذا التفسير، فتقدير القول هو «أدعو

(1) المُلاحَظ في دعاء يوسف لإخوته ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ هو عدم بدئه بكلمة مثل «عسى». يبدو أن هذه الكلمة مُحتواة ضمنيّا، ربما كنوع من التأكيد في الدعاء.

الله أن يغفر لكم» كما سبق وأن ذكرنا. ويؤكد حديث الرسول أعلاه تفسيرنا حيث ترد فيه كلمة ﴿الْيَوْمَ﴾ كآخر كلمة في عبارة ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾: «وأنا أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾».

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93)﴾.

لا يصرّح النص القرآني بكيفية معرفة يوسف بفقدان أبيه يعقوب لبصره. إذ يمكن أن يكون قد علم بذلك من الله أو عن طريق إخوته بعد تعرّفهم عليه، فلا شك أن يوسف وإخوته تحدّثوا طويلا بعد أن كشف لهم عن هويّته وأن حال أبيه كان من أول ما تناوله الحديث. وتخبرنا الآية الكريمة عن إعطاء يوسف لإخوته قميصه ليلقوه على وجه أبيه فيرتد إليه بصره. ومما يجذب النظر في قول يوسف هو نبرة الثقة بحدوث معجزة الله: ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾.

ومن أوجه بلاغة القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة هو استخدام تعبير ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ للاستغناء عن عبارتين بواحدة. فبدل استخدام عبارة للإشارة إلى ارتداد بصر يعقوب وأخرى لطلب يوسف بأن يأتي أبوه إلى مصر، فإن العبارة ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ تشمل المعنيَيْن.

لكن هنالك وجه آخر من الإعجاز البلاغي في التعبير القرآني ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ يكشف عن الأدب النبوي الرفيع الذي تحلّى به يوسف. إذ أراد يوسف من إخوته جلب أهلهم جميعا إلى مصر: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، كما أنّه أراد لأبيه أيضا أن يأتِ، إلا أن الأدب الإلهي الغالِب عليه ما كان ليجعله يستخدِم صيغة الأمر تلك عند الكلام عن أبيه، أي لم يقل شيء من قبيل «وليأتِ أبي»، فاستخدم بدلا من ذلك عبارة ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ التي تحتوي على فعل بصيغة المضارع. أي أنه استخدم صيغة الإخبار بدل الأمر في الحديث عن مجيء أبيه، حيث قال ما معناه «وسيأتي أبي» بدل «وليأتِ أبي».

إن أدب يوسف هذا هو من صنف الأدب الذي أنعم به على المُخلَصين من

عباده. فقد مدح نبيّنا الكريم فقال في حمد أدبه وخلقه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 4). ونُسِبَ إلى سيدنا مُحمَّد قوله في ما أنعم عليه ربّه الكريم من أدب: «أدّبني ربّي فأحسن تأديبي». ويكفي دليلا على سمو أدب الأنبياء هذا وكونه مما اختص به الله من يشاء أننا غالبا ما يفوتنا حتى ملاحظة وفهم لمحات وإشارات الأدب في سلوك الأنبياء وأقوالهم، كقول يوسف أعلاه، ناهيك عن التحلّي بما يقارب أدبهم.

ويكاد يجمع المفسّرون على أن القميص المذكور في هذه الآية الكريمة هو القميص الذي ألبسه الله لإبراهيم حين ألقاه قومه في النار ليحميه منها، وأن إبراهيم أعطى هذا القميص لابنه إسحق الذي أعطاه لابنه يعقوب الذي أعطاه بدوره لابنه يوسف. أما مصدر هذا التفسير فحديث ينسبه البعض إلى الرسول والبعض الآخر إلى سبط رسول الله سيدنا الحسين. إلا أن النص القرآني يخالف صراحة هذا الحديث المُختَلَق ويؤكّد بأنَّ ذلك القميص كان قميص يوسف بالذات، وكما سنرى في أدناه.

لنبدأ أولا بقصة نجاة سيّدنا إبراهيم من النار التي ألقاه فيها قومه المشركون، حيث قال الله في وصف ذلك: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء: 68، 69). لم يقل الله بأنَّه غيّر خصائص جسم إبراهيم فجعله لا يتأثر بالنار ولا أنه ألقى عليه قميصا أو غطاءا حافظا من النار، ولكنه قال بأنَّه أمر «النار» بأن تكون ﴿بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، أي أنه غيّر خصائص تلك النار فجعلها غير قادرة على إيذاء جسم نبيّه الكريم. إن الله هو خالق الأشياء والأسباب وهو الذي وضع قوانين المادة والخلق، ولذلك فإنه قادر أيضا على أن يغيّر او يعطّل تلك القوانين متى ما شاء، وهو ما قام به في هذه المعجزة حين جعل النار لا تحرق جسم إبراهيم. ما كان إبراهيم ليحتاج إلى غطاء واقٍ من النار لأن الله جعل النار عاجزة عن إيذائه.

والآن لننظر إلى ما ورد في قصة يوسف عن القميص. لو كان ذلك القميص قميص جده إبراهيم الذي ألقاه الله عليه، كما يقول المفسّرون، لما نسبه يوسف

المتأدِّب بتأديب ربّه له إلى نفسه حين قال لإخوته ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَـٰذَا﴾. كما سنرى في الآية الكريمة القادمة بأنَّه حين توجَّه إخوة يوسف وبصحبتهم القميص إلى بلد يعقوب فإن يعقوب شمّ ﴿رِيحَ يُوسُفَ﴾ لا رائحة إبراهيم أو غيره من الأنبياء.

بالإضافة إلى كل ذلك، من الصعوبة فهم كيف يمكن أن يكون قميص إبراهيم ذاك قد انتهى في حوزة يوسف في مصر. أولا: كان إبراهيم «فتى»، أي شابا، حين وقعت معجزة تبريد النار، بينما كان يوسف «غلاما»، أي طفلا صغيرا، حين رماه إخوته في الجُب. أي أن قميص إبراهيم كان أكبر من حجم يوسف، ولذلك فلا يمكن أن يكون قد لبسه. ثانيا: من بعد أن رموه في البئر، وضع إخوة يوسف دما كذبا على القميص الذي كان يلبسه وأخذوه إلى لأبيهم: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾. أي حتى إذا كان يوسف قد لبس ذلك القميص في حينه، فإن إخوته أخذوه منه قبل رميه في الجُب.

إذا من الواضح بأنَّ القميص الذي أرسله يوسف إلى أبيه هو قميصه هو، وأن شفاء أبيه بذلك القميص هو معجزة إلهية أنعمها الله على يوسف ويعقوب. إن معجزة رد يوسف لبصر أبيه بقميصه لا تختلف عن معجزة مثل شفاء عيسى عليه السلام للأكمه، أي الأعمى منذ الولادة: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة: 110). ربّما كان عيسى يشفي الأكمه بمسّه بجسمه المبارك بشكل مباشر، مثلا بلمسه بيده المباركة أو بالنفخ على عينه، أو بشكل غير مباشر، مثلا بلمسه بأشياء خاصّة به قد اكتسبت من بركته، كثيابه. كذلك رد يوسف بصر أبيه بقميصه الذي لامس جسمه المبارك وبالتالي اكتسب من بركته. فالبركة التي جعلها الله في يوسف هي التي مكّنته من رد بصر أبيه بقميصه، مثلما مكّنت البركة التي

جعلها الله في عيسى هذا النبي من شفاء الأكمه والقيام بغير ذلك من المعجزات. إن أصل مثل هذه المعجزات والكرامات هي بركة من الله يجعلها في نبي أو شخص صالح فيصبح هذا المُبارَك هو نفسه مصدرا لتلك البركة التي تعود نشأة واستمرارا إلى الله. وأكد عيسى هذا في قوله لقوم أمه حين كان لايزال في المهد: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ (مريم: 31).

إن جعل الله النار التي أُلقي فيها إبراهيم بردا وسلاما عليه لا يعني بأنَّ تلك النار أصبحت بردا على غير إبراهيم أيضا، فتلك النار كانت لاتزال محرقة لباقي الناس، وهو شيء خبره قوم إبراهيم الذين شهدوا المعجزة. وعلى نفس المنوال ما كان قميص يوسف بالضرورة سيشفي كل أعمى. إن كل ما نستطيع استنتاجه من النص القرآني هو أن يوسف كان على علم بأنَّ إلقاء قميصه على وجه أبيه كان سيرد عليه بصره.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتْ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِي (94)﴾.

إن معنى ﴿فَصَلَتْ الْعِيرُ﴾ هو «غادرت القافلة المكان»، حيث إن «الانفصال» عن الشيء هو «تركه». أما قول يعقوب عندما غادرت القافلة مصر ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ فمعناه «إني أشم رائحة يوسف». وشمُّ يعقوب لرائحة يوسف عندما غادرت القافلة مصر، أي بينما كانت القافلة على بعد مسافة هائلة من مكان سكناه، يعني بأنَّ هذا كان معجزة ليعقوب.

ولكن إذا شمَّ يعقوب رائحة ابنه بينما كانت القافلة لاتزال في مصرَ حيث أقام يوسف سنينا طويلة، فلِمَ لم يشمَّها قبل ذلك؟ لا بد أن تلك المعجزة كانت إشارة من الله إلى يعقوب بقرب لقائه بابنه. لكن قوله المقتضَب ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ يعني بأنَّه لم يصرّح بدلالات تلك المعجزة.

إن معنى «يفنّد شخصا» هو «ينكر صحة أو يسفّه ما يقول» أو «يكذّبه»، فقول يعقوب ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِي﴾ يعني: «عسى أن لا تنكروا صحة ما أقول». قال يعقوب هذا لأنّ أبناءه، ولا شك أهلهم كذلك، دأبوا على التشكيك في جدوى تأمّله لقاء

يوسف يوما: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.

ويعتقد معظم المفسِّرين بأنَّ أبناء يعقوب لم يذهبوا كلّهم إلى يوسف في المرة الثالثة وإنما بقي بعضهم معه وأن هذا البعض هم الذين كان يحدّثهم يعقوب في هذه الآية الكريمة. ربّما مما جعل المفسِّرين يميلون إلى هذا التفسير هو ورود كلمة ﴿أَبُوهُمْ﴾ في الآية الكريمة. ولكن كما بيّنّا في هامشنا على الآية 6، فإن كلمة «أب» في القرآن لا تشمل فقط الأب المباشر وإنما كل «جد» أيضا. لقد أرسل يعقوب جميع أبنائه إلى مصر في المرّتين الأولتين، ولذلك فإنه ليس هنالك من سبب للافتراض بأنّه أرسل بعضهم فقط هذه المرة، خصوصا وأنه كان يريد منهم أن يتحسّسوا عن مكان يوسف وأخيه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾. لذلك فإننا نرى بأنّه أرسل أبناءه التسعة إلى مصر في المرة الثالثة وأن الذين كان يحدّثهم يعقوب في هذه الآية الكريمة هم أحفاده وليس أبناءه المباشرين، وهو احتمال أشار إليه بعض المفسِّرين أيضا، كالقرطبي وابن كثير.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95)﴾.

من الواضح أن هذا جواب أولئك المُشار إليهم في الآية الكريمة السابقة بالضمير المتّصل «هم» في كلمة ﴿أَبُوهُمْ﴾ على قول يعقوب: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِي﴾. وكما ذكرنا، إننا نميل إلى تفسير هذا على أنه قول بعض أهل يعقوب غير أبنائه، وعلى وجه التحديد بعض أحفاده.

ويُقسِم المتكلّمون في هذه الآية الكريمة بأنَّ يعقوب كان لايزال في ضلاله القديم. ويرى المفسّرون بأنَّ المقصود بالضلال القديم هو تفضيل يعقوب ليوسف على باقي أبنائه. وقد ربط الطباطبائي، الذي يعتقد أيضا بأنَّ المتحدّثين هنا هم بعض أبناء يعقوب، هذا الضلال بما قاله أبناؤه قبل أن يقرروا التخلّص من يوسف: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. إلا أن هذا التفسير غير صحيح، لأن يعقوب لم يكن يتحدّث عن تفضيله ليوسف

على إخوته كي يكون هذا هو ما وصفه أحفاده بأنَّه «ضلاله القديم»، وإنما كان يشير إلى شمّه لرائحة يوسف وعدم تصديق أحفاده لذلك. أي ذكر يعقوب ما يراه دليلا على صحة اعتقاده الذي لم يفارقه يوما بأنَّ يوسف كان لايزال حيّا وأنه سيراه يوما ما، وهذا هو ما وصفه أحفاده بالضلال القديم. إذ سبق وشاهدنا كيف لام أبناء يعقوب والدهم على دوام ذكره ليوسف قائلين: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾، ولذلك فقد أشار أحفاده إلى ما وصفوه بضلاله القديم لأنه لم يفتأ يذكر يوسف منذ غيابه.

ولنتذكّر هنا بأنَّ يعقوب تحدّث عن شمّه لريح يوسف بينما كانت القافلة لاتزال بعيدة جدا عن بلده، ولذلك مر وقت ليس بالقليل قبل أن يظهر البرهان على صحة قوله. لا شك أن مرور ذلك الوقت أكّد لأحفاد يعقوب ما كانوا يظنّوه من خطأ جدّهم في قوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾. لذلك لا بد أنهم ذُهِلوا يوم جاء البشير بقميص يوسف مثلما ذُهِلَ من قبل آبائهم حين كشف لهم يوسف هويّته.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96)﴾.

﴿الْبَشِيرُ﴾ هو ابن يعقوب الذي جاء بالقميص وألقاه على وجه أبيه فارتدّ في الحال بصيرا. قال يعقوب لأبنائه حينئذ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، مذكّرا إيّاهم بما سبق وان قاله لهم في مناسبات سابقة، بما في ذلك ردّه على لومهم له على كثرة ذكره ليوسف: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. إن استشهاد يعقوب بذلك العلم الإلهي بعد أن جاء البرهان على أن يوسف حي وأنّه سيراه هو دليل آخر على صحة تفسيرنا بأنَّ العلم المذكور في آية 86 هو علمه بأنَّ يوسف حي وأنه سيراه ثانية. لاحظ كيف بادر يعقوب إلى ذكر الله مباشرة بعد عودة بصره إليه.

ذكر يعقوب العلم الذي تلقّاه من الله من غير أن يحدّد ماهيّته فقال ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولم يقل، مثلا، بأنّه كان يعلم من الله بأنَّ يوسف لايزال حيا.

وتفسير ذلك هو أن يعقوب كان يعرف الكثير من الله ولم تكن معرفته بأنَّ يوسف على قيد الحياة إلا وجه من أوجه تلك المعرفة.

ولم يفت على المفسِّرين ملاحظة الدور الذي لعبه «قميص يوسف» في قصته. إذ وضع إخوة يوسف دما كذبا على قميصه حين استعملوا القميص دليلا لأبيهم على أكل الذئب ليوسف، ثم لعب القميص والشق الذي أحدثته فيه امرأة العزيز دورا في تبرئته من التهمة الظالمة التي أرادت لصقها به، ثم ها هو القميص يعيد إلى أبيه البصر. من الواضح طبعا بأنَّ هذه الأحداث المختلفة تضمَّنَت قمصانا مختلفة.

وهنالك مفارقة مهمة وجميلة بين جلب إخوة يوسف لأبيهم بقميصه يوم ألقوه في غيابة الجب وجلبهم له بقميصه من مصر. إذ قادت الحادثة الأولى لاحقا إلى فقدان يعقوب لبصره، فيما كانت الحادثة الثانية سبب عودة بصره إليه. لقد استعمل أبناء يعقوب قميص يوسف في الحادثة الأولى دليلاً على موته، بينما كان مجيئهم بالقميص من مصر دليلاً على أنه لايزال حيا.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97)﴾.

يكرّر أبناء يعقوب هنا في حضور أبيهم ما فعلوه أمام يوسف من اعتراف بخطأهم. إلا أن هنالك فرقا لطيفا من المهم ذكره بين قول إخوة يوسف له ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ وخطابهم هذا لاحقا لأبيهم. إن الفرق هو استخدام إخوة يوسف لكلمة ﴿إِنْ﴾ واللام في كلمة ﴿لَخَاطِئِينَ﴾ في عبارة ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ عند خطابهم ليوسف ولكلمة ﴿إِنَّا﴾ في العبارة الشبيهة ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾. تمثّل كلتا العبارتان اعترافا من إخوة يوسف بأنّهم كانوا من الخاطئين، إلا أن كلمة ﴿إِنَّا﴾ المُشدَّدة في خطابهم لأبيهم فيها تأكيد إضافي وتيقّن من أنهم كانوا مذنبين. ففي هذا الانتقال من كلمة ﴿إِنْ﴾ إلى كلمة ﴿إِنَّا﴾ إشارة لطيفة من الله إلى استمرارية التغيير الذي كان إخوة يوسف يمرّون به وهم ينتقلون من حال إلى حال أفضل بنعمة من الله وفضل. فخطاب إخوة يوسف لأبيهم، الذي حدث بعد شهودهم معجزة عودة بصره إليه ببركة قميص يوسف، يبيّن وصولهم إلى حالة

اليقين بأنَّهم كانوا خاطئين فيما فعلوه بحق أبيهم وأخيهم.

ولكن لِمَ طَلَبَ أبناء يعقوب من أبيهم أن يستغفر لهم الله؟ لقد كانوا قادرين على طلب المغفرة من الله مباشرة ولا شك أنّ كل فرد منهم استغفر الله كثيرا على ما قام به، إلا أن سبب طلبهم هو أنهم كانوا يعلمون كُبرَ مكانة يعقوب عند الله وأنه يجيب دعاء عباده المقرَّبين أكثر من دعاء غيرهم. فطلبوا من أبيهم أن يكون واسطة عند ربّهم ليغفر لهم ذنوبهم.

ومما يشهد على صواب طلب أبناء يعقوب من أبيهم سؤال الله لهم المغفرة هو موافقته على طلبهم. فقد كان يعقوب يعلم تمام العلم بأنّه لم يكن قادرا على أن يصرف عنهم أذى أو يقرّب منهم خيرا إذا أراد الله أمرا آخر، كما قال لهم في السابق: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِن اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، إلا أنه كان يعلم وأبناؤه بأنَّ قربه من الله يعني بأنَّ الله يجيب له من الدعاء ما لا يجيب أبناءه.

ولاحظ أيضا، على سبيل المثال، كيف أمر الله رسوله الكريم بأن يستغفر للمؤمنين في قوله الكريم: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (محمّد: 19). لو لم يكن لاستغفار النبي بركة خاصة واستجابة أكبر من الله لما أمره بأن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ولاكتفى باستغفارهم لأنفسهم.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98)﴾.

كان رد يعقوب على اعتراف أبنائه بذنوبهم وطلبهم منه أن يستغفر لهم الله ردّاً كلّه رحمة، كرد أخيهم يوسف على اعترافهم بخطأهم.

ويقول المفسّرون بأنَّ وعد يعقوب لبنيه بأن يستغفر لهم مستقبلا سببه أنه أراد أن يستغفر لهم في وقت السحر أو في ليلة الجمعة حيث يكثر قبول الدعاء. ولكن من غير الدخول في تفاصيل لا يمكن البرهنة على صحّتها، من الواضح من نص الآية بأنَّ يعقوب قصد بأنّه سيخصص وقتا للاستغفار لأبنائه. أي أن تأجيل يعقوب للاستغفار يعني بأنّه لم يكن بصدد مجرّد قول شيء مختصر من قبيل: «عسى الله أن يغفر لكم»، وإنما أراد أن يطيل في استغفاره لأبنائه في وقت ما له مع الله.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99)﴾.

كما طلب يوسف من إخوته، جاء أبوهم وأهلهم جميعا إلى مصر. حين دخل يعقوب وأم يوسف وإخوة يوسف وأهلهم على يوسف آوى إليه أبويه. وكما تقدّم في تفسيرنا للآية الكريمة 69، فإن «الدخول على يوسف» هنا يعني الدخول إلى مكان لقائه الرسمي للزوّار، أما «إيواؤه لأبويه» فيعني أخذهم إلى مقامه الخاص، وهذا تكريم خاص لأبويه مثلما كَرَّمَ من قبلُ بنيامين.

لاحظ كيف فرّق يوسف بين إخوته في زيارتهم الثانية له، فآوى إليه بنيامين دون الآخرين، ولكنه لم يفرّق بينهم في زيارتهم هذه، لأنهم أصبحوا إخوة في الله أيضا ولم يعد العشرة الأكبر سنّاً يكيدون ليوسف وشقيقه السوء. أما إيوائه لأبويه بالذات فهو زيادة في إكرامه لهم.

بعد أن أدخل يوسف أبويه إلى مأواه قال لأهله: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾، أي بشّرهم بسكن آمن في مصر بإذن الله. يرى الكثير من المفسّرين بأنَّ من غير الممكن أن يقول يوسف لأهله ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ بعد أن كانوا قد دخلوها، فاقترحوا بأنَّ إيواء يوسف لأبويه حدث خارج مصر حيث خرج لاستقبالهما وأنه بشّرهما وباقي أهله بدخول مصر بأمان حين دخلوا إليها في صحبته. لكن قول يوسف هنا يماثل ما يقوله رب البيت الذي يستقبل ضيوفا في بيته ويستمر في الترحيب بهم حتى بعد دخولهم وجلوسهم تأكيدا على تثمينه لهم ولزيارتهم، لذلك لا مبرّر لهذه الفرضية. كما أن هذه الفرضيّة مبنية على سوء فهم لمعنى الفعل «آوَى»، حيث يشير إلى الدخول إلى مكان السكن الخاص ولا يمكن أن يكون أي مكان خارج مصر.

كما شاهدنا نفس الفصل في المعنى بين «الدخول على يوسف» و«إيواء» من يريد إليه في الآية 69 التي وقعت حوادثها بالتأكيد في مصر بل وفي مكان عيش يوسف.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)﴾.

لسبب ما يجمع معظم المفسّرين على أن ﴿الْعَرْشِ﴾ في هذه الآية الكريمة هو «سرير». إلا أن كل ما يبيّنه سياق القصة هو أنّ ﴿الْعَرْشِ﴾ المقصود هو مكان جلوس الملك أو ربّما العزيز ذي المكانة الرفيعة، سواء كان ذلك على شكل سرير أو شيء آخر. أما رفع يوسف لأبويه على العرش فكان إكراما لهما.

ثم يخبرنا الله بأنّهم ﴿خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾. لا تذكر الآية الكريمة متى وقعت هذه الحادثة على وجه التحديد، إلا أن من الواضح أنها حادثة منفصلة عن رفع يوسف لأبويه على العرش وأنّها لاحقة لها، رغم أن هذا لا يعني بأنّها تلتها «مباشرة». في الواقع سنجد في ما سيلي من تحليل للآية الكريمة بأنَّ حادثة السجود وقعت في مكان غير مأوى يوسف.

من البيّن من سياق القصة ومن رؤيا يوسف ومن كون الضمير في الفعل هو بصيغة الجمع بأنَّ الذين خرّوا له سُجَّدا هم إخوته وأبواه. ويرى عدد من المفسّرين بأنَّ المقصود بسجودهم له هو شكرهم لله على فضله على يوسف، حيث يقارن المفسّرون هذا السجود بسجود الملائكة لآدم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ (طه: 116). إلا أننا لا نتّفق مع هذا الرأي وتشبيهه لسجود أبوي يوسف وإخوته بسجود الملائكة لآدم. فالملائكة سجدوا لآدم لأن الله أمرهم بذلك، أي كان سجودهم طاعة لأمر إلهي، بينما ليست هنالك أية إشارة في سورة يوسف إلى أن الله أمر أبوي يوسف وأهله بالسجود له. فسجود أبوي يوسف وأهله له كان لسبب غير سبب سجود الملائكة لآدم.

إننا نرى بأنَّ سجود إخوة يوسف وأبويه له كان اتّباعا لتقليد جاري في تحيّة الملوك وأصحاب السلطة، وهو تقليد كان شائعا ولايزال جاريا في بعض الأماكن

من العالم. لذلك فمن المرجَّح وقوع تلك الحادثة حين خرج يوسف عليهم وهم في معية أناس آخرين في مكان جلوسه الرسمي حيث سجد له أبواه وإخوته مثلما فعل باقي الناس.

مما تجدر ملاحظته أن فعل «الرفع على العرش» منسوب إلى يوسف بينما فعل «الخر له سجودا» منسوب إلى أبويه وإخوته. أي بينما كان يوسف هو الذي ﴿رَفَعَ﴾ أبويه على العرش فإنّهما هما اللذان خرّا مع إخوته سجّدا له، مما يؤكّد بأنّهم هم الذين قاموا بذلك وليس استجابة لطلب من يوسف. ويتّفق هذا الاستنتاج مع تفسيرنا لسجودهم بأنّه كان محاكاة لما تلقّاه يوسف من احترام من الناس الحاضرين.

وخاطب يوسف أباه بعد حادثة السجود قائلا: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾، في إشارة إلى الرؤيا التي رآها حين كان صغيرا: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. من الجدير بالملاحظة هنا هو أن خطاب يوسف كان موجّها إلى أبيه فقط مما يشير إلى أنه الوحيد الذي كان يعلم بأمر تلك الرؤيا، إذ لم يحدّث يوسف أحدا من إخوته عن تلك الرؤيا طاعة لأمر أبيه: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾. ومعنى قوله ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ هو أن الله قد حقّق الرؤيا أي جعلها تحدث.

ويعني تفسيرنا لسبب سجود أبوي يوسف وإخوته له بأنَّ من المحتّم أن إخوة يوسف سجدوا له في زياراتهم الثلاثة السابقة له، وهذا بدوره يعني بأنَّ إخوة يوسف الأحد عشر سجدوا جميعا له في زيارتهم الثانية. ويفسّر هذا ذكر الكواكب الأحد عشر قبل الشمس والقمر في وصف يوسف لرؤياه. فالاستعمال الشائع عند الحديث عن الشمس والقمر والكواكب هو ذكر النيّرين أولا ومن ثم الكواكب. كما أن كون الشمس والقمر مثّلا يعقوب وأم يوسف بينما رمزَت الكواكب إلى إخوة يوسف يجعل المرء يتوقّع ذكر النيّرين أولا. إلا أن سجود إخوة يوسف الأحد عشر قبل سجودهم مع أبويه أيضا له هو سبب مخالفة وصف الرؤيا في القرآن

للاستعمال اللغوي الشائع ولما هو مُتوَقَّع واحتواؤه على ذكر الكواكب قبل ذكر النيّرين. لاحظ التجانس الخفي المذهل بين أجزاء النص القرآني.

ويكمل يوسف خطابه ذاكرا إحسان الله به إذ أخرجه من السجن. وفي قول يوسف أدب جم يعلّمنا القرآن العظيم أن نتحلّى به في علاقتنا مع الله. إذ لاحِظ كيف نسب يوسف إلى الله فضل إخراجه من السجن ولم ينسب إليه إدخاله إليه. إن الله بالتأكيد هو الفاعل في كلتي الحالتين، إلا أن الدرس من أدب يوسف هو أن نرضى بما يفعله الله بنا، وهو الفعّال لما يريد، وأن نصبر على أمره، وأن نشكره ونحمده على ما ينعمه علينا من فضل، فليس من أفضاله ما نحن أهل له ولا ما هو مُجبَر على منحنا إياه. لقد رأى يوسف في إخراج الله له من السجن فضل يوجب الشكر، بينما لم يرَ في إدخال الله له السجن سوى أمر يوجِب القبول والصبر.

وأدب يوسف الجم هذا هو نفس الأدب النبوي الكريم الذي نراه في قول جدّه أبي الأنبياء إبراهيم وهو يصف الله لقومه: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء: 79، 80). إذ لاحِظ كيف نَسَبَ إبراهيم إلى الله إطعامه وسقيه له ولم ينسب إليه تجويعه وتعطيشه، وكيف نسب إلى الله شِفائه من المرض ولم ينسِب إليه تعرّضه له.

إن في يد الإنسان أن يضاعف نعمة الله عليه أو يحوّلها إلى نقمة، كما في مقدوره أن يضاعف آفة الله عليه أو يحوّلها إلى نعمة. إن الشكر على النعمة يضاعفها ويجعل لها آثارا روحية ودنيوية، فيما يؤدي ترك الشكر على النعمة إلى آثار سلبية على الإنسان دنيويا وروحيا. كما أن الصبر على الآفات يهوّنها ويحوّلها إلى خير للمرء دنيويا وروحيا، بينما يضاعف الجزع الآفات ويجعلها مصابا روحيا وليس دنيويا فقط.

ويتابع يوسف ذكره لأفضال ربّه عليه وعلى أهله فيشير إلى جلبه لأبويه وإخوته وأهلهم من البدو، أي من الصحراء، إلى مصر، من بعد أن زرع الشيطان الشقاق بينه وبين إخوته. لاحظ طيبة يوسف الذي رأى في جلب الله لأبويه وإخوته من البادية إلى مصر فضلا عليه هو.

كما تجدر أيضا ملاحظة تجاوز يوسف في قوله ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ عن كل لوم لإخوته من بعد أن اعترفوا بذنبهم وطلبوا المغفرة من الله، إذ يتغاضى يوسف قصداً عن القول بأنّ تأثير الشيطان على إخوته بالذات، والذي يعني وجود عيوب فيهم، كان هو السبب في الشّقاق الذي حدث.

وبعد أن ذكر يوسف ما مرّ به وبأهله بدءاً بالرؤيا التي شاهدها في صغره قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾. إن «اللطف» هو «الخفاء الذي لا يبين»، لذلك فإن معنى اسم الله «اللطيف» هو «الذي لا تدركه الحواس»، وكما وصف نفسه فقال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: 103). فمعنى قول يوسف هو أن الله يقود الأمور إلى غاياتها التي يريدها من غير أن يدرك أحد كيف يفعل ذلك. ومما لا شك فيه أن الله حاضر بكل أسمائه الحسنى خلال قصة يوسف، إلا أن «اللطيف» هو من أكثر أسمائه تجلّيا في هذه القصة.

إن أحد أكبر دروس هذه القصة العظيمة هو أن الله يفعل ما يريد ولا يستطيع أحد أن يغيّر حكمه. إذ أراد الله خيرا كبيرا بيوسف وبآل يعقوب، وكما أَطْلَعَ يوسف في الرؤيا التي شاهدها في صغره، ولم يستطع الكيد العظيم لإخوة يوسف وامرأة العزيز وسجّاني يوسف منع حصول ذلك الخير. بل ومن عجيب أمر الله انه جعل ذلك الكيد «أسبابا» لحصول ما كان يريد وقوعه. وهذا شيء أدركه إخوة يوسف تماما حين كشف لهم هويّته فقالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، اعترافا منهم بأنّ كيدهم ذاك ما كان يمكن أن يؤدي إلى عكس ما كانوا يريدون تماما إلا إذا كان الله وراء ذلك.

لقد آثر الله يوسف على إخوته وأراد له علم تأويل الأحاديث والمُلك فجعل من كل كيدٍ كِيدَ له وسيلة تقرّبه أكثر إلى ما أراده له من فضل. فإلقاء إخوته له في غيابة الجب انتهى به إلى مصر، وعلى وجه التحديد في بيت العزيز الذي جعله الله المدرسة التي علّم فيها نبيّه تأويل الأحاديث. أما رمي امرأة العزيز له في السجن فكان السبب في وصول خبره إلى المَلِك وبالتالي خروجه من السجن إلى المُلك.

ومن الدروس الرائعة التي تبرزها بشكل خلاب هذه السورة العظيمة، من خلال

كشفها للعلاقة الخفية التي تربط بين حوادث تبدو في ظاهرها غير مترابطة وعشوائية، هو خلو خلق الله من أيّة عشوائية. فالناظر إلى يوسف المُلقى في قاع الجب لا يستطيع أن يتصوّر كيف يمكن أن تكون هذه الحادثة بداية لصعوده إلى مركز رفيع في الحكم في مصر على مسافة هائلة من موقع البئر. لكن اللطف الإلهي الخفي ربط بين تلك الحوادث ليجعل لها معانٍ عميقة تخفى عن كل عين إلا عين من شاء الله أن يطلعه عليها، ولا تظهر لعيون عامة الناس إلا من بعد أن يحين وقت ظهورها. فأسماء الله الحسنى «اللطيف» و«العليم» و«الحكيم» تعني بأنَّ هذا الكون خالٍ من العشوائية ومليء بالمعاني. وبعض هذه المعاني يمكن لأحد أن يطّلع عليها، وبعضها الآخر لا يطّلع عليها إلا من يشاء الله.

بعد قوله ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ أنهى يوسف كلامه بوصف الله بأنّه ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، أي اللطيف الذي يسيّر الأمور بخفاء بعلمه فيحكم في الخلق فيحصل ما يريد. لاحظ أن ﴿الْعَلِيمُ﴾ و﴿الْحَكِيمُ﴾ هما نفس الاسمين الحسنين اللذين ذكرهما يعقوب حين فسّر لابنه رؤياه: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. أي أن ما حدث، بما في ذلك تحقّق تلك الرؤيا، هو تصديق لكون الله ﴿هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. إن هذين الاسمين الحسنين هما الأكثر تكرارا في سورة يوسف بعد اسم الجلالة «الله».

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)﴾.

ثم نأتي إلى آخر آية من قصة يوسف رغم أنها ليست آخر آية في السورة.

بينما كان يوسف في الآية السابقة يخاطب أهله، فإنه هنا يناجي ربّه. فمن الواضح أن هذا الدعاء حدث في وقت لاحق كان فيه يوسف يتعبّد لله. لاحظ تجاوز يوسف عن ذكر المشاق التي مر بها في طريقه إلى تعلم تأويل الأحاديث

والصعود إلى المُلك ليكتفي بذكر نِعَم الله عليه. فيوسف ذو العلم والحكمة كان مؤمنا بأنَّ كل الصعوبات التي مر بها كانت في حقيقتها، سواء كان ذلك ظاهرا أم لا، أفضالا ونِعَما من الله ساعدت في وصوله إلى ما وصل إليه روحيّاً ودنيوياً.

ويبدأ يوسف دعاءه هنا مثلما بدأ كلامه في الآية السابقة بذكر بعض من أفضال الله عليه. فيذكر أولا ما آتاه الله ﴿مِن الْمُلْكِ﴾ ثم ما أنعم عليه ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾. وذكرنا في تعليقنا على الآية الكريمة 6 في الفصل الثالث بأنَّ وجود كلمة ﴿مِنْ﴾ في عبارة ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ يجعل تقدير عبارة ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ هو «نصيب من تأويل الأحاديث»، حيث إن استخدام ﴿مِنْ﴾ هو للتحديد، أي للتأكيد على أنه بالرغم من أن يوسف امتلك علماً جماً من علم تأويل الأحاديث فإنه لم يمتلك كل ذلك العلم الهائل. فمن المُرجَّح بأن يكون استخدام كلمة ﴿مِنْ﴾ في عبارة ﴿مِن الْمُلْكِ﴾ له نفس الغرض أيضا، أي للتأكيد على محدودية ما مَلَكَ يوسف[1].

---

(1) لاحظ بأنَّه بالإضافة إلى استخدامها في سورة يوسف فإن كلمة ﴿مُلْك﴾ لا ترد في القرآن العظيم مسبوقة بكلمة ﴿مِن﴾ سوى في آية كريمة واحدة تتحدّث عن بني إسرائيل نوردها فيما يلي مع الآية التي تليها: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِن الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (53). أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (النساء: 54). والمُلك المقصود في الآية 53 هو أي نوع من «الأموال والممتلكات». وسبب قوله ﴿نَصِيبٌ مِن الْمُلْكِ﴾ بدل «المُلْك» هو للإشارة إلى محدودية ذلك المُلك وهو يذكر بخل بني إسرائيل إذ لا يعطون الناس شيئا مما أعطاهم الله، بينما تشير الآية الكريمة 54 إلى صفة سيئة أخرى من صفات أولئك القوم البخلاء وهو حسدهم للناس على ما قد آتاهم الله من فضله. لاحظ كيف قال الله في الآية الثانية ﴿مُلْكًا عَظِيمًا﴾ ولم يستخدم عبارة تحديد مثل «نصيب من الملك» لأن الهدف هو إبراز عظمة فضله على آل ابراهيم، مما يؤكّد بأنَّ المقصود من سبق كلمة ﴿الْمُلْكِ﴾ في الآية الأولى بعبارة ﴿نَصِيبٌ مِنْ﴾ هو التأكيد على محدوديّة ذلك المُلْك. أي كأن الآيتين الكريمتين تقارنان بخل بني =

وهنالك تفسيران ممكنان لشكر يوسف لربّه على ما آتاه ﴿مِن الْمُلْكِ﴾ وإشارة الآية الكريمة السابقة إلى رفعه لأبويه على ﴿الْعَرْشِ﴾. **الأول** هو أن يوسف كان لايزال في منصب العزيز وقت زيارة إخوته الأخيرة التي كشف لهم فيها عن هويته الحقيقية، حيث شاهدنا أنهم كانوا لايزالون ينادونه بذلك اللقب: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾، ولكنه أصبح ملكاً في الفترة التي تلت زيارتهم الأخيرة وقبل استقباله لأبويه في مصر عندما رفعهما على ﴿الْعَرْشِ﴾.

أما التفسير **الثاني**، وهو الذي نجده أكثر ترجيحا، فهو أن يوسف كان لايزال في منصب العزيز حين قابل أباه. إن استخدام يوسف للعبارة المتواضعة ﴿مِن الْمُلْكِ﴾ بدل «المُلْك» في وصف ما كان في يده من المُلْك يمكن أن يكون دليلا على هذا التفسير[1].

وفي هذه الحالة هنالك أيضا تأويلان محتملان لما تشير إليه كلمة ﴿الْعَرْشِ﴾. والتفسير الأول هو أن ﴿الْعَرْشِ﴾ المشار إليه في الآية الكريمة هو عرش العزيز الرفيع الشأن. إذ لا بد أن المنصب الذي جمع بين مسؤولية العزيز ومسؤولية المخازن كان رفيع المستوى جدا، بل من شبه المؤكد أنه كان الثاني بعد الملك نفسه. أما التأويل المحتمل الآخر فهو أن يوسف كان نائب الملك، وبالتالي فإنه كان ينوب عنه في مجلسه أثناء غيابه. ويفسّر هذا التأويل كيف أن يوسف لم يكن ملكا بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ولكنّه في نفس الوقت كان يجلس على عرش

=

إسرائيل مع محدودية ما ملكوا بجود الله المالك لكل شيء وتشير ضمنياً إلى أنه لو كان الملك والفضل بيد بني إسرائيل لما أعطوا الناس شيئا.

(1) من الممكن الإضافة إلى ذلك أن كلمة ﴿مُلْكِ﴾، وكما بينّا في تعليقنا على التعبير ﴿نَصِيبٌ مِن الْمُلْكِ﴾ في آية النساء/53، يمكن أن تشير إلى «الممتلكات والأموال» بشكل عام وليس بالضرورة إلى «مملكة». فيمكن القول بأنَّ يوسف كان في موقع جعله يمتلك الكثير، إلا أنه لم يكن ملكا.

الملك عندما قدم عليه أبواه لرؤيته. كما يُفسّر هذا التأويل بالذات اتّهامه لأخيه بسرقة صواع الملك، إذ كان من السهل عليه أن يرتّب ذلك الأمر إذا كان قد استقبل إخوته في مقام الملك[1].

وأكمل يوسف دعاءه مخاطبا الله تعالى بعبارة ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ومعنى ﴿فَاطِرَ﴾ هو «صانع الشيء بعد أن لم يكن موجودا». ثم يستطرد يوسف قائلا: ﴿أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، حيث إن «الولي» هو «الذي يقود ويسيّر وبيده أمور من يتولاه».

ظنّ معظم المفسّرين بأنَّ دعاء يوسف ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ هو طلب للموت من الله، حتى ذهبوا إلى القول بأنَّ يوسف كان أول من طلب الموت من الأنبياء، لكن هذا سوء فهم كامل للدعاء. إن قوله ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ هو دعاء لله بأن يبقيه على الإسلام حتى يتوفّاه، أي إن تقدير القول هو «حين تتوفني، توفّني مسلما». والإسلام

---

(1) من المهم أن نشير إلى تفسير خاطئ يمكن أن يجعل البعض يظن بأنَّ يوسف أصبح ملكاً. لاحظ بأنَّ الرجال الذين أرسلهم يوسف لجلب إخوته نسبوا الصواع إلى الملك: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾، إلا أنّ الله لم يقل «سقاية الملك» في كلامه عما فعله يوسف بالسقاية: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، ثم إن يوسف أشار إلى سقاية الملك بكلمة ﴿مَتَاعَنَا﴾ في خطابه لإخوته: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾. إلا أن هذا لا يعني بأنَّ يوسف كان هو الملك.

فاستخدام يوسف لعبارة ﴿مَتَاعَنَا﴾ يعود إلى أنه كان يتحدّث ويتصرّف نيابة عن الملك، فمن الطبيعي أن ينسب متاعاً للملك كالصواع إلى نفسه. ولنتذكّر أيضا ما ذكرناه من استقبال يوسف لإخوته في مقام الملك. أما الدليل القطعي على أن ما ورد في الآيات الكريمة أعلاه لا يعني بأنَّ يوسف كان ملكا هو أنه في نفس الموقف الذي أشار فيه يوسف إلى صواع الملك بكلمة ﴿مَتَاعَنَا﴾ كان إخوته يخاطبونه بلقب «العزيز» لا «الملك»: ﴿قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78). قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (79) ﴾، وقد بيّنا فيما تقدّم بأنَّ «العزيز» لا يمكن أن يكون «الملك».

هنا هو الإيمان الحقيقي وهو التسليم الكامل لله. وقد شاهدنا كيف كان يوسف مثالا حيّا للمسلم الكامل في تسليمه لأمر الله وصبره على كل ما كان مُقَدَّرا له.

ويرى المفسّرون بأنَّ المقصود بكلمة ﴿الصَّالِحِينَ﴾ في آخر دعاء يوسف ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ هم آباؤه، إبراهيم وإسحق ويعقوب على وجه التحديد. رغم أن هؤلاء الأنبياء الكِبار هم من الصالحين طبعا فإنه ليست هنالك أية إشارة في الدعاء إلى تخصيصه لهم دون غيرهم بهذه الكلمة. فمثلما قصد يوسف بكلمة ﴿مُسْلِمٍ﴾ في قوله ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ كل مسلم حقيقي، فإن قوله ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ هو إشارة إلى كل الصالحين دون تحديد.

ومن جمال دعاء يوسف تواضعه الجم وهو يطلب من الله أن يميته مسلما ويلحقه بالصالحين رغم أنه جعله نبيّا وأنعم عليه بالكثير من المعجزات وآتاه الملك وفضّل عليه الكثير من أفضاله. فلم تجعل هذه النِّعَم يوسف يغترّ بنفسه ويتصرّف وكأنه قد ضمن المستقبل.

وبكلمة ﴿الصَّالِحِينَ﴾ تنتهي آخر آية في قصة من أحسن القصص القرآنية، قصة أنبياء الله الصالحين يوسف وأبيه يعقوب وإخوته الأسباط عليهم جميعا السلام.

10

خاتمة سورة يوسف

انتهت تفاصيل قصة يوسف بنهاية الآية السابقة، وسندرس في هذا الفصل الآيات العشر الأخيرة التي يشير بعضها إلى ما مر في السورة من قصته.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102)﴾.

بعد أن أنهى رواية قصة يوسف أكّد الله بأنَّ التفاصيل التي أوحاها إلى نبيه الكريم مُحمَّد هي من أخبار الغيب. تعني كلمة ﴿الْغَيْبِ﴾ ما غاب ولا يمكن شهوده. فمثلا، أخبار يوم القيامة هي من أنباء الغيب التي ما كان يمكن لإنسان أن يعرفها لولا وحي الله. وقصة يوسف كانت بالنسبة للرسول مُحمَّد ﷺ من أنباء الغيب لأنّها من أخبار الماضي البعيد وبالتالي لا يمكن شهودها بشكل مباشر أو غير مباشر، وهو ما يبيّنه الله إذ يذكّر رسوله الكريم، من بعد أن أوحى إليه قصة يوسف، بأنّه ما كان ﴿لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾. إن المقصودين في هذه الآية هم إخوة يوسف، وحادثة المكر هي إجماعهم على إلقاء يوسف في غيابة الجب، فالفعل ﴿أَجْمَعُوا﴾ هو نفسه الذي ورد في الآية 15 التي تتحدَّث عن مكرهم: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. أما ذكر الله هنا لهذه الحادثة بالذات فيعود إلى كونها الحادثة التي قادت إلى ما وقع لاحقا في قصة يوسف، أي أنها كانت نقطة البداية في القصة.

وهذه واحدة من عدد من الآيات الكريمة التي تشير إلى أحداث تاريخيّة لم يعلمها الرسول الأعظم ولا قومه، وتخبره بأنّه عَلِمَ بها لأنّه أُختيرَ رسولا وأوتيَ القرآن. لقد قمت بالتطرّق إلى هذا الموضوع في الفصل الثاني في تفسيري للآية الكريمة 3: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

لاحظ بأنَّ الآيات الكريمة التي تروي قصة يوسف تقع بين الآية الكريمة 3 التي تنتهي بإشارة إلى حقيقة أن الرسول لم يكن يعرف تلك القصّة قبل أن تُوحى إليه، ﴿وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾، والآية الكريمة 102 التي تبتدأ بإشارة شبيهة: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾.

كما ردّ القرآن العظيم على العديد من الاتهامات التي وُجّهت إلى الرسول الأعظم محمد ﷺ بأنّه لم يتلقّى القرآن من الله، ومن ذلك ردّه على اتهام الكفّار للرسول بأنّه ألّف القرآن أو استنسخه من كتب أخرى، بالإشارة إلى حقيقة كانت معروفة للناس وهي أنّه كان أمّيا لا يقرأ أو يكتب: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (العَنْكَبُوت: 48).

أضِف إلى هذا أن علماء الدين من أهل الكتاب الذين كانت لديهم نسخ أصلية من توراة موسى وإنجيل عيسى كانوا يبالغون في إخفاء الكتابين عن عموم الناس وعن الذين لا يشاركونهم الدين، ولذلك فإن قصة مثل قصة النبي يوسف ما كانت معروفة لغيرهم:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأَنْعَام: 91).

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (آلَ عِمْرَان: 187).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِن الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاعِنُونَ﴾ (البَقَرَة: 159).

أما ادّعاء الكافرين بأنَّ أحد أهل الكتاب قد علّم الرسول القرآن فدحضه الله بالإشارة إلى أن المعلِّم المزعوم لم يكن عربي اللسان، فلا يمكن أن يكون قد ألّف القرآن ذا اللغة العربية السليمة الخلابة: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل: 103).

وهنالك العديد من الآيات الكريمة التي يؤكّد فيها الله أنه هو مُنزِّل القرآن العظيم ومصدر العلم الذي وصل إلى الرسول الأعظم من خلال ذلك الكتاب كقوله: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النِّسَاء: 113).

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103)﴾.

إن «الحرص» هو «طلب الشيء بشدة»، ويشير هنا إلى عِظَم الجهد الذي كان يبذله الرسول في إرشاد الناس إلى الصراط المستقيم. ويذكّر الله رسوله الكريم بأنَّ أكثر الناس ما كانوا ليؤمنوا مهما بذل من جهد في دعوتهم إلى الدين. وتكرار هذه التذكرة عدة مرات في سور القرآن العظيم يشير إلى المشقة التي كان يواجهها الرسول في دعوة الناس، وهي تذكرة للرسول بأن لا يحزن على رفضهم لدعوته، وبأنّه ليس بملوم على ذلك، وبأنَّ حاله مع الناس هو نفس حال من سبقه من الرسل مع أقوامهم. وفيما يلي بعض الآيات الكريمة التي تتحدّث عن نفس الموضوع:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام: 33).

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: 3).

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (فاطر: 25).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الزمر: 41).

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ (الذاريات: 54).

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: 21، 22).

وهنالك سبب خاص في تذكير الله لرسوله الكريم في هذا الموضع بالذات بأنَّ أكثر الناس ما كانوا ليؤمنوا مهما بذل من جهد في دعوتهم. إذ أشار في الآية السابقة إلى أحد أوجه إعجاز قصة يوسف في القرآن العظيم وهو كونها من أخبار الغيب التي ما كان يمكن أن تصل إلى الرسول إلا عن طريق الله. أي أن في هذه القصة برهان لكل ذي عقل سليم على إلهية مصدر القرآن العظيم. ولكي لا يحزن الرسول ويلوم نفسه إذا لم يؤمن معظم من يسمع قصة يوسف، وباقي سور القرآن بشكل عام، أراد الله تذكرة نبيه الكريم بأنَّ المعجزات مهما عَظُمَت، بما في ذلك القرآن العظيم الذي هو أعظم معجزة، ما كانت لتجبر الناس على الإسلام وأنه يجب أن لا يلوم نفسه على رفض الناس لرسالته. وأشار الله إلى هذه الحقيقة بشكل أكثر صراحة في مواضع أخرى من كتابه العزيز، كما في الآيات الكريمة التالية، على سبيل المثال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (11) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ (الحجر: 10 – 15).

ويشير الضمير المتّصل «هاء» في كلمة ﴿نَسْلُكُهُ﴾ في الآية 12 وفي كلمة ﴿بِهِ﴾ في الآية 13 إلى القرآن العظيم، حيث يبيّن بأنَّ كفر الناس بالقرآن العظيم هو كدأب من سبقهم من الناس في تكذيب رسله إليهم. ثم يؤكّد بأنّه لو جاء الناس بمعجزة كبرى أخرى، كشق طريق في السماء يتنقّلون فيه، فإن تلك المعجزة أيضا ما كانت ستجعل من أصرَّ قلبه على الكفر يتحوّل إلى الإيمان. كذلك قوله الكريم ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

(الأنعام: 7) يعني بأنَّه حتى لو أنزل الله القرآن في قرطاس، أي في صُحُف، من السماء فلمسه الكافرون بأيديهم فإنهم ما كانوا سيؤمنوا به.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (104)﴾.

بعد أن أكّد الله في الآية الكريمة السابقة بأنَّ أكثر الناس لن يؤمنوا بالقرآن العظيم بالرغم من أنه جعله كتابا إعجازيا، فإنّه يكمل في هذه الآية انتقاده للكافرين بكتابه العزيز بالتأكيد على أن الرسول لا يطلب من الناس أجرا لله أو لنفسه على إيصال القرآن لهم. فلم يكن النبي سوى رسول بعثه الله لإيصال القرآن إلى العالمين وليطلعهم على العلم الذي أنعم به الله عليه عسى أن يقتربوا من الله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 151). أي وفّر الله للناس اسباب الإيمان بينما لا توجد هنالك أسباب للكفر به، إلا أن أكثر الناس مع ذلك يرفضون دعوة الله. ويذكر الله على وجه التحديد أن الرسول لا يطلب على إيصاله للقرآن أجرا من الناس كي يتثاقلوا في الاستجابة له، وهو أمر يذكره في غير موضع في كتابه كقوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ (الطور: 40).

لاحظ وصف الله للقرآن العظيم بأنّه ﴿ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾. فالقرآن ﴿ذِكْرٌ﴾ لأنّه يذكّر الناس بالله وبيوم الحساب وبما يريده الله منهم. أما كلمة «العالمين» التي تشمل جميع الناس من الإنس والجن، فتبيّن بأنَّ القرآن هو رسالة شاملة أرسلها الله إلى جميع خلقه. ولما كان القرآن العظيم هو ﴿ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ فمن الطبيعي أن يكون نبي القرآن رسولا للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: 107).

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (105)﴾.

إن معنى كلمة ﴿كَأَيِّنْ﴾ هو «كم من»، وتُستخدَم للإشارة إلى عدد كبير. يشخّص الله هنا أساس مشكلة الناس، وهي عدم اهتمامهم بالدين. إذ يؤكّد بأنَّ الناس يرون

آياته التي لا حصر لها، الدالّة عليه والمُذكِّرة به في كل مكان، في السماء والأرض، إلا أنهم يعرضون عنها بدل أن ينكبّوا على دراستها والتفكّر بها. والآيات المقصودة هي كل خلقه في السماء والأرض، كالشمس والقمر والنجوم والبشر والحيوانات والنباتات، التي يشير إليها في مواضع عديدة في كتابه العزيز. كما تشمل آياته في الأرض آثار الأقوام السابقين الذين دمّرهم بكفرهم.

ويلاحِظ الطباطبائي بأنَّ استخدام الفعل ﴿يَمُرُّونَ﴾ يفيد معنى الانتقال من آية إلى أخرى، أي في كل مكان يكون المرء هنالك آيات الله في السماء والأرض. كما أن له ملاحظة أخرى يجدر ذكرها. من الواضح أن انتقال الإنسان في الأرض هو بمثابة مرور على آياتها، ولكن كيف يكون ذلك مرورا على آيات السماوات؟ يرى الطباطبائي بأنّه يمكن أن تكون في هذه الآية إشارة خفيّة إلى حركة الأرض حول الشمس التي تعني بأنَّ الإنسان يمر على آيات السموات بشكل غير مباشر من خلال حركة الأرض التي تؤدي إلى رؤية الإنسان لمناظر مختلفة من السماء. فوفقا لهذا التفسير يكون معنى المرور على آيات الأرض هو انتقال الإنسان من مكان إلى آخر على الأرض، بينما يكون معنى المرور على آيات السماوات هو انتقال الأرض، وبالتالي الإنسان المقيم عليها، من موقع إلى آخر حول الشمس. ويمكن إضافة حركة الأرض حول محورها أيضا إلى هذا التفسير.

ويفترض تفسير الطباطبائي بأنَّ هذه الآية الكريمة تخاطب الإنس فقط على هذه الأرض. وهذا الافتراض منطقي إذا كان الضمير الذي تقديره «هم» في الآيتين السابقتين يشير إلى الإنس فقط. ولكن يجب أن نتذكّر أيضا أن كثير من الخطاب القرآني مُوجَّه إلى الإنس والجن معا. إذ لاحظ كيف وصف الله القرآن الكريم بأنّه ﴿ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ورسوله الكريم بأنّه ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، حيث تشمل كلمة «العالمين» الإنس والجن. فمثلا يشمل تعبير ﴿أُولِي الأَلْبَابِ﴾ في قوله ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: 190) كل ذي عقل من الجن والإنس.

كما أن هنالك آيات كريمة تشير صراحة إلى أن القرآن الكريم هو كتاب مُنزَّل

إلى الجن مثلما هو مُنزَّل إلى الإنس[1].

فإذا كان انتهاء الآية السابقة بكلمة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ هو تعميم للخطاب ليشمل الإنس والجن فإن هذا يعني بأنَّ الآية الكريمة ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أيضا تتحدث عن الإنس والجن، وبالتالي فإن آيات السماوات تشمل ما تصله عين الإنسان وما لا تصله سوى عيون الجن. كما يمكن أن يكون استخدام الآية الكريمة لكلمة ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ بدل «السماء» هو الآخر إشارة إلى أن الآيات المقصودة لا تقتصر على الآيات السماوية التي يراها الإنسان من على سطح الأرض.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106)﴾.

تشير هذه الآية إلى أن أكثر الذين يؤمنون بالله يخلطون إيمانهم بشرك به. فتشمل هذه الآية كل من يؤمن بالله ولكن يتّخذ بجانبه آلهة أخرى، كمن يتّخذ أصناما آلهة بجانب الله، كما كان يفعل عرب الجزيرة العربية قبل الإسلام، أو كمن ينسب له ولد. ويرد الله على كل هذه الادعاءات غير الصحيحة في العديد من الآيات الكريمة في القرآن العظيم، كقوله الكريم:

---

(1) هذه بعض من تلك الآيات الكريمة:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29). قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30). يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31). وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الأحقاف: 29 – 32).

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1). يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2). وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (3). وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4). وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5). وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6). وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ (الجن: 1 – 7).

﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُون (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّا تُسْحَرُونَ (89) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: 84 - 91).

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (107)﴾.

يكمل الله استنكاره لسلوك الكافرين، منتقداً شعورهم بالأمن من أن يغشاهم، أي يغطّيهم تماما، عذاب من الله، أو من أن تأتيهم ساعة القيامة فجأة وهم غافلين عن دنوّها. إن مثل هذا الأمان زائف لأنه ليس للإنسان أن يأمن من عذاب الله إذا لم يعطه ربّه ذلك الأمان: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف: 97 - 99)، ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل: 44 - 47). كما أنه ليس للإنسان أن يأمن قيام الساعة فجأة لأن الله لم يعدنا بأن يخبرنا قبل وقوعها، بل إنه بيّن بصريح القول بأنّها تأتي بغتة:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: 187).

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (الحج: 55).

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (الأحزاب: 63).

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (الشورى: 17).

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108)﴾.

هنا يأمر الله رسوله الكريم بأن يعلن للناس بأنَّ طريق القرآن العظيم هو طريقه. ثم يأمره بأن يضيف مفصّلا بأنَّ نهجه هو: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾، والدعوة إلى الله والإسلام له هي خير القول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فُصِّلَت: 33). أما قوله ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ فهو إشارة إلى أن دعوة الرسول ومن تبعه إلى الله مبنيّة على بيّنة منه وليست من هوى الأنفس.

كما يأمر الله النبي بقول ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ الذي ينزه الله عن أن يكون له شبيه أو شريك، وأن يعلن بأنَّه ليس من المشركين وإنما موحّد في عبادة إله واحد هو الله.

وتلخّص هذه الآية الكريمة دعوة كل نبي ورسول بعثه الله.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (109)﴾.

يؤكّد الله من خلال مخاطبته للرسول بأنَّ كل الذين أَرسَلَ قبله، كالنبي يوسف، كانوا رجالا من أهل القرى أوحى إليهم بالرسالة. وسبب عدم توقّفه عند قول ﴿رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ وزيادة وصفه للرسل بأنَّهم ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ هو للتأكيد بأنَّهم كانوا رجالا من الإنس معروفين لقومهم، تمييزا لهم عن رجال الجن، والذين ورد ذكرهم في الكتاب العزيز في قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (الجن: 6). فتؤكّد الآية بأنَّ إرساله للنبي مُحمَّد، الذي هو رجل من أهل إحدى القرى، لم يكن بدعة لا سابق لها: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ

الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الأحقاف: 9). وفيما يلي بعض الآيات الكريمة الأخرى التي تؤكّد بشريّة كل رسل الله إلى الناس وأنّهم كانوا رجالا من أهل القرى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (الأنبياء: 7، 8).

﴿وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (الفرقان: 20).

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام: 91).

وهذا يرد على قول المشركين الذين كانوا يشكّكون، بغير علم ولا حجة، في إرسال الله بشرا من الإنس:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً﴾ (الإسراء: 94).

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (10) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (إبراهيم: 10، 11).

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ (الأنعام: 8).

ومن المهم إدراك أن الآيات أعلاه تتحدّث خصوصاً عن رسل الله «إلى عموم الناس» لغرض «التبشير والإنذار بيوم الحساب». إذ إن لله رسلا من غير البشر يرسلهم إلى «أفراد معيّنين» في «مهمّات خاصة محدودة»، وكما في قوله عن

الملائكة مثلا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فاطر: 1). ومن الرسائل التي تأتي بها الملائكة والمهمّات التي تُكلَّف بها هي تبليغ الصالحين بما يشاء الله، كما في تبشير الذين يُسلِمون لله ويستقيمون بالجنة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ (فُصِّلَت: 30، 31)، وتبليغ زكريا بولادة يحيى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران: 38، 39). ومن الأمثلة على المهمّات الخاصّة التي يرسل بها الله ملائكته هي الانتقام من قوم ظالمين، كما في تدميرهم لقوم نبيّه لوط:

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (62) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (64) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (68) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (69) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (70) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (71) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ (الحجر: 61 – 74).

وطبعا هنالك أيضا رسل بمهمّات خاصة أخرى مثل روح القُدُس جبريل الذي أوصل رسالة الله إلى سيدنا مُحمّد ﷺ المُرسَل لهداية الإنس والجن: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: 97)، والذي أيّدَ به الله نبيّه عيسى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا

جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة: 87).

إذا فلله رسل من غير البشر يرسلهم إلى الخصوص من عباده لا عمومهم لتبليغهم بأمر ما أو لتنفيذ مهمة محدودة. أما رسله الذين أرسلهم إلى عموم الناس مبشّرين ومنذرين بيوم الحساب، كالذين تشير إليهم آية سورة يوسف أعلاه، فقد كانوا كلّهم من البشر.

ولنعد الآن إلى الآية الكريمة مدار البحث وإلى قوله الكريم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. وهذا أيضا خطاب لوم غير مباشر إلى المشركين والكافرين يستنكر إشراكهم وكفرهم رغم أنّهم شاهدوا آثار عقاب الله لمن أشرك وكفر من قبلهم من الأقوام وسمعوا أخبارهم.

ويؤكّد قول ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ بشكل ضمني بأنَّ للمتّقين حسنة في هذه الدنيا وبشكل صريح بأنَّ أجرهم في الآخرة أكبر، مُشجّعا الناس على طلب التقوى. ثم ينهي الله الآية الكريمة بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، مبيّنا بأنَّ كلماته وباقي آياته هي آيات لكل أولي عقل وأن من لا يؤمن بها هو كمن لا عقل له.

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110)﴾.

اختلف المفسّرون بشأن تفسير هذه الآية الكريمة بين من يأخذ بظاهر الكلام وبين من يأخذ بتفاسير بديلة لمعناها الظاهري. وسبب بحث معظم المفسّرين عن بدائل لمعنى الآية الظاهري هو أنهم يرون فيه انتقاصا من رسل الله وتناقضا مع مفهوم عصمة الأنبياء كما يفهموه. ولنبدأ دراستنا لهذه الآية الكريمة ببحث معناها الظاهري.

إن الجزء مدار الخلاف هو قوله العزيز: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾. فظاهر معنى القول هو أن شدة الظروف التي تمر على الرسل تصل أحيانا حدّا يجعلهم يمرّون بفترات يأس وظنّ بأنَّ الله لم يصدقهم وعده لهم بالنصر.

وأورد الطبري وابن كثير رأيا لابن عباس يأخذ فيه بهذا التفسير. كما نسب العيّاشي والقمّي إلى الإمام الحسين بن علي عليهما السلام حديثا يتّفق مع هذا التفسير معناه بأنَّ ضَعْف الرسل هذا يحدث في لحظات معينة حين يوكلهم الله إلى أنفسهم. أما القرطبي فنسب إلى القشيري أبو نصر قوله بأنّه إن كان هذا هو التفسير الصحيح للآية الكريمة فإن المقصود هو أنه «خطر بقلوب الرسل هذا من غير أن يتحقّقوه في نفوسهم»، ويشير إلى حديث منسوب إلى الرسول نصّه: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدّثت به أنفسها ما لم ينطق به لسان أو تعمل به».

كما أورد القرطبي عن الثعلبي والنحاس عن ابن عباس أنه قال في تفسيره لموقف الرسل: «كانوا بشرا فضعفوا من طول البلاء، ونسوا وظنوا أنهم أُخلفوا»، وأنه تلا: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ (البقرة: 214). إلا أنّ الحالة التي تصفها هذه الآية تختلف عن الحالة في آية سورة يوسف، إذ إن آية سورة البقرة لا تشير «بالضرورة» إلى يأس الرسول والذين معه وظنّهم بأنَّ الله قد كذبهم وعده وإنما يمكن أن تُفهَم على أنّها تشير فقط إلى «نفاذ صبرهم» بسبب تأخر النصر وإلى استعجالهم به: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: 214). فقد يكون قول الرسل ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ تعبيرا عن «يأس» من مجيء ذلك النصر، إلا أنّه يمكن أيضا أن يعكس بدل ذلك «نفاذ الصبر» على تأخر مجيء النصر الإلهي.

ونقل القرطبي عن الترمذي الحكيم قوله بأنَّ الرسل ظنّوا بأنَّ النفوس، أي نفوسهم، يمكن أن تكون قد أحدثت ما ينقض عهد الله إليهم وبالتالي فحين طال عليهم انتظار نصر الله دخلهم اليأس والظن. إلا أن كلمة ﴿كُذِبُوا﴾ تجعل هذا التفسير صعب القبول لأنه لو كان الرسل قد ظنّوا بأنَّ نفوسهم هي السبب في عدم مجيء نصر الله لما وصفوا ذلك «كذبا» بالوعد.

ولننظر الآن إلى التفاسير البديلة للآية الكريمة، وأولها هو التفسير المنسوب إلى السيدة عائشة بقراءة ﴿كُذِبُوا﴾ بتشديد الذال، أي «كُذِّبوا»، وهي قراءة تختلف عما

في المصحف وعما هو منسوب إلى ابن عباس وابن مسعود اللذَين يقرآنها مخفّفة، كما يشير ابن كثير. إن قراءة هذه الكلمة بالتشديد يغيّر المعنى بشكل تام حيث يُصبح الرُّسُل «مُكذَّبين» لا «مُشكَّكين»، ويصبح المعنى هو أنّ الرسل يئسوا من إيمان قومهم ذلك لأنّهم كَذّبوهم، لا أنّ الرسل شكّوا في تنفيذ الله لوعده لهم.

إلا أن أحد الانتقادات التي تم توجيهها إلى هذا التفسير هو تعارضه مع وجود كلمة ﴿ظَنُّوا﴾. إذ لا بد أن يكون الرسل قد عرفوا ما إذا كانوا قد كُذِّبوا أم لا من قبل قومهم، لأن ذلك أمر واضح ليس بالصعب تقريره، وبالتالي فإن مثل هذه المعرفة يقينية لا يمكن استخدام الفعل «ظنّ» لوصفها. كما أن اليأس، وفقا لهذا التفسير، نشأ أساسا بسبب تكذيب الناس للرسل، فكيف يمكن أن يصل بهم الأمر إلى اليأس بينما هم غير متأكّدين من تكذيب الناس لهم؟ ويمكن الرد على هذا الاعتراض بأنَّ الفعل «ظنّ» يمكن أن يأتي بمعنى «يعرف يقينا»، كما بيّنّا في تفسيرنا للآية الكريمة 42. لكن ورود ذكر اليأس في الآية الكريمة متقدّما على الظن يبيّن بأنَّ من الخطأ القول بأنَّ الظن كان هو سبب اليأس، بغض النظر عن المقصود بهذا الظن واليأس، إذ من الواضح أن اليأس هو سبب الظن.

هنالك عدد كبير من المفسِّرين الذين يقرأون كلمة ﴿كُذِبُوا﴾ مخفّفة ولكن يتّفقون في نفس الوقت مع التفسير القائل بأن يأس الرسل كان من إيمان قومهم برسالاتهم لا من وعد الله لهم بالنصر. ومن هذا الصنف من الآراء هو القول بأنَّ الفعل ﴿ظَنُّوا﴾ منسوب إلى قوم الرسل لا إلى الرسل فيكون المقصود هو أن قوم أولئك الرسل، لا الرسل أنفسهم، هم الذين ظنّوا بأنَّ الله قد كذب الرسل ما وعدهم به. وهذا رأي ينقله الطبري والطوسي والجلالين والحويزي وكثير من المفسِّرين.

هذه هي الآراء الأكثر شيوعا التي تخالف المعنى الظاهري للآية الكريمة وتهدف إلى تفسيرها بحيث لا تعني بأنَّ الرسل يئسوا من رحمة الله وظنّوا بأنّه كذبهم وعده لهم بالنصر، وهنالك آراء أخرى من نفس النوع أقل تداولا بين المفسّرين.

من الجلي أن مثل هذه التفاسير مقسورة قسرا على نص الآية الكريمة ومدفوعة

بهدف إنكار التفسير الذي يوحيه ظاهر النص لاعتقاد المفسّرين بأنَّ هذا التفسير ينال من مكانة الرسل.

ومن الواضح أن الفعلين ﴿اسْتَيْئَسَ﴾ و﴿ظَنُّوا﴾ المربوطين بحرف العطف ﴿وَ﴾ يشيران إلى فاعل واحد. ولما كانت كلمة ﴿الرُّسُلُ﴾ هي بلا شك فاعل الفعل ﴿اسْتَيْئَسَ﴾، فإنها يجب أن تكون أيضا الكلمة التي يشير إليها الضمير المُستَتر الذي تقديره «هم» في ﴿ظَنُّوا﴾. بالإضافة إلى هذا فإنه لما كان الفعلان ﴿اسْتَيْئَسَ﴾ و﴿جَاءَهُمْ﴾ يشيران صراحة إلى ﴿الرُّسُلُ﴾ فإن من غير الممكن أن يشير الفعل ﴿ظَنُّوا﴾ الذي يقع بين أولئك الفعلين إلى أحد آخر غير ﴿الرُّسُلُ﴾. وكما سنرى فإن الضمير المُتّصل «هم» في كلمة ﴿قَصَصِهِمْ﴾ في آية 111 هو الآخر يعود على ﴿الرُّسُلُ﴾ مما لا يترك شكًا بأنَّ الفاعل في الآية 110 هو فاعل واحد وهو ﴿الرُّسُلُ﴾. إذ يعود الفعل ﴿كُذِبُوا﴾ على ﴿الرُّسُلُ﴾، والمقصود هو ظن الرُّسُل العابر بأنَّ الله لم يوفِ وعده لهم بالنصر.

وَرَدَ الفعل ﴿اسْتَيْئَسَ﴾ في القرآن العظيم في موضع واحد آخر وهو قوله الكريم ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ الذي يصف فشل ويأس إخوة يوسف في إقناع يوسف بأن يترك أخاهم يعود معهم. لاحظ أن هذه الآية الكريمة تذكر صراحة ما استيأس منه إخوة يوسف، وهو يوسف المُشار إليه بالضمير المتّصل في كلمة ﴿مِنْهُ﴾، لذلك فمن المنطقي أن نتوقّع بأن يكون ما استيأس منه الرسل مذكور صراحة في هذه الآية الكريمة، وفي هذه الحالة فإنه يجب أن يكون «نصر الله».

إن الموقف الذي تصفه الآية الكريمة مدار البحث لا يقلّل بأي شكل من الأشكال من مكانة رسل الله المذكورين. إذ تصف هذه الآية الكريمة لحظات معيّنة مر بها أولئك الرسل ولا تعني بأنّهم كانوا على ذلك الحال لفترات طويلة. فالنقطة الأساسية التي تنقلها لنا الآية الكريمة هي مقدار الشدة التي تعرّض لها الرسل، وليس المقصود بها التنكيل بهم أو التقليل من مكانتهم.

ويجب أن لا ننسى هنا أمرا غاية في الأهمية، وهو أن الذي دفع رسل الله إلى لحظات اليأس تلك هي صعوبات تعرّضوا لها أثناء قيامهم بواجبهم في تبليغ رسالة

الله. أي من الحتمي أن مواقف اليأس تلك كانت مواقف قصيرة وعابرة بدليل فشلها في أن تُضعِف تمسّك رسل الله برسالاتهم أو تجعلهم يهِنوا في التبليغ بالرسالة. ومما يدلّل على أن موقف الضعف ذلك كان عابرا هو إكرام الله لرسله ودعمه لهم بالنصر.

كما أشار بعض المفسّرين إلى الآية التالية التي تتحدّث هي الأخرى عن انتظار الرسل ومن معهم لنصر الله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: 214). إذ إن قولهم ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ يبيّن تفاقم الشدة ويصف موقفا نفذ فيه صبر المنتظرين لنصر الله. إلا أن هذه الآية الكريمة أيضا لا تنتقص من مكانة أولئك الرسل وإنما على العكس تماما، إذ إنها تبيّن أن عظم الشدة التي مروا بها لم يجعلهم يتخلّوا عن واجبهم في تبليغ الرسالة. أي تعلمنا يوسف/110 والبقرة/214 بأنّنا يجب أن نتعلّم الصبر على أية شدّة نمر بها بتذكيرنا بأنَّ الشدّة هي مما كتبه الله حتى على أقرب عباده إليه، وأن ما كتب على عباده المُكرَمين أولئك بلغ حدّا جعلهم أحيانا ييأسون من تحقّق وعده لهم ويفقدون الصبر على مجيء نصره إليهم.

إن كشف الله لعيوب خفيّة في زوايا النفس هو تجربة روحية عظيمة تقود الصالح من عباده إلى إيمان أقوى وأعمق وحالة روحية أرفع. إذ يستخدم الله البلاء والنعمة في التمييز بين الصالح والطالح من عباده وإيصال كل منهم إلى حقيقة ونهاية حاله. فصبر الصالح على البلاء وشكره على النعمة يقوياه روحيّا ويقرّبانه من ربّه حتى يصل إلى مقام القرب المكتوب له، بينما ينهك الجزع على البلاء والكفر للنعمة العبد الظالم روحيا ويبعداه عن الله حتى ينتهيا به إلى مكانه في جهنّم[1].

---

(1) من الملاحظ استخدام آيتي سورة يوسف للفعل «استيئس» بدل «يئِس». إن الفعل «يئِس» مُستَخدَم في مواضع أخرى من الكتاب العزيز.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)﴾.

مثلما بدأ الله السورة بذكر القصص القرآنية في قوله ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ فإنه يختمها أيضا بذكر تلك الروايات الحق.

وتشير كلمة ﴿قَصَصِهِمْ﴾ هنا إلى الرسل الذين ذكرهم الله في الآيتين 109-110 الذين تتحدّث معظم آيات السورة عن قصص بعضهم، وهم يعقوب ويوسف وباقي إخوته الأسباط. ويبيّن الله بأنَّ في قصص الرسل مواعِظ ودروس لمن كان من أولي الألباب، أي من أصحاب العقول. أما قوله ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ فهو تأكيد على أن القرآن لا يمكن أن يكون نصّا موضوعا من قبل مخلوق ما، لأن في النص القرآني إعجاز وعلم لا يمكن أن يكون قد جاء به أحد سوى الله.

ويذكر الله ثلاثة أهداف لإنزاله القرآن العظيم، **أوّلها** هو أن يكون: ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي لتصديق الكتب التي أنزلها الله من قبل، كالتوراة والإنجيل. وهكذا يمثِّلَ القرآن دليلا آخر للكافرين بكتب الله السابقة على إلهية مصدر تلك الكتب، كما أنه يمثّل دليلا لأهل الكتاب على أن مصدر القرآن الكريم هو نفس المصدر الإلهي للكتب التي كانت بحوزتهم التي كانوا يؤمنون بها، ولذلك فإنهم يجب أن يؤمنوا بالقرآن. **وثاني** هدف هو أن يوضّح للناس أمور الدين والدنيا والآخرة: ﴿تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾. اما الهدف **الثالث** فهو أن يكون ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي أن يهدي بالقرآن ويرحم من يؤمن به.

وبهذه الآية الكريمة تنتهي سورة يوسف التي تحتوي إحدى ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، قصة نبي الله يوسف.

11

مكان وعصر يوسف

شاهدنا كيف يذكر القرآن العظيم صراحة بأنَّ يوسف عاش في مصر، وسنحاول في هذا الفصل دراسة إمكانية تحديد المنطقة التي سكنها يوسف والحقبة التاريخية التي عاش فيها.

11 ـ 1 نظريّة إقامة يوسف بين الهكسوس في الدلتا الشرقيّة

لم تفلح حملات التنقيب الآثاري لحد الآن في الكشف عن أي نص قديم أو مصنوعة artifact آثارية من مصر القديمة تشير صراحة إلى أنبياء الله يعقوب أو يوسف أو موسى. ويُعزى ذلك إلى عدد من الأسباب، أهمّها هو محدوديّة ما قد تم اكتشافه من آثار مقارنة بما كان موجودا وهو اليوم مندثر بشكل تام. إلا أن عددا من الباحثين الغربيّين، من مؤرّخين وعلماء آثار واخصائيي العهد القديم، يرون بأنَّ هناك أدلة ظرفية تشير إلى أن دخول يوسف إلى مصر حصل أثناء حكم الهكسوس وأنه استقر في منطقة الدلتا الشرقية في شمال مصر التي كانت تحت حكم هؤلاء الساميين الذين حكموا في الفترة (1663–1555 ق.م). وتأتي هذه الأدلّة الظرفية من إمكانية الربط بين عدد من الإشارات التأريخية في العهد القديم وبعض المعلومات التأريخية والآثارية المستقلّة. وسندرس في هذا القسم أهم اسباب ربط الباحثين عصر ومكان عيش يوسف في مصر بمكان وعصر حكم الهكسوس، ثم نبحث في القسم القادم ما يمكن استنتاجه من القرآن الكريم حول هذه النظريّة.

استخدم المصريون القدماء أوراق نبات البردي للكتابة. وتبيّن برديّات مصريّة تم العثور عليها بأنّه كثيرا ما كان يُسمَح لرعاة من الأقوام الساميّة بالدخول إلى الدلتا

الشرقية خلال فترات المجاعات. فمثلا تتضمّن البرديّة المعروفة ببرديّة «أناستاسي السادسة»[1]، التي يُعتَقَد أن مصدرها مدينة ممفيس في شمال مصر، تقريرا لمسؤول مصري على الحدود الشرقية لمصر عن دخول بدو آسيويين من منطقة إيدوم إلى دلتا النيل هاربين من الجفاف وباحثين عن مراعي، وذلك خلال حكم الفرعون مرنبتاح حوالي نهاية القرن الثالث عشر ق.م. وربط الباحثون بين دخول الرعاة الساميين إلى الدلتا الشرقية وقت المجاعات وبين ذكر العهد القديم إرسال يعقوب لأبنائه إلى مصر لشراء الحبوب بسبب المجاعة التي ضربت أرض كنعان. ولما عاش يوسف في المنطقة التي قصدها إخوته طلبا للمُؤَن فقد استنتج الباحثون من هذا الربط بأنّه سكن في منطقة الدلتا الشرقية في شمال مصر.

كما يذكر العهد القديم ما يلي عن أبناء يعقوب وأحفاده من الأجيال التي عاشت في عصر موسى الذي عاش بعد يوسف بحوالي أربعة قرون[2]:

1 هَذِهِ هِيَ أسْماءُ أبْناءِ إسْرائِيلَ الَّذِينَ ذَهَبُوا إلَى مِصرَ مَعَ يَعقُوبَ وَمَعَ عائِلاتِهِمْ:
2 رَأُوبَيْنُ وَشِمْعُونُ وَلاوِي وَيَهُوذا 3 وَيَسّاكَرُ وَزَبُولُونُ وَبَنْيامِيْنُ 4 وَدانٌ وَنَفتالِي
وَجادٌ وَأشِيرُ. 5 وَكانَ مَجمُوعُ أفْرادِ نَسلِ يَعقُوبَ سَبعِينَ. وَعاشَ يُوسُفُ فِي مِصرَ.
6 وَماتَ يُوسُفُ وَإخوَتُهُ وَكُلُّ ذَلِكَ الجِيلِ. 7 وَأمّا بَنُو إسْرائِيلَ فَقَدْ أثْمَرُوا وَازدادَ
عَدَدُهُمْ. فَكَثُرُوا جِدّاً وَصارُوا أقْوِياءَ حَتَّى إنَّ الأرْضَ امْتَلأتْ مِنْهُمْ.

8 وَوَصَلَ مَلِكٌ جَدِيدٌ إلَى السُّلطَةِ فِي مِصرَ. وَلَمْ يَكُنْ هَذا المَلِكُ قَدْ عَرَفَ
يُوسُفَ. 9 فَقالَ مَلِكُ مِصرَ لِشَعبِهِ: «بَنُو إسْرائِيلَ أكثَرُ عَدَداً وَقُوَّةً مِنّا. 10 فَلْنَضَعْ
خُطَّةً لِمَنعِهِمْ مِنَ التَّزايُدِ فِي العَدَدِ وَالقُوَّةِ. فَإنْ لَمْ نَفعَلْ ذَلِكَ، سَيَنْضَمُّونَ إلَى أعدائِنا
وَيُحارِبُونَنا، ثُمَّ يَهرُبُونَ مِنَ الأرْضِ». 11 فَعَيَّنَ المِصرِيُّونَ مُشْرِفِينَ لِيُضَيِّقُوا عَلَيهِمْ

---

(1) جاءت تسمية هذه البرديّات من اسم القنصل السويدي في مصر «سنيور أناستاسي» Signor Anastasi الذي اشترى منه المتحف البريطاني هذه البرديّات في عام 1839.

(2) إن ترجمة العهد القديم التي اعتمدناها في هذا الكتاب اسمها Arabic Bible: Easy-to-read Version التي قام بها World Bible Translation Center, Inc.

بِأعْمـالٍ شـاقَّةٍ. وَبَنَى بَنُو إسْرائِيلَ مَدينَتَيْ مَخازِنَ لِفِرْعَوْنَ هُما فِيثُومُ وَرَعَمْسِيسُ. 12 وَبِالرُّغْمِ مِنْ مُضايَقَةِ المِصرِيّينَ لَهُمْ كانُوا يَتَكاثَرُونَ وَيَزدادُونَ. فَصارَ المِصريُّونَ يَخافُونَ بَني إسْرائِيلَ. 13 وَاستَعبَدُوا بَنِي إسْرائِيلَ وَأجبَرُوهُمْ عَلَى القِيامِ بِأعمالٍ شاقَّةٍ.14 وَجَعَلَ المِصريُّونَ حَياةَ بَنِي إسْرائِيلَ مُرَّةً. أجبَرُوهُمْ عَلَى العَمَلِ فِي الطِّينِ وَالطُّوبِ وَكُلِّ أعمالِ الحُقُولِ. وَقَدْ قَسَوْا عَلَيهِمْ فِي جَميعِ الأعمالِ الَّتِي أجبَرُوهُمْ عَلَيها. (الخروج: 1-14)

يعتقد الباحثون بأنَّ من الممكن أن يكون موقع مدينة «فِيثُومُ» هو ما يُسمّى حاليا بـ «تل المسخوطة» أو «تل الرتابة» القريب منها. أما مدينة «رَعَمْسِيسُ»، والتي تعرف أيضا باسم «باي-رمسيس»، فإن موقعها الحالي هو «تل الضبعة» في أفاريس في الدلتا الشرقية قرب «القناطر» الحديثة. وهنالك عدد من النصوص المصريّة القديمة التي تصف باي-رمسيس بأنَّها مخزن للمواد الغذائية[1]. فإذا كان بنو اسرائيل، الذين هم أحفاد يعقوب، في مصر في وقت موسى يعيشون في منطقة الدلتا فإن من المرجّح أن يعقوب وأولاده أيضا سكنوا في الدلتا.

أما دخول يوسف إلى مصر، فيرى الباحثون بأنّه يعود إلى الفترة التي كانت فيها الدلتا الشرقية تحت حكم الهكسوس الذين استلموا الحكم بعد السلالة الفرعونية

---

(1) فمثلا تمجّد أغنية مصرية مدينة باي-رمسيس واصفة إيّاها بأنّها «مملوءة غذاء ومؤونة». وفي رسالة إلى رئيسه يصف أحد الكتّاب المدينة كما يلي (*Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament*):

إنّ مكان السكن مريح للعيش؛ وحقلها مملوء بكل شيء جيد؛ وإنها مملوءة في كل يوم بالمؤونة والأغذية، وبركها مليئة بالأسماك، *وبحيراتها* مليئة بالطيور. مروجها مخضرة بالحشيش، وضفافها تحمل التمور؛ وبطيخها متوفر بكثرة على الرمال.... مخازن حبوبها مملوءة جدا بالشعير وحنطة العلف إلى مستوى يصل قريبا من السماء. والأبصال والكُرّاث *للأكل* وخس الحديقة والرمان والتفاح والزيتون وتين البساتين، خمر *كا* المصري الحلو، العسل الفائق، سمك ويج-أحمر من قنوات مدينة السكن، *التي* تعيش على زهور اللوتس، سمك - *بدين* من مياه- *هاري*.

الرابعة عشرة حوالي عام 1663 ق.م، حيث جعلوا سلطة الفراعنة في مصر مُقتَصِرة على طيبة. ويعود ترجيح الباحثين لهذا الاحتمال إلى أن الهكسوس هم أقوامساميّة وليسوا مصريّين مما يُعَد عاملا سهّل هجرات ساميّين آخرين، بما فيهم يعقوب وأبنائه، إلى الدلتا الشرقية. كما أن ساميّة الهكسوس ترجّح بأن يكون ارتقاء شخص غير مصري مثل يوسف إلى منزلة رفيعة قد حدث خلال حكمهم وليس خلال حكم المصريين.

ومن الملاحظات التي يجدر ذكرها هنا هو استخدام الاسم «يعقوب» من قبل الهكسوس، حيث إن اسم ملك الهكسوس الثاني هو يعقوب-هير، مما يرجّح أيضا بأنَّ يعقوب وأبناءه عاصروا الهكسوس وسكنوا في مكان حكمهم وكانوا مقرّبين منهم، كما كان حال يوسف الذي وصل إلى مكانة رفيعة.

لا بد أن ندرة السجلات الخاصة بفترة حكم الهكسوس بالذات ساعدت على غياب الإشارة في السجلات المصريّة إلى يوسف. وهذه الندرة تعود إلى عاملين: **أولا**، ضعف تأثير الهكسوس على مناطق ما وراء الدلتا والمناطق الشمالية من مصر مما حصر آثارهم في منطقة الدلتا. **ثانيا**، كره المصريون كونهم تحت حكم أجنبي فلنسيان تلك الحقبة غير السارّة من تاريخهم قاموا بعد طردهم للهكسوس من مصر بحملة قويّة لتدمير وإزالة النُّصُب التي أقامها الهكسوس، وكما تبيّن التحريات الآثارية[1].

11 ـ 2 حكم القرآن على نظريّة إقامة يوسف بين الهكسوس في الدلتا الشرقيّة

بعد عرضنا بشكل مختصر النظرية الأكثر شيوعا بين الباحثين حول مكان إقامة

(1) لمزيد من التفاصيل والمراجع عن موضوع هذا القسم يمكن الاطّلاع على كتابنا التأريخ يشهد بعصمة القرآن: تأريخ بني إسرائيل المبكّر. كما يمكن للقارئ مراجعة تحديثنا الشامل للكتاب المتوفر حاليا باللغة الإنكليزية فقط *The Mystery of Israel in Ancient Egypt*.

يوسف وعصره سنحاول في هذا القسم أن نرى ما إذا كان القرآن العظيم يدعم هذا الرأي أو يدحضه. وتجدر ملاحظة أنه بينما يهتم الباحثون الغربيون كل الاهتمام بقصة يوسف في العهد القديم ويدرسونها بالتفصيل، بالرغم من تناقضاتها وركاكتها، فإنهم يهملون بشكل كامل قصة يوسف في القرآن الكريم.

شاهدنا بأنَّ القرآن العظيم يسمّي الأرض التي عاش فيها يوسف «مصر» (يوسف: 21، 99)، كما يعلِمُنا كتاب الله بأنَّ البلاد التي عاش فيها موسى أيضاً كانت تُسمّى «مصر»: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: 87)، ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الزخرف: 51). بالإضافة إلى هذا فإن هنالك آية كريمة نجد فيها شخصا من قوم فرعون آمن بموسى يخاطب الناس قائلا: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ (غَافِر: 34). وتوضِّح هذه الآية بالذات بصورة جلية أن مصر التي دخلها يوسف وأهله هي نفس مصر فرعون وقت بعثة موسى. وتقودنا هذه الملاحظة بدورها إلى أخرى غاية في الأهمية.

يشير القرآن دائما إلى حاكم مصر في قصة موسى بلقب «فرعون» ولا يستخدم على الإطلاق كلمة «ملك» أو «ملك مصر» في الإشارة إليه. بنيما لا يُشار إلى حاكم مصر في قصة يوسف في القرآن العظيم بكلمة «فرعون» وإنما يوصف بأنّه «ملك» في الآيات الخمسة التي تذكر لقبه (يوسف: 43، 50، 54، 72، 76). ويستخدم القرآن العظيم لقب «ملك» للإشارة إلى مختلف الحكّام، بما فيهم الحاكم في قصة يوسف، إلا أنه يستخدم لقب «فرعون» فقط للإشارة إلى حاكم مصر أثناء حياة موسى فقط. فلماذا يميّز إذا القرآن العظيم بشكل واضح تماما بين «فرعون» و«ملك» مصر؟ إن هذه إشارة إلى فرق أساسي بين الحاكم الذي عاصر يوسف والذي كان معاصرا لموسى. فمصطلح «فرعون» هو لقب خاص بحكّام مصر الذين هم من أصل مصري والذين حكموا مصر لمدّة تقارب 3000 سنة،

لذلك فإن عدم إطلاق لقب «فرعون» على الحاكم المعاصر ليوسف يعكس حقيقة أن هذا الملك لم يكن من أولئك «الفراعنة» المصريين. وهذا يرجّح بشكل قوي جدا أن هذا الحاكم كان أحد ملوك الهكسوس الساميّين الذين لم تكن لهم علاقة عرقية بالمصريين.

أما العهد القديم فإنه يسميّ الحاكم في عصر يوسف مرة «فرعون» (مثلاً في التكوين 40: 13، 14، 17) ومرة «ملك» (مثلاً في التكوين 39: 20؛ التكوين 40: 1، 5)، وكذلك يفعل في إشارته إلى حاكم مصر في عصر موسى حيث يلقبه احيانا «فرعون» (الخروج، 1: 11، 19، 22) وأحيانا أخرى «ملك» مصر (مثلاً الخروج، 1: 8، 15، 17). أي أن العهد القديم لا يميّز بين مُصطلَحي «فرعون» و«ملك» ويستخدم أحدهما مكان الآخر، إذ لم يدرك كتّاب العهد القديم الفرق العرقي بين حاكم مصر في عصر يوسف وذلك الذي حكم في عصر موسى. إننا سنتّبع الاستخدام القرآني للقب «فرعون» في إطلاقه على حاكم مصر خلال عصر موسى فقط.

ونأتي الآن إلى دليل قرآني غير مباشر، ولكن من قصة موسى هذه المرة، على أن يوسف عاش في الدلتا الشرقية عندما كانت تحت حكم الهكسوس. عندما أرى موسى فرعون أول معجزتين له اتّهمه فرعون وأخيه هارون بأنّهما ينويان إخراج الناس من أرضهم:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ (طه: 56، 57).

﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ (طه: 63).

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (الشُّعَراء: 32 – 35).

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108) قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (الأَعْراف: 107 - 110).

أما «الأرض» المذكورة في هذه الآيات فتعرّفنا بها الآية 123 من سورة الأعراف. فبعد رؤيته لمعجزات موسى، طلب فرعون من موسى أن يبرهن تفوّق معجزاته بأن يتنافس مع أفضل السحرة الذين كان بمقدور فرعون أن يجمعهم من مدن مصر المختلفة. عندما خسر السحرة المباراة وشَهِدوا بأن ما قام به موسى لا يمكن أن يكون سحرا، وهو ما كانوا يُتقِنوه، أعلنوا اعتناقهم لدين موسى. إلا أن هذا دفع فرعون إلى توسيع دائرة اتهامه لموسى وهارون بالعمل على إخراج الناس من أرضهم لتشمل السحرة أيضاً: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأَعْراف: 120 - 123). يتّضح من الآية الأخيرة بأنَّ «الأرض» المشار إليها في الآيات الأربع التي مرّ ذكرها هي مدينة معيّنة. كما يخبرنا كتاب الله بأنَّ فرعون كان قد جلب السحرة من عدة مدن: ﴿قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ (الشعراء: 36، 37)، ﴿قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (الأعراف: 111، 112). لذلك فإن كلمة ﴿الْمَدِينَةِ﴾ في الآية 123 لا يمكن أن يُقصَد بها كل البلاد، أي مصر العليا (الجنوبية) ومصر السفلى (الشمالية)، التي كانت تتكون من عدة مدن.

والآن، كان طلب موسى من فرعون هو ببساطة السماح له بإخراج بني إسرائيل من مصر، فما الذي جعل فرعون ومستشاريه يفكّرون بهذا الاتهام الغريب لموسى وهارون، وهو اتّهام وجّهوه لاحقا إلى السحرة أيضاً، بالتخطيط لإخراج سكان ﴿الْمَدِينَةِ﴾ منها؟ والجواب هو ذكريات المصريّين المُرّة عن عصر الهكسوس. فالمدينة التي كان فرعون ومستشاروه يشيرون إليها هي باي-رمسيس وهي نفس المدينة التي التقى فيها فرعون مع موسى وهارون وجرت فيها المباراة مع السحرة.

كان رمسيس الثاني (1279-1212 ق.م)، وهو فرعون قصّة موسى، قد بنى باي-رمسيس على أطلال أفاريس التي كانت عاصمة الهكسوس بضعة قرون قبل ذلك.

إن فرعون لم يصدّق موسى حين قال بأنَّه أراد إخراج بني إسرائيل من مصر إلى الأبد، إذ اعتقد أن هذا الطلب كان الخطوة الأولى لإعادة واقعة تاريخيّة مريرة الذكرى على المصريّين وهي استيلاء الهكسوس الساميّين القادمين من الشرق على الدلتا الشرقية. فاعتقد فرعون ومستشاروه بأنَّ موسى أراد إخراج بني إسرائيل من مصر بهدف جعلهم نواة جيش سامي يغزو به مصر السُّفلى ليعيد تأسيس المملكة الساميّة في المدينة التي كان قد أصبح اسمها حينذاك باي-رمسيس وجعلها رمسيس الثاني عاصمة دولته.

ولكن ما علاقة كل هذا ببحثنا عن المدينة التي أقام فيها يوسف؟ ما كان فرعون وملأه سيفكرون بهذا السيناريو لو لم يكن القوم الذي طلب موسى إخراجهم من مصر هم بني إسرائيل، أحفاد يوسف وإخوته. إذ كان فرعون ومَلَؤُه يعلمون بطبيعة الحال أن بني إسرائيل هم أحفاد أولئك الأجداد الاوائل الذين استقروا في الدلتا الشرقية وبنوا علاقات قوية مع الهكسوس. كما كان فرعون ومَلَؤُه يعرفون يوسف جيداً، وبالتالي فإنهم كانوا يعرفون بأنَّ أحد أولئك الأجداد من بني إسرائيل ارتقى إلى منصب مرموق في مملكة الهكسوس، وهو ما نراه واضحا في خطاب الرجل المؤمن من قوم فرعون لقومه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ (غَافِر: 34). وهكذا فإن تخمين فرعون ومَلَؤُه الخاطئ بشأن الغاية القصوى لمهمة موسى يمثّل دليلا آخر على أن يوسف وأجداد بني إسرائيل الأوائل عاشوا في الدلتا الشرقية عندما كانت تحت حكم الهكسوس.

هنالك معلومة مهمة أخرى في الرواية القرآنيّة لقصة يوسف وهي الإشارة إلى جعل الملك ليوسف أمينا على ﴿خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾. إن هذا مؤشر قوي آخر على أن يوسف عاش في مصر في منطقة الدلتا حيث من المعروف من وثائق مصر القديمة، كما سبق تبيانه، بأنَّ الدلتا ذات الأرض الخصبة كانت غالبا ما تصبح في أزمان المجاعات مقصد الناس حتى من خارج مصر.

من الممكن طبعاً أنه كانت هنالك أساسا بعض المخازن قيد الاستخدام في مصر السفلى قبل أن يتولى يوسف مسؤوليتها. ولكن بسؤاله للملك أن يجعله مسؤولا على مخازن البلاد فمن المرجَّح أن يوسف لم يكن يشير فقط إلى المخازن التي كانت موجودة ولكن إلى مخازن أكثر ضخامة كان قد نصح الملك أن يبنيها لخزن محاصيل السنوات السبعة الوفيرة المحصول لاستعمالها في السنين السبعة قليلة المحاصيل التي كانت ستأتي بعد ذلك. ونجح يوسف في تأسيس نظام ضخم وكفوء لخزن الحبوب في الدلتا الشرقية. وتجدر الإشارة هنا إلى ما ذكرنا سابقا من أن رمسيس الثاني بنى مدينة مخازنه، باي-رمسيس، على نفس موقع أفاريس القديمة التي أسّس فيها يوسف مخازن الحبوب. فهل يشير هذا إلى أكثر من صدفة؟ الإجابة على هذا السؤال حسب العهد القديم هو النفي، لأن الفرعون الذي استعبد بني إسرائيل لبناء مدن مخازنه «فيثوم ورعمسيس» لم يكن يعرف يوسف: «وَوَصَلَ مَلِكٌ جَدِيدٌ إِلَى السُّلطَةِ فِي مِصرَ. وَلَمْ يَكُنْ هَذا المَلِكُ قَدْ عَرَفَ يُوسُفَ» (الخروج، 1: 8). إلا أننا شاهدنا بأنَّ القرآن العظيم يدحض ادعاء العهد القديم مؤكّدا بأنَّ يوسف كان معروفاً في قصر رمسيس الثاني وكانت ذكراه لا تزال حيّة. ويوحي هذا بقوة بأنَّ قرار رمسيس الثاني ببناء مخازن في باي-رمسيس لم يتضمّن أي إبداع بل كان استنساخا لفكرة يوسف المبتكرة. وفي هذا إشارة قوية أخرى في القرآن إلى أن يوسف عاش فعلاً في الدلتا الشرقية خلال حكم الهكسوس الذين كانت عاصمتهم أفاريس.

إذا يشير القرآن العظيم ضمنيا إلى أن دخول يوسف إلى مصر لا بد أن يكون قد حدث في منطقة الدلتا عندما كانت تحت حكم الهكسوس. كما ذكرنا الاحتمال الراجح بأنَّ وجود المقطع «يعقوب» كجزء من اسم ملك الهكسوس الثاني يعكس تأثّراً باسم النبي يعقوب. إذا لا بد أن يكون الهكسوس قد سمعوا باسم يعقوب من ابنه يوسف قبل أن يأتي يعقوب نفسه للعيش في الدلتا الشرقية، مما يعني بأنَّ دخول يوسف إلى مصر لا بد أن يكون حصل أثناء حكم الملك الأول أو الثاني من ملوك الهكسوس.

إن قول الرجل المؤمن من قوم فرعون ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ يشير ضمنيّا إلى أن يوسف كان آخر الرُّسل هناك قبل موسى. أما يعقوب فدخل مصر وهو شيخ كبير ولا شك أنّه توفّى قبل ابنه يوسف بسنين طويلة. ولكن لم لا يذكر ذلك الرجل المؤمن باقي أبناء يعقوب الأنبياء؟ يعود هذا بالتأكيد إلى أن يوسف كان هو النبي الذي ترك أكبر أثر في تلك المنطقة بسبب استقراره هناك من صغره ووصوله إلى منزلة رفيعة في السلطة. اما إخوته العشرة غير الأشقّاء فلم يأتوا للعيش في مصر إلا بعد سنين طويلة، كما أنهم كانوا أكبر منه سنّا وبالتالي فإن من المرجَّح أنهم غادروا هذه الحياة قبل يوسف. ولكن حتى لو عاش أحد إخوة يوسف بعده بضعة سنين، بما في ذلك بنيامين الذي من المرجَّح أنه كان أصغر منه سنّا، فإن من المؤكّد بأنَّ دورهم كان سيبقى ثانويا وكان اسم يوسف سيبقى الأكثر شهرة.

11 ـ 3 عمر يوسف

ولنحاول الآن تقدير العمر التقريبي ليوسف وقت توليه منصبه الرفيع، مع التأكيد على أن هذه مجرّد حسابات تقريبية.

يخبرنا القرآن العظيم بأنَّ يوسف كان «غلاما» حين ألقاه إخوته في البئر وعثرت عليه قافلة من المسافرين: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (يُوسُف: 11، 12)، ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (يُوسُف: 19)، ولنقل انه كان له 6–10 سنين من العمر. ثم عاش في بيت سيده حتى شبّ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (يُوسُف: 22)، وهو عمر يمكن تقديره بين 16–18 سنة، مما يعني بأنّه عاش في بيت العزيز 6–12 سنوات. ثم حاولت امرأة سيده أن تغويه، وعندما صدها وضعته في السجن حيث بقي بضع سنين: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ

سِنِينَ﴾ (يُوسُف: 42)، ولنقل 4-6 سنوات، رغم أن الفترة يمكن أن تكون أطول. أي حين أخرجه الملك من السجن وجعله أمينا على خزائن الأرض كان عمر يوسف في حدود 20-24 عاما. أي من الممكن أن صعود يوسف إلى السلطة كان بعد دخوله مصر بحوالي 10-18 سنة.

وكان يوسف قد تولى مسؤولية المخازن لما لا يقل عن سبع سنين، وهو عدد سنوات المحصول الوفير، عندما جاء إخوته طلباً للمؤونة في وقت ما خلال سنوات القحط السبعة التالية، أي أنه التقى إخوته في مصر عندما كان عمره لا يقل عن 27-31 سنة، إذ لا ندري في أي عام من أعوام القحط حدث اللقاء. أما لقاء يوسف بأبيه يعقوب فحدث بعد الزيارة الثالثة لإخوته. أي من المحتمل أن يكون غياب يوسف عن أبيه استغرق 17-25 سنة تقريبا. فسبحان الحكيم العليم الذي يختبر عباده المقرَّبين إليه بمثل هذا الاختبار، وسبحان اللطيف الذي جعل من ذلك الانفصال نفسه سببا لاجتماع يوسف وأبيه.

12

النبي يوسف في القرآن الكريم وفي العهد القديم

سنسلك في هذا الفصل منحى مختلفا عما اتبعناه في الفصول السابقة في دراسة النص القرآني حيث سنقارن بين الرواية القرآنية ورواية العهد القديم لقصّة يوسف. إن مثل هذه الدراسة تلقي المزيد من الضوء على الجوانب الإعجازية لنص القرآن العظيم.

12 ـ 1 بشريّة العهد القديم دليل على إلهيّة القرآن العظيم

هنالك منحَيَان رئيسان في دراسة القرآن العظيم يكشف كل منهما باستمرار عن ما لا حصر له من الدلائل على إلهيّة هذا الكتاب الكريم. أوّل هذين المنحَيَين هو دراسة النص القرآني بمعزل عن أي نص أو مصدر معلومات خارجي. هذا هو في الواقع المنهج الذي اتَّبعناه في الفصول التسعة 2-10 التي درسنا فيها نص سورة يوسف. إن من المظاهر الإعجازية التي يمكن لهذا المنهج البحثي الكشف عنها هو التجانس المُذهل للنص القرآني وبلاغته الخارقة للعادة وجماله الاستثنائي. كما يمكن أن يكشف هذا المنهج في البحث عن العلاقات الحسابية المعقَّدة والدقيقة التي تربط بين الأجزاء المختلفة للنص القرآني والتي لا يمكن أن تكون من صنع بشر.

أما المنحى البحثي الآخر الذي يكشف عن معجزات القرآن الكريم فهو الدراسة المُقارِنة للنص القرآني، أي مقارَنة القرآن العظيم بمصادر خارجيّة. وهذا

المنهج يمكن أن يأخذ أشكالا عِدّة. **أولا**: يمكن التعرّف على المزيد من معجزات القرآن العظيم عند مقارنته بالمعارف والاكتشافات البشرية التي توصّل إليها الإنسان. إذ تبيّن مثل هذه المعجزات بأنَّ هذا الكتاب لم يسبق زمانه فحسب، بل إنه سابق لكل زمان.

فعلى سبيل المثال أدت الاكتشافات الآثارية والتأريخية في مصر القديمة وفلسطين إلى الكشف عن مظاهر إعجازية في القصة القرآنية لموسى، كما بيّنّا في كتابنا التاريخ يشهد بعصمة القرآن: تاريخ بني إسرائيل المبكّر[1]، وكذلك في قصّة يوسف، كما شاهدنا في الفصل الحادي عشر. كما اجتهد الكثير من الباحثين في الكشف عما يحتويه القرآن العظيم من معلومات علمية لم يكن الإنسان يعرفها في زمن نزول القرآن، بل وما كان يمكن له أن يعرفها حينذاك، ولم يتوصّل إلى معرفتها إلا حديثا.

ثانيا: يمكن الاطّلاع على دلائلٍ على إلهيّة النص القرآني عند مقارنة مستواه الفكري وقيمه ومبادئه بالمستوى الفكري للمجتمع الذي نزل فيه وقيمه ومبادئه. انظر مثلا إلى تحريمه لوأد البنات وإلى مساواته بين الناس إلا بمقدار تقواهم وإلى خلّوه من تأثيرات الأساطير التي كانت شائعة في ذلك المكان والزمان. بل إن ما في الفكر القرآني الإلهي من تجانس وقوّة وعدالة وخلو من التأثيرات والانحيازات الثقافية والاجتماعية التي يمكن تتبعها في كل فكر وكتاب بشري تبيّن سمو هذا الفكر الفريد عن الفكر الإنساني في أي وقت ومكان. إذ تكشف مثل هذه المقارنة عن أنه وإن كان هذا الكتاب الكريم يشير أحيانا الى الثقافة والممارسات التي كانت سائدة في مكان نزوله، فإنه ليس وليد تلك البيئة وإنما نتاج إلهي خالص. إن القرآن الكريم يمثّل ثورة فكرية وثقافية جذرية ليست وليدة مكان أو زمان معيّن.

أما الشكل **الثالث** من الدراسة المقارِنة للنص القرآني العظيم التي تكشف عن

---

(1) انظر أيضا *The Mystery of Israel in Ancient Egypt*.

إلهية مصدره فيتمثّل في مقارنته بكتب البشر، وكل كتاب غيره في يومنا هذا هو من عمل البشر. ولعل أكثر الكتب ذات الصلة هنا هي الكتب الدينية. إن هذا هو نوع الدراسة المقارِنة للنص القرآني الذي يركّز عليه هذا الفصل.

وعلى العكس مما يحدث مع القرآن، يؤدي التعمّق في دراسة غيره من الكتب الدينية إلى الكشف عن المزيد من عيوبها. فكونها من وضع البشر، حتى وإن كان فيها أثر من كتب إلهية قديمة أو كانت مُشتقّة أساسا من هكذا كتب، يعني حتمية أن تكون مليئة بالتناقضات والأخطاء والركاكة وغيرها من العيوب، حالها في ذلك حال كتب البشر.

إن السبب الرئيسي لهبوط الاهتمام بالدين في العالم الغربي هو سقوط هالة العصمة عن كتابي العهدين القديم والجديد التي أحاطتهما لقرون طويلة وانكشاف عيوبهما التي لا يصعب إخفاءها فحسب، وإنما يصعب حصرها كذلك. فكثرة المعلومات العلمية والتأريخية الخاطئة وغير الدقيقة في هذين الكتابين جعلت نعت «المؤمن» بهما يساوي في نظر الكثيرين صفات سلبيّة مثل «متخلّف» و«رجعي» و«جاهل». بينما بسبب من طبيعة القرآن العظيم ودقّته المذهلة نجد الإسلام في انتشار مستمر، بل إنه الدين الأسرع انتشارا في العالم. ولعلّ من أكثر الحقائق دلالة هنا هو أن معظم المفكّرين والعلماء الذين يغيّرون دينهم يتحوّلون إلى الإسلام بالذات. إن الإسلام هو دين العلم والعلماء والفكر والمفكّرين.

وبالإضافة إلى كشفها بأن أيدي بشرية هي التي خطّت كتابي العهدين القديم والجديد وأنهما لا يمكن أن يكونا وحيا من الله، تعكس العيوب في نصّي هذين الكتابين عن محدودية عقلية كتّابهما ومحرّريهما، وتأثّرهم بثقافات وقيم الأماكن والعصور التي عاشوا فيها. **أولا**: هنالك الركاكة والسذاجة التي تتخلّل كل أجزاء الكتابين وتعكس بساطة عقليّة كتّابهما ومحدودية ثقافتهم. **ثانيا**: مثل الكثير من الكتابات البشرية التي تمجّد أقوام كاتبيها، ينطلق العهد القديم من فرضية أن بني إسرائيل هم «شعب الله المختار»، ولذلك فإنّه كتاب عن تاريخ بني إسرائيل أكثر من أي شيء آخر. ومن النتائج الطبيعية لهذا هو انحياز هذا الكتاب في أحكامه إلى بني

إسرائيل بشكل يخالف مفهوم العدل الإلهي، بل وحتى مفهوم العدالة البشرية كما يراها معظم الناس.

فمثلا يقول العهد القديم للمؤمنين به من اليهود: « 19 لا تَفرِضُوا الرِّبا عَلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ يَقْتَرِضُ مِنْكُمْ مالاً أَوْ طَعاماً أَوْ أَيَّ شَيءٍ آخَرَ. 20 يُمكِنُ أَنْ تأخُذُوا فائِدَةً مِنَ الغَرِيبِ، لا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ. كَي يُبارِكَكُمْ إلَهُكُمْ فِي كُلِّ شَيءٍ تَعمَلُونَهُ فِي الأَرْضِ الَّتِي سَتَدخُلُونَ لِتَمتَلِكُوها » (التثنية، 23: 19-20). أما العدل الإلهي الحق في القرآن العظيم فيمنع المسلمين من أخذ الربا من كل الناس، من دون تمييز بين المسلم وغير المسلم:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (275). يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276). إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (277). يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (278). فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (279). وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البَقَرَة: 275 - 280).

وتجدر الإشارة إلى أن العهد الجديد يهمل بشكل كامل مفهوم «شعب الله المختار» الذي يرتكز عليه كل فكر العهد القديم الذي هو كتاب عن تاريخ بني إسرائيل. فادّعاء المؤمنين بكتاب العهد الجديد بأنّه استمرار لكتاب العهد القديم ليس له أي أساس.

ثالثا، يشوّه العهد القديم صورة الشخصيات المقدّسة وبشكل يبيّن عدم فهم كتّاب ذلك النص ومحرّريه لمعنى أن يكون الإنسان «نبيا». فأنبياء العهد القديم يتصرّفون كما يتصرّف عامة الناس ولا يكادون يتميّزون عنهم بأي شيء سوى تلقي الوحي من الله، وكأن هذا الوحي لا علاقة له ببناء وتغيير شخصية متلقّيه. إن أنبياء

القرآن هم غير أنبياء العهد القديم فكرا وسلوكا. وكمثال على تشويه العهد القديم لصورة نبي من أنبياء الله، أشرنا في القسم 1-3 إلى ادّعاء ذلك الكتاب بارتكاب النبي داود لمعصية الزنى.

وطبعا لا ينسى كُتّاب العهد القديم أن يذكروا في نهاية تلك القصّة المُلفّقة بأنَّ ما فعله داود كان قبيحا في عين الله!

إن الاطّلاع على عيوب النصوص الدينية وملاحظة خلو النص القرآني منها يؤكّد بأنَّ القرآن العظيم هو كتاب يختلف عن تلك الكتب الدينية. والخلاف الرئيسي هو أن تلك الكتب دوَّنتها أيدي البشر، لذلك تحتوي على أخطاء، بينما القرآن هو وحي من الله جملة وتفصيلا، مما يفسّر خلوه من الأخطاء.

إننا لا نهدف هنا إلى التعرّض بشكل تفصيلي لعيوب العهد القديم، فهذا موضوع يقع خارج نطاق هذا الكتاب[1]. ولكن أردنا بهذه المقدّمة التمهيد لموضوع شديد الصلة بموضوع كتابنا هذا وهو قصة يوسف في العهد القديم. لقد ذكرنا بأنَّ من مصادر دراسة الإعجاز القرآني هو مقارنة هذا النص الإلهي بما خطّته أيدي البشر من كتب، وبالذات الكتب الدينية، ولا شك إن أنسب مقارنة من هذا النوع نقوم بها في هذا الكتاب هي مقارنة قصة يوسف في القرآن بقصته في العهد القديم، حيث تحتل هذه القصة «الإصحاحات»، أي الفصول، 37-50 التي هي آخر إصحاحات سفر التكوين من ذلك الكتاب. ويعتقد الباحثون بأنَّ محاولات تدوين هذا النص بدأت بعد بضعة قرون من الحوادث التي يصفها، وأن تلك البداية كانت قبل حوالي ثلاثة آلاف سنة من عصرنا هذا.

إذا بعد أن درسنا قصة سيدنا يوسف كما رواها القرآن العظيم وتعرّفنا على ما يسّر لنا الله أن نراه فيها من جمال يخلب القلب وعلم يذهل العقل، سنتناول بالبحث في القسم الأخير من الفصل بعض عيوب رواية العهد القديم المُفكّكة تركيبا

---

(1) يستطيع القارئ أن يستشير كتبنا الأخرى التي تقارن بين الروايات التأريخية في القرآن والعهد القديم والعهد الجديد المذكورة في قائمة المراجع.

ومُحتوى والتي تبيّن الفرق الهائل بينها وبين الرواية القرآنية المُحكَمة بناءً ومعنى.

ولكن من الضروري أن نتطرّق قبل ذلك ولو بشكل مختصر جدا إلى فرق جوهري بين نص القرآن العظيم ونص العهد القديم.

12 ـ 2 واحديّة النص القرآني وتعدّدية نص العهد القديم

يصف القرآن العظيم نفسه بأنّه كتاب أنزله الله إلى العالمين عن طريق رسول واحد هو مُحمَّد ﷺ. ونزل هذا الكتاب خلال فترة تتجاوز العقدين من الزمان بقليل. أما العهد القديم الذي يروي تاريخا يشمل قرونا طويلة من الزمان تبدأ بخلق الكون فلا يمكن لأحد ربطه كلّه بنبي معيّن، بل ولا يمكن نسبة كل «سِفْر» من أسفاره إلى رسول ما. وحتى عند نسبة بعض الأسفار إلى أنبياء معيّنين، فإن في كل نص من تلك النصوص ما يمنع نسبته إلى النبي المقصود بنفس معنى نسبة القرآن العظيم إلى رسول القرآن مُحمَّد ﷺ، أي كون النبي المعني ناقل لذلك النص من الله.

وعلى سبيل المثال، بالرغم من إطلاق تسمية «أسفار موسى الخمسة» على أسفار العهد القديم الخمسة الأولى، التي تُعرَف أيضا بسبب عددها بتسمية «الأسفار الخمسة» Pentateuch، فإن تلك الأسفار تسرد تاريخا يبدأ بخلق الله للكون وينتهي بحادثة موت موسى نفسه، علما بأنَّ النص هو بصيغة الشخص الثالث! فمن غير الممكن القول بأنَّ هذه الأسفار هي نصوص أنزلها الله على موسى وأنها بالتالي نصوص ربّانية بحتة. إن أسفار العهد القديم بشكل عام هي أقرب إلى كتب التأريخ منها إلى أي شيء آخر، وهذه الحقيقة بحد ذاتها تضع حدودا لما يمكن ادّعاءه عن هذا النص.

لكن هنالك فرق جوهري آخر بين القرآن العظيم والعهد القديم هو الذي يهمّنا في هذا الموضع من الكتاب. إن كون القرآن العظيم كلام الله يعني بأنَّ كل حرف وكلمة فيه هي من صياغة الله. وفعلا هنالك نص «واحد» للقرآن العظيم، وهو نفس النص الذي أنزله الله على رسول القرآن مُحَمَّد. فقد تعهّد الله في القرآن بحفظه من كل تغيير: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: 9)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فُصِّلَت: 41، 42) [1]. إن تحليل النص القرآني، وكما مر بنا في تحليلنا لقصّة يوسف، يبرهن صحة ما يقوله القرآن عن نفسه ويأتي بالدليل تلو الآخر على أن كل حرف وكلمة وآية وسورة في هذا الكتاب العزيز هو من تنزيل العزيز الحكيم. لذلك، فإن النص الناتج عن ترجمة القرآن العظيم إلى أية لغة غير العربيّة لا يمثّل القرآن العظيم بتلك اللغة وإنما تفسيرا له بتلك اللغة. إذ تمثّل الترجمة فهم المُتَرجِم للنص القرآني العربي، وهو فهم حتى إن صحَّ يكون محدودا وقاصرا عن استيعاب كل المعاني العميقة للنص القرآني. كما تتحدَّد الترجمة بإمكانيات اللغة المُستَخدَمة وبراعة المُترجِم اللغوية.

أما العهد القديم فلا يمكن لأحد أن يدّعي بأنَّ كل حرف وكلمة فيه هي من وضع الله. في الحقيقة، إن المؤمنين بإلهية مصدر العهد القديم أنفسهم منقسمين إلى فرق حول ما إذا كانت بعض الأسفار تنتمي إلى العهد القديم أم لا! ولكن لنضع ذلك جانبا، حيث إن نص قصة يوسف الذي يهمّنا هنا ليس من تلك النصوص التي يوجد شك في انتمائها إلى العهد القديم.

وهنالك الكثير من مخطوطات العهد القديم القديمة، لأسفار تتّفق الأغلبية المؤمنة بإلهية مصدر العهد القديم على انتمائها إلى ذلك الكتاب، تختلف عن بعضها البعض في قليل أو كثير.

إن هذه الحقيقة التي لا جدل حولها تعني ببساطة عدم وجود نص «واحد» يُمكِن للمؤمنين بإلهية مصدر العهد القديم الادّعاء بأنَّه نص أنزله الله مثلما هو الحال مع القرآن العظيم. فأقصى ما يمكن للمؤمنين بإلهية مصدر العهد القديم ادّعاءه هو أن نص العهد القديم هو «بشكل عام» كلام الله إلا أنّهم لا يستطيعون الادّعاء بأنَّ ذلك النص هو كلام الله «حرفيا». أي أن تعبير «إلهيّة القرآن» له معنى

---

(1) انظر دراستنا التفصيلية للفرق بين المصحف والقرآن في كتابنا النسخ في القرآن العظيم والقانون الإسلامي.

يختلف تماما عن عبارة «إلهيّة العهد القديم»، بل إن مفهوم «الإلهيّة» عند استخدامه لوصف العهد القديم هو في الواقع شكل آخر من أشكال «البشريّة» وفقا للمنظور القرآني.

إن القرآن العظيم الذي في أيدينا اليوم هو نفس القرآن العربي الذي نزل قبل حوالي أربعة عشر قرنا، بينما ليس لدى المؤمنين بإلهيّة مصدر العهد القديم أي دليل، مثلا، على أن النص الحالي لسفر التكوين، الذي هو أول أسفار العهد القديم ويحتوي قصة يوسف، هو نفس النص الذي أنزله الله، بغض النظر عن ما تعنيه عبارة «أنزله الله» في هذا السياق. بل ليس هنالك أي دليل على أن لغة أقدم مخطوطة موجودة اليوم من سفر التكوين هي نفس لغة النص الأصلي بالضبط! فإذا كان النص الأصلي لذلك السفر بالعبرية فهذا لا يعني بالضرورة بأنَّ تلك العبرية القديمة جدا هي تماما نفس عبرية أقدم المخطوطات القديمة لسفر التكوين المتوفرة حاليا. ويمكننا وصف هذا الفرق بالذات بين القرآن العظيم والعهد القديم بالقول بأنَّ القرآن العظيم هو كتاب «بلا تاريخ»، لأنّه لم يمر بمراحل تطوّر وأن نصّه الحالي هو نفس نصّه الأصلي الذي نزل به، بينما لكتاب العهد القديم «تاريخ طويل» مر خلال مراحله المختلفة بالكثير من التغييرات، مثلما حدث لغيره من الكتب.

إن هذا الفرق الجوهري بين نص القرآن العظيم الأصيل ونص العهد القديم الذي يفتقر إلى الأصالة له نتائج غاية في الأهمية عند تفسيرهما. إن أصالة النص القرآني تعني بأنَّه «كيان واحد» يمكن استخدامه في تفسير بعضه البعض، وهو منهج معروف في التفسير حاولنا اتّباعه في ما تقدّم من تفسيرنا لقصة يوسف. كما تعني هذه الأصالة الإلهية بأنَّ لكل شيء في القرآن العظيم معنى عميق ومقصود وبالتالي فإن من الممكن بناء استنتاجات من ملاحظة وجود حرف معيّن دون غيره أو ورود كلمة معينة دون غيرها وفي موضع معيّن دون غيره، كما بيّنّا في تحليلنا لأجزاءٍ من نص سورة يوسف.

أما العهد القديم، فإن افتقاد نصّه للأصالة الإلهيّة يعني بأنَّه ليس «كيان واحد» ولا يمكن بالتالي استخدام بعضه بثقة في تفسير البعض الآخر. فحتى إذا كان بعض

ذلك النص ذو أصل إلهي، فإن بعضه الآخر ليس كذلك. وبسبب من لا أصالة نص العهد القديم فإنه لا يمكن افتراض إن لكل شيء فيه معنى عميق ومقصود. فلا يستطيع مفسّر نص العهد القديم أن يقول بثقة بأنَّ استخدام كلمة معينة دون أخرى من مرادفاتها هو بالضرورة مقصود ويبني بالتالي استنتاجات على ذلك. إن كاتب العهد القديم، حاله حال أي إنسان، ليس مطلق العلم لكي يمكن الافتراض بأنَّ كتاباته هي مترابطة حتى على مستوى الحرف والكلمة وأنه استعمل هذا الحرف أو تلك الكلمة بالذات وفي هذا الموضع بالذات بسبب من معنى محدّد وعميق.

بل من الخطأ التحدّث عن «كاتب واحد» لقصّة يوسف في العهد القديم لأن من المؤكّد بأنَّ النص الموجود اليوم هو نتاج عدد من الأيدي البشرية التي تناوبت على تحويره وتغييره على مر القرون. وهذا بحد ذاته يعني بأنَّ من الطبيعي عدم إمكانية التحدّث عن النص وكأنه كيان واحد.

إن سبب تطرّقنا إلى هذا الموضوع هو التأكيد على أن محاولة تحليل نص العهد القديم بنفس الدقة والتفصيل اللذين يمكن بهما تحليل النص القرآني هو منهج زائف ليس هنالك ما يبرّره. وحتى عيوب رواية العهد القديم لقصة يوسف التي سنتطرّق إليها في القسم الأخير من هذا الفصل هي غالبا تناقضات وركاكة في الحبكة الروائية، لا نتاج تحليل لغوي للعهد القديم.

12 ـ 3 عيوب رواية يوسف في العهد القديم

لنكرّر في البدء بأنَّ كشف عيوب العهد القديم، التي تبيّن بأنَّه من كتابة بشر، هو وسيلة غير مباشرة للبرهنة على إلهيّة مصدر القرآن العظيم. إذ إن إدراك العيوب التي تحتويها قصة يوسف في العهد القديم بشكل عام يُبرِزُ إلى العيان الفرق الهائل بين نص كتبه بشر ونص القرآن الإلهي الذي درسناه في ما تقدّم من الكتاب.

توجد تفاصيل في قصة يوسف في العهد القديم تبيّن بأنَّ كتّابها كانوا على اطّلاع على الكثير من حوادثها، كما أنها تحتوي على عيوب تبيّن بأنَّ أولئك الكتّاب كانوا أيضا جاهلين بالكثير من حوادث القصة. وهذا بدوره يعني بأنَّ القصّة كما

وردت في العهد القديم يجب أن تكون قد اشتُقَّت أصلا من نص إلهي، وأن صيغتها الحالية هي النتاج النهائي لعمليات تحرير بشرية للنص الأصلي. وهذا الاستنتاج غاية في الأهمّية لأنه يتّفق مع ما أشار إليه القرآن العظيم صراحة من تلاعب بني إسرائيل بما أنزل الله إليهم من كتب قبل القرآن، وما يعنيه ذلك ضمنيًا من أن العهد القديم هو من ضمن ما خطّته أيدي بعضهم متأثّرة بما كان قد أنزل الله وبما ورد عن أنبيائه.

ومن الجدير بالذكر بأنَّ باحثي العهد القديم اليوم يعتقدون، بناءً على عدد لا يحصى من الدراسات والاكتشافات، بأنَّ الصيغة الحاليّة من العهد القديم قد أنتجته عمليات تحرير بشرية لنصوص أقدم. إن هذه الحقيقة التي لم تبدأ دلائلها التأريخية والآثارية بالظهور للعيان إلا في القرن التاسع عشر ذكرها القرآن العظيم قبل أربعة عشر قرناً!

شاهدنا في ما تقدّم من دراستنا للنص القرآني لقصّة يوسف احتواءه على الكثير من التلميحات التي تكاد تكون مخفيّة والتي من الضروري ملاحظتها لفهم العديد من أحداث القصّة. إلا أن رواية العهد القديم غافلة عن مثل تلك التلميحات ودلالاتها. إن هذا يدلل على أمرين. **أولا**: إن النص الإلهي الأصلي الذي اشتُقَّت منه قصة يوسف، والذي يمكن أن يكون التوراة التي أنزلها الله على موسى، كانت له نفس هذه الخاصية القرآنية. أي أنه أشار خفية إلى تفاصيل مهمّة يتطلّب اكتشافها ملاحظة تلك التلميحات اللطيفة وفهمها بشكل سليم. **ثانيا**: فشل كُتّاب العهد القديم، أو الذين اطّلعوا على النص الأصلي مباشرة ووصلت القصة عن طريقهم إلى كُتّاب العهد القديم، في ملاحظة تلك التلميحات وفهمها.

بدل أن نستطرد في الحديث عن عيوب العهد القديم بشكل عام لننتقل إلى تحديد مثل هذه العيوب في قصة يوسف. إن الملاحظات التالية تتفاوت في أهمية دلالاتها، ولا يعكس تسلسل ذكرها هنا أهمّيتها ولكن غالبا تسلسل ورودها في نص العهد القديم:

1) يخبرنا العهد القديم بأنَّ يوسف ذو «السبعة عشر عاما» كان يعلم تماما حسد إخوته له إلا أنه مع ذلك قَصَّ مناماته عليهم. وحتى رد فعلهم السيئ على سماعهم لتفاصيل منامه الأول لم يمنعه من قص منامه الثاني عليهم!

2) يقدّم وصف القرآن لرؤيا يوسف ذكر الكواكب الأحد عشر على ذكر الشمس والقمر: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. وذكرنا في تفسيرنا للآية 4 والآية 100 بأنَّ تفسير هذا التقديم هو أن الله كان قد قدّر لسجود إخوة يوسف له أن يحدث قبل سجود أبويه، وكما تبيّن القصة القرآنية. لقد فات على كُتّاب العهد القديم ملاحظة هذه الإشارة اللطيفة ولذلك فإنهم استخدموا الأسلوب التقليدي في الكلام في تقديم ذكر النيّرين على الكواكب: «رَأيتُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَأَحَدَ عَشَرَ نَجماً تَنحَنِي لِي» (التكوين 37: 9)، بالرغم من ذكرهم صراحة في الفقرة 6 من الإصحاح 42 والفقرة 26 من الإصحاح 43 سجود إخوة يوسف له في مرّتي ذِهابهم إلى مصر لشراء قمح، أي قبل مجيء يعقوب إلى مصر.

3) ينص العهد القديم (التكوين 37: 10) على أن يعقوب نَهَرَ يوسف على منامه وكأنّه مسؤول عن المنام! يعني هذا ضمنيّا بأنَّ العهد القديم يعتبر يعقوب جاهلا بأنَّ مثل هذه المنامات هي رؤى ربّانية وأن الذي يشاهدها ليس له يد في حصولها. ولكننا نجد في نفس الوقت بأنَّ يعقوب فهم من المنام بأنَّ الشمس والقمر ترمزان إليه وإلى أم يوسف، مما يعني بأنَّه لم يكن يعلم بحقّانية تلك الرؤيا فحسب، ولكن بتفسيرها أيضا. وهذا تناقض واضح وقع في كتّاب العهد القديم.

4) من نقاط الضعف الكبيرة في رواية العهد القديم هو إغفالها تماما لذكر حادثة سجود يعقوب وأم يوسف لابنهما رغم ذكر ذلك في المنام وتفسير يعقوب له! ولهذه الغفلة دلالة كبيرة لأن للمنامات دور كبير في قصة يوسف وإن فشل الكتّاب في ذكر تحقّق أحدها يعني فشلهم في سرد تفاصيل أساسية في القصة الأصلية.

5) أشرنا في تفسيرنا للآية 10 إلى أن إلقاء إخوة يوسف له في البئر كان

إعراضا عن الرأي القائل بقتله وتنفيذا للرأي القائل بجعله يتيه في أرض بعيدة عن أرض أبيه يعقوب، ليلتقطه بعض السيّارة ويأخذوه بعيدا. وبيّنا بأنّ سبب وضعهم له في البئر بدل محاولة إعطائه أو بيعه مباشرة إلى أولئك المسافرين هو أنه كان سيقاوم تلك المكيدة ويفضح إخوته أمام الذين يريدون بيعه لهم. وهذا كان سيفشل خطّة إخوته، بل وكان من الممكن أن يوقعهم هم أنفسهم في مأزق. إن رواية القرآن العظيم متناسقة تماما.

أما في العهد القديم فنرى أحد إخوة يوسف يقنع إخوته بعدم قتله وإلقائه بدل ذلك في البئر: «فَلَمّا سَمِعَ رَأُوبَيْنُ هَذا، حاوَلَ أنْ يُخَلِّصَهُ مِنْهُمْ. فَقالَ: «لا داعِيَ لِقَتلِهِ.» 22 وَقالَ أيضاً: «لا تَسْفِكُوا دَماً! ألقُوهُ فِي هَذِهِ البِئْرِ فِي الصَّحْراءِ وَلا تُؤْذُوهُ». قالَ رَأُوبَيْنُ هَذا لِكَي يُخَلِّصَهُ مِنْهُمْ، وَيُعِيدَهُ إلَى أبِيهِ» (التكوين 37: 21-22). كان هدف رأوبين هو إنقاذ يوسف وإعادته إلى أبيه إلا أن العهد القديم لا يفسّر سبب موافقة بقية إخوة يوسف على اقتراح أخيهم. عندما مر تجّار بذلك المكان قال أحد إخوة يوسف: «ماذا نَكْسِبُ إنْ قَتَلْنا أخانا وَأخفَينا جُثَّتَهُ؟» (التكوين 37: 26)، مما يبيّن بأنّهم بالرغم من إلقائه في البئر كانوا لايزالون يفكّرون في قتله، وهو تناقض واضح يدفع إلى السؤال عن سبب موافقتهم على وضعه في البئر أساسا.

ثم باعه إخوته إلى التجّار المديانيين. وهذا يمثّل تناقضا آخر مع إلقائهم له في البئر!

وسبب التناقضات والركاكة هنا هو أن كُتّاب العهد القديم كانوا على دراية بوضع يوسف في البئر وبأخذ القافلة له في القصة الأصلية، إلا أنهم لم يفهموا سبب هذه الحوادث وارتباطها ببعض، فلما اجتهدوا في ربطها ببعض وفقا لظنونهم جاءت الرواية ركيكة ومتناقضة.

6) وفقا للقرآن، ردّ يعقوب على رؤية القميص الملوّث بالدم قائلا: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (من يوسف: 18)، بينما يصف العهد القديم رد فعل يعقوب كما يلي: «هَذا ثَوبُ ابْنِي. التَهَمَهُ حَيوانٌ

مُفْتَرِسٌ. وَلا بُدَّ أَنَّهُ مَزَّقَ يُوسُفَ تَمْزيقاً». 34 فَمَزَّقَ يَعقُوبُ ثِيابَهُ، وَلَبِسَ الخَيشَ حُزنا، وَناحَ عَلَى ابْنِهِ مُدَّةً طَوِيلَةً جِدّاً. 35 ثُمَّ جاءَ كُلُّ أولادِ يَعقُوبَ لِيُعَزُّوهُ، فَأَبَى أَنْ يَتَعَزَّى. وَقالَ: «بَلْ أَنزِلُ إلَى الهاوِيَةِ حُزْناً عَلَى ابْنِي!»» (التكوين 37: 33-35).

تبيّن الاختلافات بين وصف رواية القرآن ووصف رواية العهد القديم الفرق الكبير بين صورة يعقوب في كل منهما. إذ كما سبق وذكرنا في القسمين 1-3 و12-1، يصوّر كتّاب العهد القديم أحيانا أنبياء الله بصورة لا تختلف في كثير عن صورة باقي الناس، وتكاد تفتقد لأي قدر من الخصوصية التي ألقتها عليهم العناية الإلهية، ولا تعاملهم بالاحترام الذي يستحقونه. لاحظ كيف يعكس رد فعل يعقوب في القرآن العظيم عِلمه بأنَّ بنيه قد دبّروا أمر سوء: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾، وصبره النبوي الجميل: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، وعِلمه بأنَّ وصف أبنائه لما حدث غير صحيح وتوكّله على الله في كشف الحقيقة: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

أما يعقوب العهد القديم فشخص جاهل بحقيقة ما زعم بنوه حدوثه. بل يدّعي الكتاب بأنَّ يعقوب لم يصدّق في البدء بنيه حين عادوا من مصر ليخبروه بأنَّ يوسف لايزال حيا: «فَصَعِدُوا مِنْ مِصْرَ، وَذَهَبُوا إلَى بَيتِ أَبِيهِمْ يَعقُوبَ فِي أرْضِ كَنْعانَ. 26 وَقالُوا لَهُ: «ما زالَ يُوسُفُ حَيّاً، وَهُوَ يَحكُمُ أرْضَ مِصْرَ كُلَّها». فَصُعِقَ أبوهُمْ، إذْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ! 27 فَأخبَرُوهُ كُلَّ ما قالَهُ لَهُمْ يُوسُفُ. ثُمَّ رَأى يَعقُوبُ العَرَباتِ الَّتِي أرْسَلَها يُوسُفُ لِتَحمِلَهُ إلَى مِصْرَ. فانتَعَشَ يَعقُوبُ. 28 ثُمَّ قالَ إسْرائِيلُ: «يَكفِي ما قُلْتُمْ. أنا أُصَدِّقُ الآنَ أنَّ ابْنِي يُوسُفَ مازالَ حَيّاً. سَأذْهَبُ وَأراهُ قَبلَ أنْ أمُوتَ»» (التكوين 45: 25-28).

وبالإضافة إلى اتهامه ليعقوب بالجهل، يدّعي العهد القديم بأنَّ يعقوب كان فاقدا لكل صبر على بلاء الله. إن سلوك يعقوب العهد القديم يجعل المرء يتساءل عن ماهية الفرق بين هذا النبي وغيره من الناس! بل يدّعي العهد القديم بأنَّ يوسف نفسه شكّك في علم أبيه حين بارك بنيه إذ ساءه أن يرى أباه يبارك ابنه الأصغر قبل الأكبر فأراد نقل يد أبيه من على ابنه الأصغر إلى الأكبر: «وَانتَبَهَ يُوسُفُ إلَى أنَّ أباهُ يَضَعُ يَدَهُ اليُمْنَى عَلَى رَأسِ أفْرايِمَ، فاسْتاءَ مِنْ ذَلِكَ. فَأخَذَ يَدَ أبِيهِ وَحاوَلَ إزاحَتَها

عَنْ رَأْسِ أَفْرايِمَ إِلَى رَأْسِ مَنَسَّى، 18 وَهُوَ يَقُولُ لِأَبِيهِ: «لَيسَ هَكَذا، يا أَبِي! فَهَذا هُوَ البِكْرُ. فَضَعْ يَدَكَ اليُمْنَى عَلَى رَأْسِهِ». 19 فَرَفَضَ أَبوهُ وَقالَ: «أَعلَمُ ذَلِكَ، يا ابْنِي، أَعلَمُ. وَهُوَ أَيضاً سَيَصِيرُ شَعباً. وَهُوَ أَيضاً سَيَصِيرُ عَظِيماً. لَكِنَّ أَخاهُ الأَصْغَرَ سَيَصِيرُ أَعظَمَ مِنْهُ. وَسَيَكُونُ نَسلُهُ مَجمُوعَةً مِنَ الشُّعُوبِ»» (التكوين 48: 17-19).

لاحظ أيضا أن العهد القديم يدّعي بأنّ يعقوب هو الذي أرسل يوسف إلى إخوته، بينما ينص القرآن العظيم على أنه كان يمانع ذهابه مع إخوته لخوفه عليه منهم، كما هو واضح من قول بنيه له ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾، وأنه لم يوافق على أخذهم له إلا من بعد إلحاحهم وبأمل تحسين علاقتهم بأخيهم، وكما بيّنّا في تفسيرنا للآية الكريمة 15.

7) إن القرآن العظيم واضح في سبب اتّهام امرأة العزيز ليوسف بالتحرّش بها. فمجيء زوجها إلى البيت في الوقت الذي كانت تحاول فيه إغواء يوسف واطّلاعه على هيئتيهما والموقف بشكل عام، حيث كان يوسف يريد الهروب بقميصه المشقوق خارجا من البيت، فضح ما كان يدور، مما دفعها إلى اتّهامه دفعا للتهمة عن نفسها: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. أما رمي يوسف في السجن فقد كان هدفه الأساسي إرغامه على الانصياع لدعوات السوء التي اطلقتها امرأة العزيز وباقي النسوة: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾، كما أن العزيز نفسه كانت له مصلحة في وضع يوسف في السجن وكما بيّنّا في تفسيرنا للآية الكريمة 35.

أما رواية العهد القديم فلا تفسّر على الإطلاق سبب اتّهام امرأة سيد يوسف له بالتحرّش بها. إذ كل الذي تقوله القصة هو أن امرأة العزيز تحرّشت بيوسف يوما حين «وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الخَدَمِ داخِلَ المَنزِلِ» (التكوين 39: 11) وأنه هرب من البيت تاركا في يدها قميصه. أي أن امرأة العزيز لم تكن تحت ضغط تفسير موقف ما بينها وبين يوسف لتتّهمه دفعا للتهمة عن نفسها، وإنما يبدو انها اتّهمته من دون سبب!

وبخلاف القرآن العظيم، لا يذكر العهد القديم انكشاف حقيقة الظلم الذي وضع يوسف في السجن.

8) يبيّن القرآن العظيم سبب رد يوسف بضاعة إخوته إليهم في الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. وبيّنّا بأنَّ هدف يوسف كان إعطاء إخوته بضاعة تمكّنهم من العودة إليه بسرعة، وكذلك التأثير على أبيه للسماح لهم باصطحاب أخيه معهم إلى مصر، وكما بيّنّا في تفسيرنا للآية الكريمة 65. إن شهود يعقوب للموقف العفوي لعثور بنيه على بضاعتهم جعله يطمئن أكثر إليهم وإلى ما كانوا يصفوه من طيبة العزيز وبالتالي يوافق على ذِهاب بنيامين مع إخوته من بعد أن كان قد رفض ذلك: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِن اللَّهِ لَتَأْتُونَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

أما العهد القديم فيقول: «ثُمَّ أَمَرَ يُوسُفُ خُدّامَهُ بِأَنْ يَملأُوا أكياسَ إخوتِهِ بِالقَمحِ. وَأمَرَهُمْ أيضاً أنْ يُعِيدُوا مالَ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ إلَى كِيسِهِ، وَأنْ يُعطُوهُمْ طَعاماً لِلرِّحلَةِ» (التكوين 42: 25)، ولكن من غير تفسير قيامه بذلك! لاحظ أيضا قول العهد القديم «وَلَمّا أفرَغُوا أكياسَهُمْ، وَجَدَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ صُرَّةَ مالِهِ فِي كِيسِهِ. وَلَمّا رَأَوْا وَأبوْهُمْ صُرَرَ مالِهِمْ خافُوا» (التكوين 42: 35) يعني بأنَّ كُتّاب النص كانوا على علم بوجود علاقة ما بين رد يوسف لبضاعة إخوته وبين اكتشافهم لها في البيت في حضور أبيهم، لكن من الواضح أن الكُتّاب لم يكونوا يعرفون هدف يوسف من تلك الخطة فلم يذكروا بأنَّ يوسف أراد لهم العثور على البضاعة في البيت، فبقيت الحادثة في النص ولكن في غياب الإشارة إلى أنها كانت أساسا جزءاً من خطة يوسف وإلى دورها في تلك الخطة!

9) رغم إبقاء يوسف لأحد إخوته رهينة عنده حتى يجلبوا أخاهم الآخر: «ثُمَّ أخَذَ شَمْعُونَ مِنْ بَينِهِمْ، وَأمَرَ بِأنْ يُوثَقَ أمامَ عُيُونِهِمْ» (التكوين 42: 24)، وحزن

يعقوب على فقدان ابنه كما في قوله: «جَرَّدْتُمُونِي مِنْ أولادِي! فَقَدْتُ يُوسُفَ وَفَقَدْتُ شَمْعُونَ، وَها أنتُمْ تَأْخُذُونَ بَنْيامِيْنَ أيضاً. فَكَيفَ أحتَمِلُ هَذا كُلَّهُ؟» (التكوين 42: 36)، فقد تجاهل كتّاب العهد هذه الحادثة الرئيسية تماما في ما تلى ذلك من نص! إذ يبدأ الإصحاح 43 بما يلي: «وَكانَتِ المَجاعَةُ قاسِيَةً فِي الأرْضِ. 2 فَلَمّا اسْتَهلَكُوا القَمْحَ الَّذِي اشْتَرُوهُ مِنْ مِصْرَ، قالَ لَهُمْ أبُوهُمْ: «عُودُوا وَاشْتَرُوا لَنا طَعاماً». 3 لَكِنَّ يَهُوذا قالَ لَهُ: «لَقَدْ حَذَّرَنا الحاكِمُ فَقالَ: «لَنْ تَرَوْا وَجهِي إلّا إذا كانَ أخُوكُمْ مَعَكُمْ»»». (التكوين 43: 1-3). لاحظ كيف يتجاهل يعقوب وبنوه، أو بالأحرى كُتّاب العهد القديم، تماما وجود شمعون رهينة عند يوسف! بل لم يأمر يعقوب بنيه بالذهاب إلى مصر إلا لجلب المزيد من الطعام وذلك بعد انتهاء ما كان عندهم!

10) بالرغم من أن يعقوب أرسل أبناءه مرة أخرى إلى مصر بسبب ما حدث من «مَجاعَةُ قاسِيَةٌ فِي الأرْضِ» (التكوين 43: 1) فإن الهدايا التي أخذوها إلى يوسف لا تشير على الإطلاق إلى وجود أية مجاعة: «خُذُوا بَعضاً مِنْ أفضَلِ نِتاجِ الأرْضِ فِي أكياسِكُمْ، وَانزِلُوا بِها إلَى الرَّجُلِ هَدِيَّةً. خُذُوا بَعضَ البَلْسَمِ وَبَعْضَ العَسَلِ وَصَمْغِ القَتادِ وَالمُرِّ وَالفَسْتُقِ وَاللَّوْزِ» (التكوين 43: 11)!

11) لاحظنا بأنَّ الآيتين الكريمتين ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ و﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ تشيران إلى «مأوى» كان يؤوي إليه يوسف من يريد. إن فكرة وجود مأوى أو «مخدع» موجودة في رواية العهد القديم ولكن في سياق مختلف: «ثُمَّ انحَنُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ أمامَهُ احتِراماً لَهُ. 29 فَتَطَلَّعَ يُوسُفُ فَرَأى بَنْيامِيْنَ أخاهُ، ابْنَ أُمِّهِ. فَقالَ: «أهَذا هُوَ أخُوكُمُ الأصْغَرُ الَّذِي حَدَّثْتُمُونِي عَنْهُ؟» ثُمَّ قالَ لَهُ: «لِيُنْعِمْ عَلَيكَ اللهُ، يا ابْنِي». 30 ثُمَّ اندَفَعَ خارِجاً مِنَ الغُرْفَةِ لِأنَّ مَشاعِرَهُ نَحْوَ أخِيهِ كانَتْ قَوِيَّةً. أرادَ أنْ يَبْكِيَ. فَذَهَبَ إلَى غُرْفَتِهِ وَبَكَى هُناكَ. 31 ثُمَّ غَسَلَ وَجهَهُ وَخَرَجَ. وَضَبَطَ نَفْسَهُ» (التكوين 43: 28-31). أي عرف كُتّاب العهد القديم بوجود دور لمخدع يوسف في القصّة، إلا أنهم كانوا جاهلين بطبيعة هذا

الدور فأعطوه دور المكان الذي بكى فيه يوسف، وهو دور ليس له أي تأثير يُذكَر على سياق ومجرى القصة.

12) ذكرنا بأنّه في القصة القرآنية هدفت خطة يوسف بإبقاء بنيامين عنده ضمان عدم فقدانه لأثر أبيه وإخوته إذا علم إخوته بحقيقته وقرروا عدم العودة إليه. أما في رواية العهد القديم فنرى بأنَّ يوسف ينفّذ خطة اتّهام أخيه بالسرقة إلا أن الأمر ينتهي به إلى كشف هويّته لإخوته خلال نفس تلك الزيارة (التكوين 44-45)! أي يصوّر العهد القديم خطّة اتّهام يوسف لأخيه على أنّها لا هدف لها على الإطلاق. وهذه حادثة أخرى حقيقية عَلِمَ كُتّاب نص العهد القديم بوقوعها ولكن من غير أن يعلموا هدفها وأهمّيتها، وبالتالي انتهى بهم الأمر إلى ذكرها كحادثة عشوائية لا هدف لها!

13) يعلمنا القرآن الكريم بأنَّ إخوة يوسف عرضوا عليه أن يأخذ أحدهم عبدا بدل أخيهم، لكي يعيدوا شقيقهم إلى أبيهم سالما ولا ينكثوا عهدهم له: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. أما العهد القديم، فيشير إلى أن إخوة يوسف عرضوا عليه أن يأخذهم جميعا عبيدا بالإضافة إلى أخيهم: «فَلَمّا جاءَ يَهُوذا وَإخوَتُهُ إلَى بَيتِ يُوسُفَ، كانَ يُوسُفُ ما يَزالُ هُناكَ. فَألقَوْا بِأنفُسِهِمْ عَلَى الأرْضِ أمامَهُ. 15 فَقالَ لَهُمْ يُوسُفُ: «ما هَذا الَّذِي فَعَلْتُمُوهُ؟ ألا تَعرِفُونَ أنَّ الأسرارَ تُكشَفُ لِرَجُلٍ مِثلِي؟» 16 فَقالَ يَهُوذا: «ماذا عَسانا نَقُولُ يا سَيِّدِي؟ ماذا عَسانا نَقُولُ؟ وَكَيفَ نُبَرِّئُ أنفُسَنا؟ فَقَدْ كَشَفَ اللهُ جَرِيمَةَ خُدّامِكَ. فَها نَحْنُ بَينَ يَدَيكَ يا سَيِّدِي، نَحْنُ وَمَنْ وُجِدَتِ الكَأْسُ فِي حَوْزَتِهِ»» (التكوين 44: 14-16)! أي أن عرض إخوة يوسف بأن يصبحوا عبيدا لم يكن بلا فائدة لهم فحسب، بل كان سيأتي عليهم بأذى لا مبرّر له على الإطلاق!

ثم يشير العهد القديم إلى حادثة لاحقة عرض فيها يهوذا على أخيه يوسف أن يأخذه عِوَضا عن بنيامين لكي يعود هذا الأخير إلى أباه: «فَالآنَ اسْمَحْ لِي، أنا خادِمَكَ، بِأنْ أبقَى هُنا عَبْداً لَكَ، يا سَيِّدِي، مَكانَ أخِي. وَدَعِ الفَتَى يَذْهَبْ مَعَ إخْوَتِهِ» (التكوين 44: 33). من الواضح أن هذه أقرب إلى الحادثة الحقيقية من تلك المذكورة أعلاه.

14) لا تشير قصة العهد القديم على الإطلاق إلى فقدان يعقوب لبصره ومعجزة رد يوسف لبصر أبيه. إلا أن هنالك إشارات في العهد القديم يمكن أن يعود أصلها إلى ذلك الجزء الذي أُهمِل من القصة الحقيقية. وهذه الإشارات هي وعد الرب ليعقوب «وَسَيُغلِقُ ابْنُكَ يُوسُفُ عَيْنَيكَ حَينَ تَمُوتُ» (التكوين 46: 4)، وقول يعقوب ليوسف بعد لقائه «أنا الآنَ مُسْتَعِدٌّ أنْ أمُوتَ، حَيثُ إنّي رَأيتُكَ بِنَفسِي وَتَأكّدْتُ مِنْ أنّكَ ما زِلْتَ حَيّاً» (التكوين 46: 30)، وعبارة «وَكانَتْ عَينا إسْرائِيلَ ضَعِيفَتَينِ مِنَ الشَّيخُوخَةِ. فَلَمْ يَكُنْ يَرَى جَيِّداً» (التكوين 48: 10).

إن هنالك الكثير غير هذا مما يمكن قوله عن تناقضات قصة يوسف في العهد القديم، ناهيك عن ركاكتها الواضحة التي لا تحتاج لجلب الانتباه إليها. فانظر مثلا إلى التفاصيل السخيفة في الإصحاح 47 عن شراء يوسف للمصريين وممتلكاتهم وأراضيهم ثمنا للحبوب التي كان يزوّدهم بها، أو إشارة العهد القديم إلى إعطاء يوسف بذوراً للناس ليزرعوها ويعطوا خمس الغلة إلى فرعون بينما لم تكن سنوات الجوع قد انتهت بعد (التكوين 47: 24).

كما لاحظ التفاصيل المفرطة عن ذرية يعقوب وأبنائه وأحفاده وأسمائهم وكم عاشوا، وهي تفاصيل تتخلّل الكثير من أجزاء العهد القديم وتعكس اهتمام هذا الكتاب العرقي ببني إسرائيل وترويجه لفكرة كونهم «شعب الله المختار»[1]. إن الكثير جدا من التفاصيل التي ترد في العهد القديم تجعل منه كتاب تأريخ أكثر بكثير مما هو كتاب دين وتبيّن تشابهه مع الوثائق التأريخية التي درج أهل الحضارات القديمة على تدوين أخبارهم فيها.

ويكشف ما تقدّم عن العيوب الكثيرة والجوهرية التي تحتويها قصة يوسف في العهد القديم. إلا أن الأهم من هذا هو أن مقارنة تلك الرواية الركيكة والمتناقضة

(1) لقد درسنا أصل هذه الفكرة ودلالاتها نقديًا في كتابنا التأريخ يشهد بعصمة القرآن: تأريخ بني إسرائيل المبكّر.

بالرواية القرآنية المُحكَمة لقصة نبي الله يوسف تسلّط المزيد من الضوء على مظاهر إعجاز في القرآن العظيم. وتبيّن هذه الدراسة تفاهة وضلال اتّهام القرآن العظيم بأنّه منقول من العهد القديم. كما أنها تبرهن صحّة ما يشير إليه القرآن العظيم ضمنيا من أن كتب دينية مثل العهد القديم إنما هي من خط أيدي بشر استخدموا بعض الأخبار الصحيحة وخلطوها بتفاصيل لا أساس لها:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ (المَائِدَة: 41).

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ (النِّسَاء: 46).

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78). فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البَقَرَة: 78، 79).

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (78). مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُم تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آلَ عِمْرَان: 78، 79).

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البَقَرَة: 75).

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المَائِدَة: 13).

الخاتمة

درسنا في هذا الكتاب مختلف مظاهر الإعجاز في السورة القرآنية لقصة نبي الله يوسف، من البلاغة الرائعة وأسلوب الرواية الخلاب إلى عظمة الدروس والعبر، مرورا بالتناسق المذهل بين أجزاء السورة وبينهما وبين باقي آيات القرآن العظيم. ومن الصفات الإعجازية للقرآن العظيم التي تظهر للعيان بأجلى صورها بإذن الله عند دراسته بحرص وجدّيّة وتمحيص هي عمق المعاني التي يضمّها هذا النص الذي لا يجاريه نص آخر في غنى محتواه. بل إن التعرّف على المزيد من معاني هذا الكتاب العزيز لا يزيد المرء إلا تيقّنا من لانهائية العلم الذي وضعه الله في كتابه الفريد هذا وميّزه حتى عن ما سبقه من الكتب الإلهية حين جعله مهيمنا عليها: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: 48). إن دراسة القرآن العظيم هي تجربة رائعة وفريدة لا يشبهها شيء، وهي بعد ذات مذاق عذب خاص ليس له مثيل.

يجب أن نتذكّر وقد انتهينا من هذه الجولة الروحية الممتعة في رحاب القرآن العظيم بأنَّ كتاب الله هو أعمق من أن يحتويه تفسير مُفسِّر أو يلمّ بمعانيه عقل مفكّر. إن القرآن العظيم هو منهل علم خالد لكل من يجدُّ في طلب العلم الحق، والطالب المجدُّ يرى في القرآن العظيم ما لا يراه غيره ويستقي من هذا الكتاب الفريد من العلوم ما لا يتيسّر لغيره. إلا أن علم القرآن العظيم لا حد له ولا قرار ولذلك فإنه يبقى مصدر علم جديد للمرء مهما ارتقى في سلم العلم والمعرفة.

إن مما لا شك فيه بأنَّ تفسيري قد غفل عن الكثير من مواعِظ وعلوم هذه القصة القرآنية العظيمة. كما أنني تعمّدت عدم محاولة التطرّق إلى جوانب معيّنة في سورة يوسف، كالعلاقات الرقمية الغريبة فيها. لاحظ مثلا بأنَّ السورة تتحدّث عن يوسف وإخوته الذين عددهم 11، وأن عدد آيات السورة هو 111، وأن عبارة ﴿أَحَدَ عَشَرَ

كَوْكَبًا﴾ تتكوّن من 11 حرفا، وأن قصة يوسف تنتهي في الآية 101 من السورة، وأن تسلسل هذه السورة في القرآن العظيم هو 12، أي 11+1. إن الله اعلم بمثل هذه الإشارات ودلالاتها.

أخيرا، أسأل الله أن يتقبّل هذه المساهمة المتواضعة في دراسة كتابه العظيم وأن يغفر لي كل ما أسأت فهمه أو شرحه، والصلاة والسلام على صاحب القرآن وآله وصحبه.

المراجع

ابن كثير، إسماعيل. تفسير القرآن العظيم، تحقيق مصطفى السيد محمد وآخرون، 15 مجلَّد، الجيزة: مؤسّسة قرطبة، 2000.

ابن هشام، أبي محمد عبد الملك. سيرة النبي، تحقيق فتحي أنور الدابولي، 4 مجلَّدات، طنطا: دار الصحابة للتراث بطنطا، 1995.

البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح، تحقيق عبد القادر شيبة الحمد، 3 مجلَّدات، الرياض: عبد القادر شيبة الحمد، 2008.

الحويزي، عبد علي بن جمعة، تفسير نور الثقلين.

الخالدي، صلاح عبد الفتّاح. التفسير والتأويل في القرآن، الأردن: دار النفائس، 1996.

الدّارمي، أبو محمد عبد الله. مُسنَد الدّارَمي، تحقيق سليم حسين الدّاراني، 4 مجلَّدات، الرياض: دار المغني للنشر والتوزيع، 2000.

الزمخشري، جار الله أبي القاسم. الكشّاف، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض، 6 مجلَّدات، الرياض: مكتبة العبيكان، 1998.

السكندري، أحمد بن عطاء الله، التنوير في إسقاط التدبير، تحقيق محمد عبد الرحمن الشاغول، القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، 2007.

السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق عبد الله بن محمد المحسن التركي، 17 مجلَّد، القاهرة: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، 2003.

الطباطبائي، محمد حسين. الميزان في تفسير القرآن، بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1997.

الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، 24 مجلَّد، الإحساء: دار هجر، 2001.

طهماز، عبد الحميد. الوحي والنبوّة والعلم في سورة يوسف، دمشق: دار القلم، 1990.

الطوسي، محمد بن الحسن. التبيان في تفسير القرآن، تحقيق آغا بزرك الطهراني، 10 مجلّدات، بيروت: دار إحياء التراث العربي، بلا تاريخ.

العيّاشي، محمد بن مسعود، تفسير العيّاشي، تحقيق هاشم الرسولي الملاتي، مجلّدان، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1991.

فتوحي، لؤي. النسخ في القرآن العظيم والقانون الإسلامي: دراسة نقدية لمفهوم النسخ وتأثيره، بيروت: الدار العربية للعلوم، 2014.

فتوحي، لؤي، والدركزلي، شذى. البارانورمالوجيا: قراءات في علم خوارق العادات، بيروت: الدار العربية للنشر، 1999.

فتوحي، لؤي، والدركزلي، شذى. التاريخ يشهد بعصمة القرآن: تاريخ بني إسرائيل المبكّر، لندن: دار الحكمة، 2002.

القرطبي، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن، تحقيق هشام سمير البخاري، 22 مجلّد، الرياض: دار عالم الكتب، 2003.

القمّي، علي بن إبراهيم، تفسير القمّي، تحقيق طيب الموسوي الجزائري، مجلّدان، النجف: مكتبة الهدى، 1967.

المحلي، جلال الدين، السيوطي، جلال الدين، تفسير الجلالين، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دمشق: دار ابن كثير، بلا تاريخ.

Fatoohi, Louay, and Shetha Al-Dargazelli. The Mystery of Israel in Ancient Egypt: The Exodus in the Qur'an, the Old Testament, Archaeological Finds, and Historical Sources. Birmingham, UK: Luna Plena Publishing, 2008.

Fatoohi, Louay. Jesus The Muslim Prophet: History Speaks of a Human Messiah Not a Divine Christ, Birmingham, UK: Luna Plena Publishing, 2010.

Fatoohi, Louay. The Mystery of the Crucifixion: The Attempt to Kill Jesus in the Qur'an, the New Testament, and Historical Sources, Birmingham, UK: Luna Plena Publishing, 2008.

Fatoohi, Louay. The Mystery of the Historical Jesus: The Messiah in the Qur'an, the Bible, and Historical Sources, Birmingham, UK: Luna Plena Publishing, 2007.

Fatoohi, Louay. The Mystery of the Messiah: Jesus' Messiahship in the Qur'an, the New Testament, the Old Testament, and other Jewish Sources, Birmingham, UK: Luna Plena Publishing, 2009.

Pritchard, J. B. (editor). *Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament*, Princeton: Princeton University Press, 1950.

فهرس المحتويات

النبيّ يوسف عليه السلام

في القرآن الكريم والعهد القديم والتاريخ

إن لكل سورة من سور القرآن العظيم خصوصيتها وميّزاتها، وكذلك لسورة يوسف مكانتها المتميزة بين باقي سور القرآن، فمن خلال قصة فريدة سيّر الله حوادثها بأيدي لطفه وأحكم قصّها في كتابه العزيز تمنحنا هذه السورة الكريمة دروسًا عظيمة تسلب القلب بجمالها وتأسر العقل بحكمتها.

وإن هذا التفسير الذي يقدمه مؤلف كتابنا هذا يختلف كثيراً عن التفسيرات التقليدية لسورة يوسف ويخرج من تحليله للآيات الكريمة باستنتاجات كثيراً ما تخالف ما شاع من آراء بين المفسّرين، محاولاً عيش قصة يوسف بكل تفاصيلها التي أكّد النص القرآني صراحة حدوثها وكذلك تلك التي أشار إلى وقوعها بشكل غير مباشر، هذا مع الإشارة إلى تفاصيل أخرى محتملة يمكن ربطها بقصة يوسف رغم عدم وجود دليل في النص يؤكد حدوثها، واجتهد في أن يميّز بين مثل هذه التفاصيل المحتملة وتلك التي يشير إليها النص بشكل مباشر أو بشكل ضمني.





أسّسها محمد علي بيضون سنة 1971
d Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
ad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban
هاتف +961 5 804810 / 11 / 12
فاكس +961 5 804813
info@al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
DKI www.al-ilmiyah.com
دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
ISBN-13: 978-2-7451-0084-9

